

موسوعة
جغرافية مصر وتاريخها
N
نوبليس

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

(٧)

عبد الرحمان الجبرتي

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

المجلّد السابع

عجائب الآثار في التراجم والأخبار - ٢ -

الجزء الثاني: قيام وسقوط علي بك - ٣ -

إعداد وتحقيق
عبد العزيز جمال الدين

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة جغرافية مصر وتاريخها
اسم الكتـــاب:	عجائب الآثار في التراجم والأخبار - ٢ - الجزء الثاني: قيام وسقوط علي بك - ٣ -
المؤلـــف:	عبد الرحمان الجبرتي
إعداد وتحقيق:	عبد العزيز جمال الدين
قياس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحـات:	٢٢٨
عدد صفحات الموسوعة:	٥٧٨٤
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبِليس
تلفاكس:	٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١
هاتـف:	٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ - ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١
صندوق بريد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031353

ISBN 978-614-403-135-3

الطرق الصوفية فى مصر فى ظل الاحتلال العثمانى*

هدتنا المصادفة إلى العثور على أسماء طرق كادت تبلغ الثمانين عدا، فقد روى صاحب المناقب فى معرض الحديث عن الشعرانى أنه أخذ الطرق «كلها» عن مشايخه وهى ست وعشرون طريقة هى طرق الرفاعية والقادرية والأحمدية والبرهانية والشاذلية والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والكشيرية والأحمدية والعزيزية والسعودية والمصافحة والطيلسان والرداء والمئزر وإرخاء العدبة.

والظاهر أن هذه الطرق لم تكن كل ماقام فى مصر إبان العصر الذى عاش فيه الشعرانى ، فإن فى الكثير من كتبه ذكر طرق أخرى لم تذكر فى هذا البيت.نذكر منها الآن مالم يذكر فى ثبت المناقب السالف. ذكر الشعرانى فى أكثر من موضع فى لطائف المنن فرقا منها: المطاوعة بالشرقية والصعيد وفى قواعد التصوف يذكر طوائف البسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية (ولعلها البرهامية) والملامنية والحيدرية.

وفى العصر العثمانى وجدت فرق تصادفنا اسماؤها فى غير كتب الشعرانى منها ماوراه الجبرتى عن أصحاب البدع كجماعات العفيفى والسمان والعربى والعيسوية وأخرى رواها فى مواضع أخرى مع بعض ما أسلفناه منها فرقة السعيدية والشعيبية ثم الشناوية والشعرانية والمولوية ثم البراهمى والقدرية . وذكر عبد الغنى النابلسى فى رحلته إلى مصر فرقا أسلفنا بعضها ويضيف فرقة الدمرادشية والبكتاشية والكلشنية وتشير طبقات الشاذلية إلى طوائف أخرى منها العفيفية (ولعلها جماعة العفيفى التى ذكرها الجبرتى من قبل).

وذكر على مبارك أن الفرقة الأحمدية قد تفرعت إلى ست عشرة طريقة هى: المرازقة والكناسية والأنبابية والمنافية والحمودية والسلامية والحلبية والزاهدية والعشيبية (وقد ذكرناها من قبل) والبيومية والتسفيانية والشناوية والعربية (ولعلها جماعة العربى السالفة الذكر) والسطوحية والبندارية والمسلمية ويذكر الأستاذ «لين» فى كتابه المصريون المحدثون طائفة أولاد نوح من فروع الأحمدية.

وقال ان الرفاعية لا فروع لها وإن كان لها ثلاث بيوت هى البازية والملكية والحبيبية والفرق بين الفروع والبيوت أن لكل فرع شيخا أما البيوت فيجمعها شيخ واحد ، وأما القادرية فلا فروع لها ولابيوت. وأما البراهمة (أى البرهامية) فلها فرعان هما الشهاوية والشرانية (ولعله يريد الشرنوبية المنسوبة إلى أحمد عثمان الشرنوبى صاحب الطبقات المعروفة والمتوفى سنة ٩٤٠ هـ) وقال إن الشاذلية قد تفرع عنها أربع عشرة طريقة هى الجوهرية والقاسمية والمدنية (ولعلها المدينية التى رواها صاحب المناقب) والمكية والهاشمية والفروسية والتهامية والحندوشية والإدريسية والقاووقجية، ثم طرق أخرى سلف ذكرها (هى السمانية والعفيفية والعيسوية والخلوتية المنسوبة إليها السيد مصطفى البكرى وقد تفرع عنها أربع طرق هى الحنيفة (المنسوبة إلى الحفناوى + ١١٨١هـ) والسباعية والصاوية والضيفية.

والظاهر أن الدمرداشية قد تفرعت كذلك عن الخلوتية (المتفرعة عن الشاذلية) فإن عبد الغنى النابلسى يقول إن الشيخ شاهين قد اتهم بمعالجته

* استمدت هذه النبذة المطولة من كتاب التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى للدكتور توفيق الطويل. الصادر عن الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٨.

الكيمياء فنفر منه أكثر أتباعه ومريديه وانتقلت شهرته العظيمة للشيخ دمرداش حتى استقر شيخا للخلوتية فى الديار المصرية. وينص صاحب تكميل النور السافر على أن محمد كريم الدين الخلوتى قد تلقى الخلوتية عن دمرداش المحمدى (٩٣٣هـ). ولا ينبغى أن ننسى البكرية التى تزعمت الطريق فيما بعد.

وقد حاول السيد توفيق البكرى أن يؤرخ الطرق الصوفية القائمة فى العالم الإسلامى كله، ولكن صعوبة الاهتداء إلى أصلها وتسلسلها ومعرفة تاريخ نشأتها كانت تحمله على الاكتفاء فى تأريخ أكثرها بأن يقول «منسوبة إلى فلان» أو موجودة بمصر الآن وقد صادفتنا هذه الصعوبة عندما حاولنا الاهتداء إلى نشأة هذه الفروع التى تحدث عنها على مبارك وإن كان الراجح على الظن أن أكثرها كان قائما فى العصر العثمانى، فقد كتبت الخطط التوفيقية بعد هذا العصر بأقل من قرن كان سلطان الصوفية قد أخذ يضمحل ـ وإن كن ذلك لا يسر القول بأن الطوائف قد قل عديدها باضمحلال السلطان الذى كان لأهلها فإن عددها فى السنوات الأخيرة يزداد كما يبدو من إحصائيتين تراهما فى مكتبة مشيخة المشايخ مع أن سطوة أهل الطريق آخذة فى الزوال بمرور الزمان.

مميزات الفرق

الخصائص التى تميز هذه الفرق بعضها عن بعض قليلة لا تكاد تذكر، وأولها ما يختص بالزى وثانيها ما يتعلق بطريقة الذكر والعبادة؛ فأما عن الأول فقد عرفت الأحمدية بالزى الأحمر والبرهامية بالزى الأخضر والرفاعية بالزى الأسمر كما يقول على مبارك «والأستاذلين» أو الأسمر والأبيض كما يقول السيد توفيق، وعرفت القادرية بالزى الأخضر كذلك السعدية ويقول على مبارك إن أعلام الشاذلية مختلفة الألوان وليس للخلوتية علم وزيهم الذى يميزهم هو القاوق، كما أن الأولياء الذين تنسب إليهم الأحزاب المعتاد قراءتها لها علم وزيهم الخاص هو التاج وكان التاج من مميزات الخلوتية كما يشير صاحب السنا الباهر.

ومن هذا نرى أن الزى وحده غير كفيل بتمييزهم، فإن الزى الأخضر مثلا تتفق فيه القادرية والسعدية والبرهامية ـ بفرعيها وكذلك نقول فى الأحمدية والشاذلية وغيرها من الطوائف المتعددة الفروع. ويقول «لين» فى كتابه: كان أولاد نوح صغارا يرتدون جميعا طراطير تزينها من القمة خصل من الخرق ذات الألوان المختلفة، ويتقلدون سيوفا من الخشب ويمسكو سوطا يسمونه «فرقلة».

فأما وجه الخلاف بينها فى طريقة العبادة والذكر فنذكر ما عثر عليه بين ثنايا السطور مما ذهب أشتاتا فى بطون كتبهم، إذ لم نهتد إلى مصدر عرض لوجوه الخلاف بينها باسهاب ولا إيجاز.

والظاهر أن أكبر ما يميز الطوائف وردها ـ كما يقول ، «لين» فلكل طائفة ورد أو حزب أنشأه شيخها وحرص عليه أتباعه فى حياته وبعد مماته ، يرددونه فى الأوقات التى حددها لهم ويتلونه جماعة دون أن يتغيب عن تلاوته أحد منهم. لأن مدد الشيخ فى ورده كما يقول الشعرانى، ولهذا كان من أعظم ما يقع فيه المريد من سوء الأدب مع شيخه تغيبه عن تلاوة الورد الذى رتبه صباحا ومساء، وقد حتموا على المريد إذا اضطره للتغيب ظرف قاهر أن ينبئ شيخه ليناقشه فيه الحساب ، فإن كان تغيبه من غير عذر وجب أن يؤنب نفسه

أمـام إخـوانه، والاشـتـغـال بالعلم ودراسـة الدين لا يصلح قط أن يكون عذرا يحتمي به من قصر في حضور مجالس الورد بل لقد اعتبر بعضهم التغيب عن مثل هذه المجالس سببا يبرر طرد الشيخ للمريد الذى يقدم عليه، وقد جرت العادة بأن يعتز الشيخ بورده، فـلا يأذن لأحـد ممن يسلكون على يده أن يقرأ ورد غيره، فمن ذلك الشيخ محمود الكردى قد سلك على طريقة القصيرى ولكنه رأى الحفناوى + ١١٨١هـ فى رؤيا وقيل له هذا شيخك، فعلق به قلبه وأخذ عنه طريق الخلوتية، وسلك على يديه وإن أقام على قراءة أوراد شيخه القصيرى . فعاتبه فى هذا شيخ شيخه «السيد مصطفى البكرى» وكان الكردى قد كبر وعظم شأنه وأجيز وأذن له بإرشاد المريدين وتربيتهم، فاعتذر عن مسلكه بالخوف من شيخه القصيرى، فطلب إليه البكرى أن يستخير الله، ولما استجاب لمطلبه رأى فى منامه رسول الله وقد وقف القصيرى عن يمينه والبكرى عن يساره، وقال القصيرى للرسول : «أليست طريقتي على طريقتك ، وأليست أورادى مقتبسة من أنوارك ...؟ فلماذا يأمر السيد البكرى بترك أورادى...؟ فقال البكرى : يارسـول الله ، رجل سلك على أيدينا وتولينا تربيته، أيجوز له أن يهجر أورادنا ويقرأ أوراد غيرنا...؟ ويقول الراوى إن رسول الله قد أبى أن يفصل فى أمرهم وأشار عليهم بعمل القرعة...!! ورأى الكردى فى رؤيا وقعت له فى الليلة التالية. إن أبا بكر الصديق يشير عليه باتباع السيد البكرى، ورأى بين السماء والأرض ورده ، وقد كتب بحروف مجسمة من النور، فانشرح صدره وهجر القصيرى بعد ذلك .

على أن الأحـزاب فـيـمـا نرى لا يميـزها إلا اختلاف واضعيها لأنها أدعية يتوجهون فيها إلى الله، وصيغ مختلفة للصلاة على نبيه، وهى فى الجملة حافلة بآيات من القرآن الكريم، والكثير من فقراتها يتكرر مرات يختلف عددها حتى ليبلغ الثمانين ـ كما نرى فى حزب الشناوى أو الثلاثين كما نرى فى حزب الشعرانى أو الثلاث مرات كما فى حزب الجارحى وغيره بل لقد هدتنا المصادفة إلى أن حزب أبى السعود الجارحى مأخوذ كله ـ ما عدا خاتمته ـ من حزب الخصوصية للسادة الوفائية أو لعل الجزء الأول من الحزب الثانى هو المأخوذ من حزب الجارحى، فما تدرى التاريخ الذى وضع فيه حزب الوفائية هذا ـ ونلاحظ كذلك أن لبعض المتصوفة حزبين أو ثلاثة كما نرى عند زين العابدين البكرى ومحمد أبى الحسن البكرى وغيرهما وقد يضع شيوخ البيت الواحد عدة أحزاب تتلى جيلا عن جيل كما نرى فى بيت السادات البكرية والوفائية ووجوه التمايز بين الأحزاب لا تكاد تظهر فى غير الصياغة اللفظية. ولهذا فإن أظهر الفروق بين الأحزاب فيما يلوح لنا هو اختلاف منشئيها.

ويلى هذا فى وجوه التفرقة بعض مظاهر أخرى هدتنا المصادفة إلى العثور على بعضها فى بطون كتبهم، منها مارواه الجبرتى عند الكلام على أهل البدع كجماعة العفيفى والسمانى والعربى والعيسوية إذ قال إن لهم طريقة خاصة بهم فى ذكر الله «فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المنشدون القصائد والموالات ، ومنهم من يقول أبياتا من بردة المديح للبوصيرى، و يجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبى. وأما العيسوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهواء ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال

له سيدى محمد بن عيسى وطريقتهم ألهم يجلسون قبال بعضهم صفين ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على النغم ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم، وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم فى أكتاف بعض لا يخرج واحد عن الآخر ويتلوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة بحيث لا يقوم هذا المقام إلا كل من عرف بالقوة وهذه الحركات والإيقاعات على نمط الضرب بالدفوف فيقع بالمسجد دوى عظيم وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء كل أحد له طريقة تباين الأخرى».

ويمتاز فقراء الخلوتية فى ذكرهم وأورادهم بكثرة الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبى ، ولهم فى ذلك صيغ يرددونها فصلها الذين أرخوا هذه الطريقة أما طريقة تلقينهم للذكر فخير ما يميزها ترداد الأسماء السبعة على نمط مخصوص وفى فترات متقطعة والأسماء الستة الأولى فى الأذن اليسرى وهى : لا إله إلا الله وقد عرفنا كيف تردد ثلاث مرات مع إغماض العينين ثم الله ـ هو ـ حق ـ حى قيوم ـ ثم الإسم السابع فى الأذن اليمنى وهو قهار ـ وقد أبان الدردير الطريقة التى تلقنها بها من الحفناوى المعروف.

ولقد كان للسادات الدمرداشية والخلوتية والشناوية طريقة فى ذكر الله، فقد رويناها عن عبد الغنى النابلسى وقلنا إنهم كانوا يقدمون للذكر محلقين ثم يدورون وقد وضعوا أيديهم بعضها فى بعض، وذكروا الله فى رقصة يسمونها الهوية قائلين هو هو هو وكان بعضهم يركبون أياديهم إلى الوراء أمام رءوسهم ويحركونها بالتصعيد والتسفيل والتلوى على هيئة لعبة يسميها النصارى ركض الديك . كما يقول محمد بن صفى الدين الحنفى.

وكان أظهر ما يميز الفقراء السعدية إكثارهم من ذكر الله ، حتى إذا طاب لهم الذكر تواجدوا واضطربوا وتساقطوا على الأرض كالخشب المسندة لا يقوون على النهوض بل لا يستطيعون حراكا حتى يقوم نقيب الشيخ بكبس أيديهم وأرجلهم وإنهاضهم على بركة شيخهم، ومن كرامات بعضهم فى هذه الحال إخراج سائل ملون بالأحمر والأبيض أو الأصفر من أيديهم ومواضع أخرى فى أجسامهم دون أن يصيبهم جرح أو يكون فيهم منفذ لذلك....!! ولعله العرق الناشئ عن الجهد، قد لوثته قذارة البشرة أو الدم الذى ينبثق من جروح تنشأ عن عنف الحركات....!

والظاهر أن البرهامية كانت تتميز فى عبادتها بذكر الله بصيغة يادايم، فقد قال الشعرانى فى ترجمة عبد العال المجذوب : «ورأيته مرة وهو صاعد كوم بلده فقلت فى سرى ياترى هل هو أحمدى أم برهامى فصاح: يادايم ياديم يشير إلى أنه برهامى».

ويرجع الدكتور عفيفى القول بأن الملامتية «لم يكن لهم طريقة منظمة وقواعد ثابتة مقررة وأتباع ينتمون إلى المشايخ إنتماء أهل الطرق المتأخرين، ولكن كانت لهم صفات وآداب تكفى فى التمييز بينهم وبين طوائف الصوفية الأخرى ممن عاصروهم أو عاشوا بعدهم».

وفى السهر وردى والمقريزى تفرقة بين الملامتية والقلندرية جاء فيها «إن الملامتى يعمل فى كتم العبادات والقلندرى يعمل فى تخريب العادات والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى

الفضل فيه إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه تستر للحال حتى لا يفطن له وهو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات، والقلندرى لا يتقيد بهيئة ولا يبالى بما يعرف من حاله ومالا يعرف ولا ينعطف إلا على طيب القلوب وهو رأس ماله، والظاهر أن حال الملامتية لم يتغير كثيرا فى العصر العثمانى عما كان عليه أيام المقريزى ، فالشعرانى يقول إنهم يقللون النوافل مخافة الغرور وإن كان قد ذكرهم فى كتاب آخر بين الفرق التى لا تتقيد بمظاهر الكتاب والسنة وإن كان ابن عربى «يرفعهم ـ فى فتوحاته ـ إلى مقام فى الولاية لايدانيهم فيه أحد» فيما يقول الدكتور عفيفى.

وكان فقراء المطاوعة يجتمعون فى حلقات الذكر ويتخذون لهم مغنين من الرجال ومساعدين يدقون الطبول ويضربون الكؤوس وأولادا يجلسونهم وراء الذاكرين حتى إذا اشتدت حماسة الذكر هجم عليهم الأولاد واحتضنوهم من الخلف تيمنا وبركة، وكانوا إذا ساروا وضعوا فوق رءوسهم أو على جنوبهم «ملاحف وسراويل» فإذا انطلق الفقراء فى الطرقات نشروا راياتهم ودقوا طبولهم وضربوا على كؤوسهم وكان لموكبهم ضجة عظيمة، وقد كانوا يتخذون «أباريق» يملأونها بالماء ويحملونها فى أيديهم كلما ساروا ليتطهروا منها بين الحين والحين، وسبحا كبيرة من الخشب أو العظم أو نحو ذلك، وسيوفا من الخشب ومزاريق من الحديد وطواقى من السعف وطراطير يضعون عليها الودع والريش والخرق الحمراء وغيرها.

ويعبر الجبرتى عن الأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية بأنهم من أصحاب الأشاير والمراد بالأشاير كما يقول على مبارك جموع كثيرة من أهل الطرق يسيرون من منازلهم ليلا وبأيديهم الشموع وهم رافعوا الأصوات بالذكر والتهليل والصلاة والسلام على سيد المرسلين (ص) ولا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى الشريح أو محل الاحتفال بالمولد، ولبعضهم عادات من الحلو أو الشموع توزع عليهم حين وصولهم بعضها مقرر من الأوقاف وبعضها من مشايخ خدمة الأضرحة.

واشتهر فقراء السعدية والرفاعية بحوادثهم مع الثعابين ، ولعل الرفاعية كانت أشهر الطرق بالكرامات التى تقوم على طعن النفس بالمدى فى حالة الغيبوبة وأكل الزجاج والقبض على الحديد المحمى ودخول النار وازدراد الأفاعى وغير ذلك مما لا نزال نرى الكثير منه وإن كانت لائحة الطرق الحالية قد حرمته على فاعليه.

ومن أظهر مميزاتهم : البيعة وتلقين الذكر، وكانت طريقتهم فى الأولى أن الطالب إذا وفد على شيخهم أمره هذا بأن يتوضأ ويصلى ركعتين بنية التوبة والإنابة ثم يجلس المرشد (الشيخ) مستقبلا القبلة جاثيا على ركبتيه بالأدب والخشوع ويجلس الطالب أمامه لاصقا ركبتيه ، ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويأخذ المريد بعده ويقرأ قوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه.. ثم يأمر المريد بأن يقول : استغفر الله ــ استغفر الله العظيم الذى لا اله إلا هو الحى القيوم وأتوب اليه، تبت إلى الله ورجعت إلى الله ونهيت نفسى عما نهى الله، ورضيتك شيخا لى ومرشدا لطريقة الرفاعى ـ فيقول له المرشد : وأنا أقمتك مريدا بهذه الطريقة العلية وعلى هذا العهد المبارك ثم يقول له : قم

مريدا فى هذه الطريقة.

أما طريقتهم فى تلقين الذكر فلا تكاد تختلف عما أسلفناه من حيث ترداد لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمض العينين، وإن رأوا مد الصوت فى أول الكلمة من الكتف اليمنى إلى جهة الروح ـ تحت الثدى اليمنى . !! حتى يقر (هاء) لفظة الجلالة فى القلب الكائن تحت الثدى اليسرى باصبعين فإذا أتمها المرشد وضع جبهته على جبهة الطالب ويده على صدره ودعا له بالتوفيق والإخلاص والبركة.!! ثم ... إلى آخر ما كتبه مؤرخو للطريقة بهذا الصدد مع ذكر أورادهم الخاصة بهم والأذعية التى ألفوا تلاوتها.

أما الطريقة النقشبندية فإن طريقة أخذ العهد عند أهلها أن يجلس المريد بين يدى شيخه متوركا عكس تورك الصلاة فيبين له الشيخ محل القلب الصنوبرى الشكل الكائن تحت الثدى اليسرى بأصبعين ثم يستغفر الشيخ ربه والمريد يتابعه خمسا وعشرين مرة ثم يقرأ الشيخ الفاتحة مرة وسورة الإخلاص ثلاث مرات ويهدى مثل ثوابهما إلى صحيفة النبى وصحيفة إمام الطريقة محمد الإدريسى المعروف بشاه نقشبند ثم يأمر المريد أن يغمض عينيه وينظر بخياله إلى قلبه ويتوجه إليه على النحو المعروف عندهم ، ثم يلقنه ما يناسب استعداده من أذكار تراها منشورة فى الكتب التى تناولت آداب هذه الطريقة ومن هذا نرى أن الفوارق فى هذا الصدد شكلية تافهة.

وفى كتاب الأستاذ «لين» وصف ظريف لما كانت تفعله بعض الطوائف كالسعدية والشناوية فى المولد النبوى وغيره من موالد كبار الأولياء.

والواقع أن الفوارق بين الطرق لم تكن جوهرية فى هذا العصر، فقد كان الشائع بينهم أن يجمع الفقير بين عدة طرق، وإن كره الأشياخ لمريديهم أن يأخذوا على شيخين مهما كان السبب الذى يبررون به هذا المسلك. فقد جمع عبد الحى زين العابدين الحسينى ١١٨١ هـ بين الطرق الشاذلية والأحمدية والشناوية وجمع على بيومى ١١٨٣هـ بين الخلوتية والشاذلية والدمرداشية والأحمدية وجمع الشعرانى ٩٧٣ هـ بين ست وعشرين طريقة بسطنا أسماءها فيما سلف ، وجمع الدردير ١٢٠١ هـ بين الخلوتية والشاذلية والنقشبندية.

تلاشى الفروق بين الطرق:

ومما يشهد بأن مميزات الطرق ليست شرطا فى وجودها ما نراه من التطور الذى آلت إليه طريقة الذكر عند الطرق جميعها، فإن لائحة الطرق الصوفية فى وقتنا الحاضر تقضى بأن يكون الذكر تمجيدا لله، صريحا قياما أو قعودا مع الخشوع والوقار وهذا التحديد قد أفقد العيسيوية وأخواتها من الفرق المشابهة أكبر مميز لها كما روينا عن الجبرتى وغيره الآن، والفرق كلها مضطرة إلى الخضوع لهذا التحديد وإلا أعلن المجلس الصوفى فصلها وقضى بذلك على وجودها كما تنص لائحة الاجراءات الداخلية وكذلك نقول فى الرفاعية التى عرفنا الآن أعظم خصائصها، فإن اللائحة السالفة الذكر تقول : يبعد عن الطرق الصوفية «كل من اتصف بأعمال مناقضة للأعمال والآداب الشرعية كضرب الجسم بالسلاح وأكل الحشرات والهوام ودوس الأنام بالأنعام [الدوسه] ونحوها والذكر بهيئة الرقص والتخبط وعدم استكمال الحروف فيه وإنشاد الأغانى المخلة بالآداب عليه، وإقامة الزار فى

الأضرحة ونحو ذلك، وفى ذلك ما يسلب الخلوتية والدمرداشية والشناوية وغيرهم مميزا خاصا بهم فى طريقة الذكر وهو الرقص كما روينا عن عبد الغنى النابلسى وغيره من قبل.

ولعل شعور أهل التصوف بضآلة الفارق بين طريقة وطريقة ، هو الذى حملهم على أن يضعوا فى لائحة الاجراءات الداخلية هذه المادة «يجوز زيادة طريقة جديدة متى كانت الطريقة المستجدة لا تشابه طريقة من الطرق الموجودة فى اسمها واصطلاحها فكأن الخلاف الوحيد الذى يسرر استقلال طريقة وتحديد طرق العبادة على النحو الذى أسلفنا بعضه، كفيل بالقضاء على أكثر مميزات الفرق بعضها عن بعض.

بل لماذا نقول إن الفوارق بين الفرق اليوم قد تلاشت ولا نقول إن اللائحة التى وضعها أهل التصوف قد ألغت الفروق بين الصوفية والفقهاء..؟! أليست تقول إن التصوف لا مقصد له غير العلم بالشرع والعمل به. فما هى دعوى رجال الفقه إن لم تكن كذلك؟ وإذا كانت الفوارق بين الطرق التى تعيش اليوم بين ظهرانينا مجهولة حتى عند أهلها، فكيف لا يصعب البحث عن المميزات التى كانت للطوائف منذ مئات السنين؟ وأى طوائف...؟ هى التى هدتنا المصادفة إلى العثور على نحو ثمانين من أسمائها، فكيف لا يتعذر على الباحث معرفة الفروف التى تميز كلا منها..؟

والآن نتساءل : ألم يكن لهذه الفرق التى بلغت هذا العدد الرهيب رئيس عام يوحد كلمتها وينظم علاقتها ويفصل فى مشاكلها...؟ ذلك ما نتناول الحديث عنه فى الفصل التالى.

مشيخة مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية

رأى جرجى زيدان فى نشأتها بمصر ومبلغ الخطأ فى مزاعمه ـ رأى السيد توفيق البكرى ومدى الخطأ فيه ـ نشأة ها اللقب فى مصر قبل العصر العثمانى ـ تلاشى اللقب فى مصر.

تمهيد

عرفنا كيف كثرت الطرق الصوفية فى مصر حتى بلغ عدد أسمائها التى هدتنا المصادفة إلى العثور عليها نحو الثمانين فرقة، كان لكل منها معسكرات قائمة فى القرى والأقاليم ، واستبد نفوذها بهوى الألوف من الأتباع والمريدين، وامتد سلطان كبار شيوخها حتى ارتفعوا فوق قواعد الدين ومقتضيات التقاليد ونظم الدولة ...!! ودان بالولاء لهم حكام البلاد وعلماء الدين وعامة الشعب جميعا، فكان طبيعيا بعد هذا أن تفكر الدولة فى توحيد الزعامة التى تخضع لها هذه الطرق، حتى تأمن شرها وتتقى عصيانها وتضمن سيادتها على أرض البلاد..! ولم يكن بعيد الاحتمال أن يخضعوا جميعا من تلقاء أنفسهم لرئيس واحد يتخيرونه ، ليتكلم باسمهم ويفصل فى مشاكلهم وينظم علاقاتهم.

ومشيخة مشايخ الطرق فى وقتنا الحاضر يشغلها بأمر ملكى [جمهورى الآن]، شيخ السجادة البكرية (والوفائية منذ جمع سماحة المرحوم السيد عبد الحميد البكرى بين المشيختين) وقد استحوذ البكرية على هذه الوظيفة لأن بيتهم أعرق بيوت التصوف

فى مصر وأقدمها جميعا، فهو منحدر عن أبى بكر الصديق، وتاريخ نشأته فى مصر يرجع إلى الفتح الإسلامى كما يقول على مبارك ويؤكد السيد توفيق البكرى . وتقضى لائحة الطرق الصوفية بأن مجتمع مشايخ الطرق فى القطر المصرى فى هيئة جمعية عمومية بديوان محافظة مصر تحت رآسة المحافظ لانتخاب مجلس أعلى يتألف من شيخ السجادة البكرية رئيسا للمجلس ، والسبب فى ذلك الولاء المستمر للسادة البكرية للسلطنة العثمانية، وأربعة أعضاء يختارهم الرئيس من بين ثمانية ترشحهم الجمعية العمومية وعمل المجلس تعيين مشايخ الطرق ورفعهم من وظائفهم والفصل فى منازعاتهم الخاصة بالطرق، والحكم فى الشكاوى التى تثار فى هذا الصدد ، وعزل مشايخ بعض الأضرحة والتكايا والسجاجيد على نحو ما أوضحت لائحة الطرق الصوفية . هذا مظهر التوحيد فى رياسة الطرق الصوفية فى يومنا الحاضر.. فهل توحدت رياسة الطرق الصوفية فى مصر إبان العصر العثمانى ؟ ذلك ما زعمه بعض المؤرخين الذين تعرضوا لتاريخ مشيخة مشايخ الطرق فى مصر، بل أرخ بعض هؤلاء المؤرخين نشأته قبل العصر العثمانى، فما مبلغ الخطأ أو الصواب فيما يزعمون؟

رأى جرجى زيدان ومناقشة مزاعمه:

قال جرجى زيدان «ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها أعمالهم وتتوجه بها مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة أو زاوية مستقلة بنفسها، فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن ، فلما أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبى خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية، جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ ، وكان لا يولى عليها إلا أعظم رجال الدولة من الأكابر والأعيان .. ومازالت الحال كذلك إلى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر فى القرن التاسع الهجرى، فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى ، وكان من أعظم رجال عصره علما ودينا ، قال الشعرانى عنه (ولو قلت إنه أعلم أهل زمانه لم أبعد عن الصواب) ثم تولى بعده ابنه الإمام شيخ الإسلام العلامة الشهير أبو السرور البكرى «وانتقلت بعده إلى ذريته ، ولاتزال إلى الآن فى البيت البكرى الصديقى بمصر».

وهذا كلام سطحى ينطوى على أخطاء تزيد على الثمانية فيما يلوح.. ! فلنشرح هذا قليلا:

فالفقرة الأولى من كلامه تنطوى على مغالطتين ، لأنها تفرض قيام الزوايا فى مصر قبل خانقاه سعيد السعداء ـ وذلك غير صحيح فيما نعلم ـ لأن هذه الخانقاه قد استحالت إلى دويرة للصوفية عام تسع وستين وخمسمائة للهجرة كما عرفنا ، بينما نلاحظ أن الزوايا التى ذكرها المقريزى فى خططه ـ وبلغت الست وعشرين عدا ـ ليس بينها زاوية واحدة نشأت فى مصر قبل القرن السابع الهجرى، ولو وجدت هذه الزاوية ما أهملها فى تأريخه للزوايا. ثم إن هذه الفقرة تنص على خشية الدولة من الفتن التى كان يثيرها أهل التصوف فى هذا العصر، ومن الراجح أن صوفية هذا العصر كانوا قلة لا خطر لها. كان التصوف فى جملته إلى هذا العهد ظاهرة نفسية فردية، لم تتحول بعد إلى ظاهرة اجتماعية ، يشترك فيها الجماعات والطوائف ، ويمكن أن يكون بهذا مثارا للفتن ومصدرا

للخطر . ولما أنشئت أول خانقاه جعلت الواردين إلى مصر من البلاد الشاسعة كما عرفنا، وجل الزوايا والربط والخوانق التى عرضنا للكلام عنها فى الفصل السالف ، قد أقام فيها الأعاجم والأحباش وغيرهم من نزلاء مصر دون المصريين طبعا. وقد ظل عدد الدراويش المتجولين فى شوارع مصر من الفرس والأتراك أكبر عدد من المتجولين من الدراويش المصريين إلى ما بعد انقضاء العصر العثمانى ـ كما أشار إلى ذلك الأستاذ «لين» ـ ولا تظن أن هؤلاء النزلاء كانوا من الكثرة فى هذا العصر بحيث تخشى الدولة بأسهم وترهب فتنتهم ، فمن الخطأ بعد هذا أن يتحدث جرجى زيدان عن استقلال الزوايا أو خطورة الفتن قبل خانقاه سعيد السعداء.

والفقرة الثانية من كلامه تنطوى كذلك على مغالطتين أخريين : فإنها تنص على أن صلاح الدين قد «أنشأ» خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية ، وأدق من هذا أن يقال إنه حولها إلى خانقاه ، فقد كانت دارا معروفة منذ العصر الفاطمى. وثانى الخطأين دعواه بأن صلاح الدين قد جعل لشيخ هذه الخانقاه شبه تقدم على غيره من المشايخ «أى مشايخ الطرق التى تحدث عنها فى فقرته الأولى» والراجح أن شيخ الخانقاه كان يسمى شيخ الشيوخ ، وأريد بهذا التعبير الشيوخ المقيمون فى الخانقاه ، إذ كان كل فقير منهم شيخا لأنه يدرس الدين وينقطع لعبادته والعمل بأوامره ونواهيه، ولم توجد فى الوقت الذى أطلق عليه هذا اللقب خوانق أو ربط أو زوايا حتى يجوز الظن بأن المراد بهذا اللقب شيخ شيوخ الخوانق والربط والزوايا الأخرى.

أما الفقرة الأخيرة فتنطوى على أربعة أخطاء: لأنها تنص على أن رآسة الصوفية قد توحدت فى القرن التاسع، وذلك ما سنكشف عن بطلانه فيما يلى من حديث ، وتزعم بأن السيد محمد شمس الدين البكرى قد تولى هذه الرآسة فى القرن التاسع ، وأنه والد أبى السرور البكرى ، مع أن محمد شمس الدين الذى عاش فى القرن التاسع (٨٤٧ وهو الحنفى) لم يكن أبا أبى السرور البكرى (ولد سنة ٩٧١ ومات سنة ١٠٠٧) فإن أباه هو السيد محمد أبو المكارم زين العابدين أبيض الوجه ، وقد ولد سنة ٩٣٠ ومات عام ٩٩٤هـ على ما يروى على مبارك وهو الشهير بالبكرى الكبير فى كتب التاريخ والطبقات والمناقب، وهو الذى قال فيه الشعرانى إن الناس قد أجمعوا على أن ليس على وجه الأرض بلدة أكثر علما من مصر ولا فى مصر مثله فإذا عدنا إلى الذين ترجموا لهذين الرجلين والتمسنا عندهم صحة ما يدعيه الأستاذ زيدان، رجح عندنا الظن بخطئه فيما يذهب إليه ، فإن كتاب التراجم فى هذا العصر وما بعده، كانوا أسخياء فى خلع الألقاب على من ترجموا لهم ولو أن أحد هذين الرجلين استحوذ على لقب مشيخة المشايخ ما أهملها الذين ترجموا حياته، ولدينا ممن عرضو لترجمتهما ـ الشعرانى والمناوى ومحمد أبو السرور البكرى وعلى مبارك وصاحب النور السافر ومؤلف الإعلام بأعلام بيت الله الحرم والسيد توفيق البكرى ... إلخ وليس فى كلام واحد منهم ما يؤيد دعوى الأستاذ زيدان . وسنروى عن بعض هؤلاء المؤرخين نصوصا تشهد بأن الزعامة قد تنازعها غير هذين الرجلين فى عصريهما..! وقول الشعرانى عن

السيد محمد شمس الدين إنه أعلم أهل زمانه، ليس دليلا على أن كان شيخا للمشايخ، بل تشهد بسعة علمه في عرف الشعراني ، و سنعرف بعد قليل أن مشيخة المشايخ لم تنتقل إلى ابنه ويتوارثها ذريته من بعده كما يقول الأستاذ.

رأي السيد توفيق البكرى ومناقشته:

هذا الكلام السطى الذى لا ينهض فيه صاحبه من خطأ حتى يسقط فى خطأ آخر ، قد صادف قبولا عند بعض المؤرخين كالسيد توفيق البكرى في كتابه «بيت الصديق» الذى يرويه على علاته ولا يعلق عليه بكثير ولا قليل ، بل يستند إليه فى تأريخ البيت البكرى ويؤثر ما جاء به على ما ذكرته عن أفراد هذا البيت كافة كتب التاريخ والطبقات. فمترجمو القرون التاسع (السخاوى) والعاشر (الغزى والعيدروسى.والشبلى) والحادى عشر (المحبى) والثانى عشر (المرادى) إلى غيرهم من المؤرخين وكتاب التاريخ والطبقات كالجبرتى وابن اياس وأبى السرور البكرى والشعرانى بطبقاته الكبرى والوسطى والصغرى والمناوى بطبقاته الكبرى والوسطى وغيرهم، لم يشيروا قط إلى وجود شيء اسمه مشيخة المشايخ في البيت البكرى أو غيره من بيوت التصوف فى مصر. ولكن السيد توفيق البكرى يقول مؤرخا بيت الصديق إن وظائف هذا البيت من قديم الزمان ثلاث: مشيخة السجادة البكرية ومشيخة المشايخ الصوفية ونقابة الأشراف. ويصر عند الكلام على مشيخة السجادة البكرية على أن من «حقوقها القديمة وأصولها المستديمة أن يتولى صاحبها مشيخة مشايخ الصوفية، ولم يقل لنا السيد توفيق متى يبدأ فى عرفه «قديم الزمان» الذى استحوذ فيه البكرية على هذا اللقب.

على أن السيد توفيق وان كان يروى رأي جرجي زيدان من غير تعليق إلا أنه لم يجرؤ على خلع هذا اللقب على جميع أفراد البيت البكرى وأفرع دوحته منذ القرن التاسع إلى يومنا الحاضر كما رأى صاحبه، وإنما تبرع بخلعه على بعض من عاشوا فى مصر منذ القرن الثانى عشر الهجرى، والغريب أنه ضن به على أهل القرن التاسع والعاشر والحادى عشر، بل بخل به حتى على الذين أثيرت الضجة التى أسلفناها الآن من أجلهم، من محمد شمس الدين البكرى وأبى السرور البكرى ومحمد شمس الدين الحنفى مما يشهد بضعف ثقته فى مزاعم المرحوم جرجي زيدان ، وإن لم يصرح بذلك.

فلنعرض لمن سماهم السيد توفيق شيوخ المشايخ من أهل القرنين الثانى عشر والثالث عشر، لنرى مبلغ الصدق أو مدى الخطأ في دعواه:

نلاحظ أنه خلع اللقب على أربعة من أهل القرنين الثانى عشر هم السيد أبو المواهب البكرى المتوفى سنة خمس وعشرين ومائة وألف والشيخ أحمد البكرى المتوفى سنة ثلاثة وخمسين ومائة وألف والشيخ أحمد بن عبد المنعم البكرى المتوفى سنة خمس وتسعين ومائة وألف والسيد محمد البكرى الكبير المتوفى سنة ست وتسعين ومائة وألف. فنلاحظ أن السيد توفيق يضع فى عنوان ترجمة كل واحد من هؤلاء الأربعة لقب شيخ المشايخ ! فإذا أمعنا النظر فيما يكتبه عن كل منهم

رأيناه يقول فى ترجمته الأولى «هو شيخ الإسلام وعلامة الأنام تولى السجادة البكرية التى من حقوقها مشيخة المشايخ الصوفية وأحيا معالم الطريق والإرشاد بمصر فى المعقول والمنقول وعلوم القوم توفى سنة ١١٢٥هـ ودفن بزاويته » ولم يشر السيد توفيق إلى المصدر الذى استقى منه كلامه كما فعل فى أكثر التراجم التى ضمنها كتابه، ولهذا دلالته ومغزاه .و يروى عن ثانيهم وهو الشيخ أحمد البكرى وثالثهم وهو أحمد عبد المنعم البكرى ، نص ما ذكره الجبرتى فى ترجمتهما دون أن تزيد عليه كثيرا ولا قليلا، ومما يقوله الجبرتى عنهما خلو من كل إشارة إلى مشيخة المشايخ التى تبرع السيد توفيق بخلعها عليهما فى عنوان الترجمتين من غير مبرر...! ثم يروى عن رابعهم وهو محمد البكرى الكبير نص ما يقوله الجبرتى كذلك فإذا النص لا يخلو من الإشارة إلى مشيخة المشايخ فحسب، بل يقطع وجه الشك فى أمرها فيقول «ولما توفى ابن عمه الشيخ أحمد شيخ السجادة البكرية تولاها بعده باجماع الخاص والعام مضافة لنقابة الأشراف فحاز فخار المنصبين وكمل له فضل الشرفين ، ولم يقم فى ذلك إلا نحو سنة ونصف وتوفى ، فلو أنه تولى مشيخة المشايخ لنص عليها الجبرتى أو أشار إليها. وكذلك يقول فى السيد محمد البكرى الصغير ١٣٠٨ والذى وضع السيد توفيق فى رأس ترجمته لقب شيخ المشايخ، ثم أورد نص الجبرتى فيه من غير نقص ولا زيادة، فإذا فيه «السيد محمد البكرى أفندى الصديقى شيخ سجادة السادة البكرية ونقيب الأشراف بمصر المحمية ، تقلد بعد والده المنصبين وورث عنه السيادتين» وكذلك الحال فى السيد خليل البكرى سنة ١٢٢٣هـ.

ومن هذا نرى أن السيد توفيق كان يتبرع من عنده بلقب شيخ المشايخ ويضعه فى عنوان تراجمه، وليس فى التراجم قط إشارة تبرر وضعه.

نستطيع الآن أن نقرر ونحن على شيء كثير من اطمئنان اليقين، أن العصر العثمانى قد انقضى بقرونه الثلاثة دون أن يعرف أهل التصوف فى مصر رئيسا فذا لهم، يوحد كلمتهم ويفصل فى مشاكلهم.

نشأة اللقب قبل العصر العثماني:

لا ... بل لقد وجد هذا اللقب من قديم الزمان ! منذ القرن السادس للهجرة، أى قبل دعوى جرجى زيدان بثلاثة قرون أو أربعة ..! بيد أن المعنى الذى يحمله كان يختلف عن المعنى الذى قصده به الأستاذ زيدان والسيد توفيق . قال المقريزى : فكانت «سعيد السعداء أول خانقاه عملت بمصر وعرفت بدويره الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ، واستمر فى ذلك بعده إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ستة وثمانمائة واتضعت الأحوال وتلاشت الرتب فلقب كل شيخ خانقاه «شيخ الشيوخ» ويقول فى خانقاه سر ياقوس «قرر السلطان فى مشيخة هذه الخانقاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحد بن محمود الاقصراوى ولقبه بشيخ الشيوخ فصار يقال له ذلك ولك من ولى بعده، وكان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ إلا شيخ خانقاه سعيد السعداء» وكان ذلك عام ٧٢٥هـ.

والظاهر أن المقريزى أراد أن يقول إن شيخ

خانقاه سعيد السعداء كان يستحوذ وحده على لقب شيخ المشايخ منذ سنة ٥٦٩ هـ إلى سنة ٧٢٥ حين شاركه فيه شيخ خانقاه سرياقوس ، واستمرا يتنازعان هذا اللقب إلى أن زحفت المحن وتلاشت الألقاب فى مستهل القرن التاسع ، فاستولى على اللقب جميع شيوخ الخوانق التى كانت قائمة بمصر فى هذا العهد.

وقد أيد القلقشندى كلام المقريزى فقال «إن مشيخة الشيوخ كانت تطلق على مشيخة الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء) إلى أن بنى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لخانقاه الناصرية بسرياقوس ، فاستقرت مشيخة الشيوخ على من يكون شيخا بها، والأمر على ذلك للآن» ـ وقت كتابة صبح الأعشى .

والظاهر أن شيخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على سائر المشايخ، لا فى مصر وحدها بل فى الشام وغيرها، فقد أورد القلقشندى نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بسرياقوس فإذا فيها «فلذلك رسم بالأمر الشريف... أن يفوض إلى المشار إليه (الشيخ نظام الدين الأصفهانى) مشيخة الشيوخ بالديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية وسائر الممالك الإسلامية المحروسة على عادته فى ذلك، وقاعدته معلومة، وأن يكون ما يخص بيت المال المعمور من ميراث كل من يتوفى من الصوفية بالخانقاه المذكورة للمشار إليه، بحيث لا يكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه فى ذلك حديث؛ وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعة إليه، ولا يكون لأحد من الحكام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة فى ذلك حديث معه، ولا يشهد أحد من الصوفية ولا ينتسب إلا بإذنه على العادة فى ذلك...

ومن هذا النص نستطيع أن نقول إن شيخ مشايخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على غيره من المشايخ فى مصر وغيرها من البلاد السالفة الذكر، إلا أن اختصاصه الفعلى كان مقصورا على الصوفية المقيمين بخانقاه سرياقوس وحدها. والدلائل التى تحت أيدينا تنفى نفيا باتا وجود شيخ مشايخ ـ طوال العصر العثمانى خصوصا ـ وظيفته التكلم على كافة الطرق الصوفية والتحدث باسمهم وتنظيم علاقاتهم والفصل فى مشاكلهم على نحو ما ذهب السيد توفيق وجرجى زيدان، ولا بأس من أن نسرد بعض هذه الدلائل :

روى صاحب المناقب الكبرى أن شيخ الإسلام محمد شاه قد حبس الشيخ الغمرى فاستغاث أقاربه بالشعرانى ووسطوه لإنقاذ السجين، فكتب الشعرانى بطاقة إلى محمد شاه قال فيها «إن من أعظم بيوت سلاطين الأولياء والأقطاب بمصر أربعة : أولهم بيت السادات بنى الوفا... وثانيهم بيت سيدى محمد شمس الدين الحنفى (هو فرع الدوحة البكرية وقد توفى عام ٨٤٧) ... وثالثهم بيت سيدى مدين الأشمونى (تلميذ الحنفى) ورابعهم بيت سيدى أبى العباس الغمرى (سنة ٩٠٥) .

وفى هذا ما يشير إلى أن الزعامة لم تكن فى بيت واحد.

ويقول المناوى ١٠٣١ عندما عرض لترجمة الشيخ محمد كريم الدين الخلوتى سنة ٩٨٦هـ «صار

هو وشيخنا الشعرانى (سنة ٩٧٣هـ) شيخا «يريد شيخىّ الديار المصرية ، وكان بينهما ما يكون بين الأقران» ويلاحظ أن الشعرانى والخلوتى اللذين كانا يتنازعان الرياس، قد عاصرهما فيها محمد البكرى (٩٩٦ هـ) الذى عزا إليه جرجى زيدان مشيخة المشايخ فى أول أمرها.

ولقد كان الشعرانى إذا تحدث عن كبار الشيوخ فى القرن العاشر، قال لهم محمد البكرى (الكبير) ومحمد كريم الدين الخلوتى وخليفة الشيخ دمرداش وزين العابدين وخليفته الشيخ شاهين.. «وكل واحد من هؤلاء لو انفرد فى مصر وقراها، لكفى الناس علما وأدبا وسلوكا» ولو استحوذ أحدهم على زعامة رسمية أو معترف بها منهم، ما أهمل ذكرها الشعرانى أو المناوى أو غيرهما.

أما فى القرن الحادى عشر فقد روى عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ أن محمد أبا المواهب زين العابدين البكرى كان له «حكم الولاية فيها بطريق التوجيه من جهة السلطنة العلية» وأن نائبه فى بلدة الخانقاه كان الميقاتى على ما عرفنا وحسبنا فى الدلالة على أن هذا التعبير لا يفيد استحواذه على مشيخة المشايخ، أن السيد توفيق الحريص على احتكار البيت البكرى لهذا اللقب، لم يخلعه على السيد محمد أبى المواهب زين العابدين رغم أنه اطلع على رحلة النابلسى المخطوطة، واقتبس منها جزءا فى كتابه وكذلك لم يشر على مبارك فى ترجمته إلى هذه المشيخة.

وقد تهيأ للشيخ السادات (المتوفى ١٢٢٨هـ) نوع من السيادة الواضحة على الطرق ومشايخها فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر، وترجمة شتى الجبرتى تقول إن الزعامة قد أسلمت قيادها له بعد أن عز وجود منافس ينازعه فى أمرها. وقد أظهر الجبرتى فى هذه الترجمة ـ التى اطلع عليها السيد توفيق ولقلها فى كتابه عن بيت السادات الوفائية ـ أن السيد محمد البكرى الصغير كان إلى جانب السادات كما مهملا لا حساب له، ورغم ذلك يقول عنه السيد توفيق إنه كان شيخ المشايخ.

ولعل هذا يفسر لنا نصا خداعا رواه الجبرتى فى ترجمة محمد أبى السعود البكرى الكبير إذ قال «ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشاير البدعية كالأحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية فيفصل بقوانينهم العادية» فإن ما يشبه هذا السلطان قد تهيأ للشيخ السادات (الوفائى) بعد مات محمد البكرى حتى كان يصدر أوامره إلى فرق الأحمدية والسعدية والشعيبية بأن تمر بداره والأمراء بضيافته أيام المولد ، فكان شيوخها ومريدوهم ينصاعون لأمره راضين أو كارهين.

وسنعرف كذلك كما سنعرف عن «الأقطاب» الذين ظهروا فى هذا العصر واستحوذوا على الزعامة فى عصرهم، وبسطوا سلطانهم على كافة الأولياء فى مختلف بقاع البلاد..

ومن هذا نرى أن زعامة الطريق كانت لصاحب الشخصية القوية الأخاذة سواء أكان من بيت عريق معروف أم لم يكن كذلك وكانت السلطنة العثمانية وراء ذلك تغذى هذه الصراعات احيانا من أجل استمرار سيادتها على مصر، ولعل أغلب الفترات التى مرت بمصر إبان هذا العصر، كانت خلوا من هذه الشخصية التى تكره مشايخ الطرق على السعى لمرضاتها، والانقياد لأمرها والسير فى ركابها.

بل لقد ورد فى الإجابات التى رد بها حسين أفندى الروزنامجى [انظرها كاملة فى ملاحق الجزء الاول] على الأسئلة التى وجهها إليه «ستيف» عقب الفتح الفرنسى، أن أرباب السجاجيد فى مصر أربعة، هم الشيخ البكرى وجده أبو بكر الصديق والشيخ السادات وجده الإمام على والشيخ العنانى وجده عمر بن الخطاب والشيخ الخضيرى وجده الزبير، وأن مقامهم محفوظ ومكانتهم ملحوظة، وأن المشورة لهم فى جميع الأمور.. ولم يشر قط إلى زعامة واحد منهم على أرباب الطريق وقد أشار الأستاذ «لين» إلى أصحاب السجاجيد الأربعة، ولكنه صرح بزعامة البكرية على جميع الطوائف فى مصر ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الأمر كثيرا ولا قليلا، وقد أورد السيد توفيق البكرى فرمانا بتولية الوالى محمد على باشا البكرى للسيد محمد البكرى عام ١٢٢٧هـ وفيه اعتراف بزعامته على الطوائف كلها، وقد أهمل الجبرتى ذكر هذا الفرمان ولكن نص الأستاذ «لين» يرجح صحة هذا الفرمان ، وعلى هذا يكون قول «لين» إن للبكرى الزعامة على الطوائف كلها معقول إذا سلمنا بالفرمان السالف.

ولا بأس من أن نشير الآن إلى أن التعبير بمشيخة المشايخ لم يرد فى فرمان محمد على ولا فى الفرمان الذى تلاه فى عهد سعيد باشا عام ١٢٧١هـ وإن نص فيهما على العمل الذى يقوم به شيخ المشايخ.

فهذا اللقب حديث عهد، ونسبته إلى العصر العثمانى أو ما قبله نسبة بادية الخطأ، إذا أريد باللقب المعنى الذى يحمله فى عصرنا الحاضر، ولعل السبب الذى أدى إلى وجوده فى العصر الحديث، مرده إلى الرغبة فى القضاء على التمايزات، التى كانت شائعة بين أهله. وإذن فقد كانت الفرق فى مصر أثناء العصر العثمانى مستقلة لا تخضع لزعامة واحدة ـ إذا استثنينا بعض الفترات

ولكن كيف كان هذا النفوذ..؟ وما مدى تغلغله فى طبقات الشعب وتسلله إلى هيئات الحكام...؟ ذلك ما نفصل الحديث عنه فيما يلى:

نفوذ شيوخ الطريق أحياءا وأمواتا

١ ــ أحياء

بين دولة الفقراء ودولة بنى عثمان ـ تحررهم من عرف البلاد ودينها ـ مفارقات العصر ـ تحررهم من نظم الدولة وقوانينها ـ تمردهم على العرف السائدة عند أرباب الطريق

بين دولة الفقراء ودولة بنى عثمان

حفلت مصر إبان العصر العثمانى بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء، واكتظت الشوارع بمواكبهم والبيوت بولائمهم والمساجد والزوايا باجتماعاتهم ، وانتشر الشيوخ والأتباع فى الريف والحضر، وتغلغل نفوذهم فى المدن وشاع فى الأقاليم والقرى، وامتد سلطانهم إلى مختلف طبقات الشعب وأقام فى صدورها عرشه، وتسرب إلى قصور الحكام فعبث بالقوانين، واستهان بالرأي العام فتخطى أبسط مبادئ العرف، واستعلى على

الدين فاستباح الخروج على قواعده وتعاليمه، وبذلك أضحى الفقراء فى مصر إبان هذا العصر فوق قواعد الدين ومقتضيات العرف وقوانين الدولة.. !! وكانت مصر دولتهم فى الحياة الدنيا وإن ادعوا بأن الفقراء لا يملكون فى هذه الحياة الفانية كثيرا ولا قليلا، وأن دولتهم إنما تقوم ـ كأعظم ما تقوم الدول ذات السلطان الواسع النطاق الممدود الرّحاب ـ فى جنة الله يوم الدين . فقد كان الناس فى شتى الطبقات يحيطونهم بالعطف والتأييد، وقد خف إلى زواياهم مئات المريدين وألوف الأتباع، وفاضت عليهم خزائن الأغنياء والأثرياء، وسعى إليهم عطف الحكام والأمراء، ولازمه النصر فى أكثر المعارك التى أثار عثيرها فى وجوههم العلماء والفقهاء، وتوفر لهم عند المريدين سلطان لم يتوفر لحاكم تحبه عشيرته وتطيعه جنوده، أو لعالم يجله تلامذته وطلابه، وما كان الجندى الذى يتمرد على قائده ساعة المحنة بأشد خيانة وأعظم جرما ـ فى عرف الفقراء ـ من المريد الذى يسىء الظن بشيخه أو يتردد فى امتثال أمر تلقاه عنه ولو كان يقضى بطلاق زوجه وفراق أولاده أو يمنعه عن أداء ما أمر الدين من فروض وواجبات وحتمه من شعائر وعبادات..!

وهكذا قامت فى مصر دولة الفقراء إلى جانب الدولة العثمانية ، بالسلاح والحيلة تضمن الثانية بقاءها وتقر بين الناس قدما. وبالإيمان تزود بالأولى عن عرشها، وتقر فى القلوب سلطانها، وتخيف خصومها وأعداءها . ولقد كانت دولة الفقراء أثبت قدما وأعظم نفوذا وأقوى سلطانا من دولة بنى عثمان ـ تلك الدولة التى كانت مطامع المماليك ـ ولاسيما فى النصف الآخر من العصر العثمانى ـ تثير فيها القلق والاضطراب ، بل قد كانت فرق الجيش التى جاءت فى ركابها لحمايتها من كل عدوان فى نزاع يكاد يكون دائما، وحرب يوشك أن يكون متصلا وكان «العرب» فى غاراتهم بين الحين والحين يثيرون الاضطراب فى رأسها ويشيعون الفزع فى نفسها، أما دولة الفقراء فقد عاشت فى جو عامر بالاطمئنان ، قوية بإيمان أهلها وحسن ظن الناس بها لاتهتز لانكار المنكرين ـ وما كان أضعف نفوذهم ـ فامتد سلطانها وانبسط عزها من غير سلاح مسلول ، ورفرف علمها فى كل مكان دون جهد ملموس ، وذلك لأن «روح العصر» بما كان يسوده من ظلام الجهل وشدة الفقر واضطراب الأمن وظلم الحكام ـ عاون على ثبات هذه الدولة ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس...؟

تحررهم من عرف البلاد ودينها:

ولدينا من الشواهد ما ينهض دليلا على أن الأولياء كانوا فوق العرف وفوق القانون ـ وقبل أن نعرض للكلام فى ذلك ينبغى أن نشير إلى أن الأمثال التى تشهد بخروج الفقراء على الدين ، تصلح أن تكون شاهد بخروجهم على العرف كذلك، فإن الفروق بين الدين والعرف أثناء هذا العصر قد تضاءلت حتى كادت أن تزول وتتلاشى، فإذا جاز لنا أن نقول اليوم إن تارك الصلاة أو شارب الخمر فى القاهرة، لا يعتبر خارجا على العرف، وإن عد خارجا على الدين، فإن هذا الكلام لا ينسحب على العصر العثمانى ، لأن الدين قد تغلغل إبانه فى العرف حتى كاد الرأى العام فى كل شىء أن يكون قائما على الدين وحده، وكانت مصر فى عزلة عن

العالم الأوروبى الذى كانت النهضة الحديثة تتمشى فى أعصابه وتشيع فى كيانه فأضحت الحضارة القائمة فى مصر حضارة دينية بحتة. فكان الناس لا يعرفون علوما أسمى من علوم الدين ، ولا ثقافة أجدر بالعناية وأحرى بالدراسة من ثقافته، ولا رجالا أخلق بقيادته فى حياتهم الدنيوية والدينية من رجاله، وبهذا أصبح زعماؤهم فى ميدان السياسة وقادتهم فى الحياة العامة وأساطينهم فى مجال العلم Scientists هم الفقهاء وحملة الشريعة وأرباب الطريق، فالعالم هو العالم بالدين وليس العالم الذى يعمل داخل المعمل أو المختبر، انظر الشهادة الازهرية التى تسمى «شهادة العالمية» «وهيئة كبار العلماء» وكاد أن يتلاشى الفارق بين صيحة الدين وصيحة العرف، وأضحى الخروج على قواعد الدين، استهانة بالرأى العام وجرحا لشعور الناس.

والآن نبسط بعض الشواهد التى تجمع بين خروج الأولياء على تعاليم الدين وتخطيهم لأبسط مبادئ العرف معا، ثم نعقب عليها بذكر الشواهد الدالة على امتهانهم لأقدس مواد القانون، لنرى صدى ذلك كله فى نفوس الناس، ولنعرف مبلغ الصدق فى قولنا إن الأولياء كانوا فى مصر ـ إبان هذا العصر ـ دولة داخل الدولة:

يروى الجبرتى عن السادات أنه حين تولى خلافة بيت السادة الوفائية عام ١١٨٢ هـ أحسن التصرف والتزم ما تقتضيه الأخلاق الكريمة ، حتى إذا اطمأن إلى سمعته ونفوذه عند الناس ، بدا حرصه على الدنيا وتمسكه بالمادة، واستيقظ جشعه وعدم اكتراسه برأى الناس فى سمعته، ومن دلالات هذا أنه اتفق مع محمد البكرى على أن يأخذ منه نظارة المشهد الحسينى ، ويتنازل له فى مقابلها عن نظارة وقف الشافعى ، فلما تخلى له البكرى عن وظيفته، وأرسل إليه دفاتر الوقف، نقض هذا وعده واستولى على الوظيفتين معا..!! بل زاد فطمع فى المشهد النفيسى والمشهد الزينبى وباقى الأضرحة، وأخذ يحاسب المباشرين وخدمة هذه الأضرحة «على الإيرادات ويسبهم ويهينهم ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم...!! » وطفق بطالبهم بالنذور والشموع والأغنام والعجول ، وما يتحصل بصندوق الضريح من المال، وكانوا يختصون أنفسهم بذلك كله، وأقلهم (كان) فى رفاهية من العيش وجمع المال. وهكذا قضى غالب عمره فى طلب الدنيا وتنظيم معاشه وتهيئة الرفاهية فى بيته «واقتنا كل مرغوب للنفس وشرا الجوارى والمماليك والعبيد والحبوش والخصيان والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس وتعاظم فى نفسه وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج وحضور المحيا بالأزهر ليلة المعراج، وكذا الحضور فى مجلس وردهم وصار يلبس قاووقا بعمامة خضرا تشبها بأكابر الأمرا..»

وكذلك كان ابراهيم المتبولى . كان يبيع فى بدء حياته الحمص، وقد مات أبوه فكفلته أمه وتعهدت بتربيته ، فلما أخذ الطريق وسار فيه شوطا أصبح صاحب زاوية فيها نحو المائة مريد يقيم طاعما كاسيا على نفقة صاحب الزاوية . وذلك كله على الرغم مما يرويه الشعرانى عن رأيه فى الزهد، فقد كان من رأيه أن الزهد فى الدنيا أول أساس يضعه المريد فى الطريق، فإن أعوزه الزهد فى لذاتها

والإعراض عن مباهجها أخفق فى تصوفه، وكان ما يبنيه فى الطريق هباء منثورا...!

كان الشيخ على أبو خردة يحب الغلمان ، ويعبث بهم بحضرة آبائهم بالغا ما بلغت مكانتهم ! وكان كلما رأى إمرأة «حسس بيده على مقعدها» وما أكثر وقايعه معهن.!

وكان المجذوب محمد بن أبى بكر المغربى الطرابلسى المتوفى سنة ١٣٠١ هـ صاحب الأحوال يحب مجالس الشراب وتهافت عليه نساء البلد، فأنكر عليه ذلك بعض الناس ولكن «أهل الفضل كانوا يحترمونه وينقلون عنه أخبارا حسنة ويجله الأعيان وتنهال عليه الهدايا ولا يرد له الوزرا شفاعة» كما يقول الجبرتى، وقد اشتهر فقراء المطاوعة بحبهم للغلمان ، حتى كانوا إذا عقدوا مجالس الذكر ، أجلسوا الصبيان من ورائهم ليحتضنوهم من الخلف إذا اشتدت حماسة الذاكرين، فإن أنكر عليهم ذلك أحد من الناس، قالوا لا جناح على من مس دبر غلام، وإنما الجناح على من فعل فيه الفاحشة وحدها ! وكان وجود الغلمان فى حلقات الذكر ومواكبه جزءا من نظامه عند فقراء هذه الطائفة.

وكان الشيخ «عبد الله سنة ٩٣٧» يصحن الحشيش ويبيعه بخرايب الأزبكية فلا يناله من الناس أذى ولاضرر. بل لقد كان الناس يعتقدون أن من تعاطى الحشيش منه ، كف عن تعاطيه ...!!! كما زعم المناوى والغزى . وكان الفقراء إذا أقيم مولد السيد البدوى أباحوا لأنفسهم نهب المحال وسرقة الناس وأكل أموالهم بالباطل، قائلين إن الغربية بلاد السيد البدوى ونحن من فقرائه، فكل ما نأخذه حلال لنا. وكان «الشناوى» ٩٣٢ أول من نادى بابطال هذه البدع.. وكان النساء اللائي يتصلن بالفقراء معرضات للزنا، وقد اشتهر فقراء الأحمدية والبرهامية بارتكاب الفحشاء مع النساء اللائى يأخذن العهد عليهن حتى خصهم الشعرانى بالذكر فى معرض الحديث عن وقائع الزنا التى تحدث من جراء اختلاط الجنسين وكان العيسوية إذا أقاموا الذكر على طريقتهم المغربية ، سعى إليهم الناس وخف للفرجة عليهم حسان الغلمان، فيكلف بهم هؤلاء الغلمان ويسعون وراهم ـ فيما يقول الجبرتى ...! وروى الشعرانى فى ترجمة الشيخ عبد القادر السبكى أنه كان يتكلم بما يستحى منه الناس ولا يرضى عنه العرف، وقد خطب مرة عروسا ورآها فأعجبته فكشف لها عن جسمه وهى فى حضرة أبيها. لكى تطمين على خلوه من البرص وبراته من الخشونة وغيرها مما قد يستدعى الشكوى بعد الزواج، ثم تناول قضيبه فى يده، وطلب إليها أن تمعن النظر إليه، لتطمين على حجمه ومنظره..

ويصف الأستاذ «أدوار لين» هذه الحال ويشرح علتها فى عرف الناس فيقول : إن المعتوه أو المجنون فى عرف الجمهور ، كائن عقله فى السماء وجزؤه الكثيف على الأرض ـ إنه حبيب الله، ومهما ارتكب من الفظائع فإن ذلك لا يؤثر فى سمعته عند الناس، وكثيرون هم الذين يتخطون على الدوام قواعد الدين ويتمردون على مبادئه، ولكن العلة فى ذلك عند الناس أنه نتيجة لتجريد العقل واستغراق الملكات العقلية فى عبادة الله، مما أدى إلى العجز عن التحكم فى العواطف ـ والمجانين الذين يهددون المجتمع بالخطر، يحفظون فى الحبس، أما الذين لا

يخشى منهم الضرر، ينظر إليهم الناس على أنهم أولياء الله.. ! ومعظم الأولياء المعروفين في مصر مجانين أو مخابيل أو دجالون، يسير بعضهم في الشوارع عاريا كامل العرى، فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير ــ حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم، بل يأذن لهؤلاء الخبثاء بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحرارا كاملى الحرية ــ ولئن كان هذا نادرالحصول إلا أنه لا يعتبر في عرف الطبقة الدنيا من الشعب معرة ولامنقصة.

هذا رأى «لين» الذى زار مصر بعد انقضاء العصر العثمانى بنيف وعشرين عاما، ولعله احتاط فى التعبير أكثر مما ينبغى ، فإن الحوادث التى رويناها عن مؤرخى العصر العثمانى ــ من الجبرتى إلى الغزى والشعرانى والمناوى ــ وهم من أهل هذا العصر جميعا ــ تبرر القول بأن تمرد الأولياء على قواعد الدين لم يكن نارد الحدوث ، ولعل الأستاذ قد أردا بهذه الندرة فظائعهم مع النساء على قارعة الطرق، وليست الطبقة الدنيا وحدها التى كالت ترضى عن هذه الفظائع، وكثيرا ما كان ينخدع بها العلماء والأمراء...

مفارقات العصر:

كان هذا كله يحدث على مرأى من الناس فلا يستفز شعورهم ولا يثير غضبهم، بل كثيرا ما كان يلائم رضا واغتباطا ــ على نحو ما عرفنا فى التعليقات التى صور بها كتاب العصر شعور الناس نحو هذا التمرد على قواعد الدين ومبادئ العرف، وما كان السر فى هذا أن «روح العصر» كان يسمح بالتهاون ويوجب على الناس التسامح، فإن الرأى العام في هذا العصر كان يقوم على التعصب الشديد للطقوس والرسوم ، وأخذ الخارجين على الشعائر بالحساب العسير، إذ بينما نرى هذا التهاون المفزع فى حساب من يعتبرون أولياء، نرى الطالب الذى لا يقع بصره على جرة خمر بين يدى مماليك السلطان حتى يمضى إلى تحطيمها ويعرض نفسه للهلاك دفاعا عن دينه ونرى كيف يستحل المسلمون دم الجنود إذا أقدموا على فعل المنكرات فى رمضان من شرب الخمر والفسق بالنساء، وكيف يطاردنهم ويتعقبونهم بالذبح والقاء جثثهم فى اليم ونهب ممتلكاتهم حتى يقتل من الجنود نحو عشرين نفسا ومن المسلمين أدنى من ذلك بقليل ونرى كيف يجمع العلماء على تكفير من ادعى النبوة ، فإن أصر على ادعائه كان مصيره القتل علانية . ونرى كيف يفتى العلماء بإحراق الذمى إذا سب مسلما ونرى كيف يحرم التدخين على الناس كبارا وصغارا وكيف تصدر الفرمانات بإبطاله فى الشوارع والحال وأبواب البيوت، وكيف تكونَ الرقابة ويشتد العقاب حتى ليكون جزاء المدخن إطعامه الحجر الذى يضع فيه الدخان والنار وكيف يحرم شرب القهوة ولا يجوز الانتفاع بثمنها كما هو الشأن فى ثمن الخمور. ونرى كيف يلام الشيخ الشبراوى لأنه أفتى بإباحة خروج قافلة حج للأقباط إلى بيت المقدس، ونرى كيف يخرج الشعب والأزهريون إليهم فيرجمونهم بالحجارة ويضربونهم بالعصى وينهبون متاعهم ويحطمون كنائسهم انتصارا للدين على نحو ما يفهمون ــ ونرى الناس بعد أن يسمعوا فتوى السنباطى فى الجامع الأزهر بتحريم القهوة يمضون إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم

ويحطمون أوانيها ويضربون شاربيها ولا تهدأ لهم ثائرة حتى يفتى علماء آخرون بإباحتها وترى كيف يرضون عن قتل المرأة العاهر جزاءً وفاقا وترى كيف يعتبرون انتقال العالم من مذهب إلى مذهب طيشا ورعونة وينحط قدر الشيخ البشبيشي عند الجبرتى ووالده من أجل ذلك . وأمثال هذه الحوادث التى تشهد بالتعصب كثيرة لا يكاد يحصيها العد. وإ ن كان هذا التعصب لا ينفى انحلال الأخلاق عند أهله ـ على نحو ما سنعرف عند الحديث عن سقوط التكاليف الدينية عن الأولياء.

كان «روح العصر» يملى على الناس التعصب فى أحكامهم ويحملهم على فداء عقائدهم ـ التى لم يفقهوها ابدا ـ بالروح وما ملكوا، وكان الرأى العام لا يسمح قط بالتهاون فى ظاهر الدين أو تخطى قواعد العرف ، ومن أقدم على ذلك فقد عرض نفسه للأذى وقادها إلى مهاوى الهلاك ـ وكان هذا معنى الدين فى رءوس الناس إبان هذا العصر ـ أما الأولياء فقد كانوا فى عرف الجمهور وأكثر العلماء فوق الدين وفوق العرف ـ وما أكثر حوادث الفقراء مع النساء والغلمان وسائر مظاهر تمردهم على الدين والعرف، وقد كان الناس يقابلون هذا الاستهتار بالرضا والاغتباط، لأن الأولياء فى عرف الكثيرين منهم قد سقطت عنهم التكاليف الدينية، فجاز لهم ما حرم على غيره، يهملون الصلاة ويتركون الصيام ولا يقومون بشيء من فروض الدين وشعائره. ثم لا يتقيدون بعد هذا بشيء من نواهيه، ولا يخضعون لقيوده ومحرماته ..! فالزنا والخمر والميسر والحشيش وكافة رذائل الدنيا قد أحلت لهم فاستباحوا المحرمات على مرأى من الناس، ولم يجدوا من شدة الإنكار ما يخيفهم أو يردهم من غيهم ويوجههم إلى أقوم سبيل.

وكان جمهرة الناس فى مصر تخاف سلطان الأولياء الروحى وتخشى إن أساءت إليهم أن ينالها أذاهم ويصيبها «تصريفهم» فكفت عن سوء الظن بهم واستنكار أفعالهم، وذلك وحده كفيل بتخليص الأولياء من قيود «العرف» وتحرير شهواتهم من عقائد الدين، وقد بلغ من جراة الأولياء وشعورهم باستقرار قدمهم ونفاذ سلطانهم أن كانوا يصطنعون فى بعض الأحايين ما يثير سخط الناس، فكان «أبو خردة» يأمر عبيده ـ وكان من غواة العبيد ـ أن يقولوا للناس إن الشيخ يفعل الفاحشة فيهم، حتى إذا ازدادوا سخطا عليه عطبهم ..! كما يظن الشعرانى ولو صحت رواية الحادثة لكان أدنى إلى العقل أن يقال إنه كان يفعل ذلك استخفافا بالمنكرين واحتقارا لسخطهم، ولا بأس من أن نشير الآن إلى أن المصادر التى أمدتنا بهذه المعلومات عن هؤلاء الأولياء ، قد كتب أكثرها كتاب يؤمنون بولايتهم ويذكرون هذه الحوادث فى معرض التمجيد لهم وإعلان الإعجاب بهم...! ولم يملها حقد ولاحسد ولا غير ذلك ممايجور على الحق ويغير معالمه..!

تحررهم من نظم الدولة:

وما كانت استهانتهم بقوانين البلاد ونظمها بأقل من استهانتهم بعرفها ودينها، فقد كانت أولى الأغراض التى حملت الأتراك على غزو مصر، الطمع فى خيراتها والرغبة فى ابتزاز أموالها، ولهذا كان خير الولاة عند سلاطين الأتراك من استطاع أن

يجبئ من الضرائب أعظم قدر ممكن ـ وكان الناس لا يمانعون فى هذا ولا يضيقون به إلا إذا أعوزهم المال، فقد كانوا يرون أن الغرض من وجود الحكومات جمع الضرائب والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة والفصل فى القضايا وحفظ الأمن ورد الغارات الخارجية. ولم يكن الإصلاح والعمل على رقى الشعوب من عمل الحكومات فى عرفهم ـ فكان طبيعيا بعد هذا أن يكون جمع الضرائب عند حكام البلاد وأهلها أول واجب ينبغى أداؤه ، ولكن الحكام كانوا يعفون الأولياء فى أكثر الأحايين من أخذ الضرائب. قال الشعرانى إ ن من نعم الله عليه حماية جميع أوقاف زاويته من ظلمة الحكام فى مصر والريف، فلا يعارضه ولايعتدى عليه أحد قط رغم أنه لا يحمل مرسوما من السلطان لحمايته . وقال الجبرتى فى معرض الحديث عن حرص الشيخ السادات على الدنيا ومتاعها، أنه كان «يراسل» ويكاتب ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة فى الدفاتر، بل يرون أن أخذها منه من الكبائر، وكذلك دواوين المكوس المبنية على الإجحاف، فكل ما نسب له فيها فهو معاف فإن تعنت بعض الحكام على أحد المشايخ وأرسل يستشير السلطان فى أمره ، «رسم» السلطان بإعفاء أوقافه من دفع الضرائب، ومال إلى نصرته وإرضائه كما جرى لذرية الشعرانى بعد مماته.

بل لقد كانت الدولة تمد الأولياء بالأموال وتعينهم على دوام العز فى زواياهم، فمن ذلك ما يرويه الجبرتى عن الشيخ السادات حين أراد أن يعمر زاوية أسلافه، إذ حدث الباشا فى ذلك. وكان محمد على باشا المعروف بعزت المتوفى سنة ١١٩٠هـ ، فكاتب الباشا للدولة فى هذا الشأن، وسرعان ما ورد الأمر باطلاق خمسين كيسا لمصرف العمارة من خزينة مصر، ثم كاتب الدولة بعد ذلك بأن هذا المبلغ لايكفى عمارتها، فاستجابت لطلبه وأطلقت له خمسين كينسا أخرى، ثم عاد الشيخ فالتمس رفع ما على قرية زفتى وغيرها من القرى التى فى حوزته من الالتزام من المال الميرى الذى يدفع إلى الديوان فى كل عام، فأجيب التماسه ، وفى دار الكتب وثائق بالالتماسات والفرمانات التى أصدرتها السلطنة العثمانية لرفع العوايد التى كانت تنزل بقرية زفتى وغيرها من البلاد التابعة للسادات الوفائية.

والغريب أن يحدث هذا فى أواخر العصر العثمانى ـ أى فى أيام الاضطراب التى فشا فيها الظلم وانتشر طغيان الحكام وبغى الجنود، وأرهقت الضرائب الجمهور وأخذت منه عنوة أكثر من مرة، وكثرت الأتاوات التى كانت تفرض على الفلاح المسكين والتاجر البائس، وبينما كان الضنك والظلم يتمشى فى البلد طولا وعرضا. كانت الدولة تستجيب لمطالب شيوخ الطريق فى إعفاء القرى التى فى حوزتهم من دفع الضرائب، وطلب الأموال لتعمير الزوايا والإنفاق على مجاوريها ..!! وكثيرا ما كانوا يرحلون من مصر إلى بلاد الروم «الترك» فى طلب الدنيا ويلتمس لهم «أفضل الدين» العذر فى ذلك فيقول من المحتمل أن يكون الله قد كشف لأحدهم أن له رزقا فى بلاد الروم فيخف إليه فارغ القلب من محبة الدنيا..!! وكثيرا ما كانوا يبعثون الوسطاء للسعى فى تحقيق المطالب..! وقد فاخر الشعرانى بأنه كان لا يقبل هذا إن عرض عليه ولا

يرضى به هوانا بالدنيا ومتاعها.

وكان البكرى الكبير المتوفى سنة ٩٩٤هـ ملحوظ المكانة بين الحكام، فكانوا يهادونه ويكاتبونه، وللسلطان مزيد عناية به، حتى أنه أطلق المرتبات الخاصة له ولذريته من بعده، وكذلك فعلى شريف مكة وسلطان فاس. ! وقد كانت الدولة تخاف نفوذهم وتخشى بأسهم وتهاب أتباعهم. ولهذا أصدرت قانونا بنفى كل من يتظاهر بمظاهر الملوك منهم، وكان نوابها وحكامها يخشون هؤلاء الفقراء فيحسنون استقبالهم إذا خفوا لزيارتهم، ويختلفون إلى زواياهم ويستجيبون لشفاعتهم ـ بالغا مابلغ خروجها على أبسط مبادئ العدالة ـ وقلما يترجم كتاب التراجم والطبقات لأحد هؤلاء المتصوفة فى هذا العصر دون أن يقولوا : وكانت لا ترد له شفاعة عند الحكام والأمراء ! وبذلك تعطل تنفيذ القانون فى البلد، وأصبح الفقراء وأكثر من يلوذ بهم فى أمان من عقابه إذا اقترفوا إثما أو ارتكبوا جريمة..! وإن كان هذا من رحمة الله بالشعب البائس المظلوم.

بل لقد كانت لهم قوانين تحكمهم وتحدد عقوبة المذنب منهم، وترسم الحدود والمعالم فى حياتهم الدنيا، ولا دخل للدولة فى أمرها، قال الجبرتى فى ترجمة محمد أبى السعود البكرى ١٢٢٧ «واشتهر ذكره وسار سيرا حسنا مقرونا بالكمال جاريا على نسق نظامهم، ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشاير كالأحمدية والرفاعية والبراهمية والقدرية فيفصل بقوانينهم، والمراد بالخلفاء نواب وشيوخ الطرق فى القرى والأمصار ممن يديرون أمر المريدين والأتباع وفى دفتر خانة السادة البكرية صك تعيين الشيخ البيجورى شيخا للجامع الأزهر (سنة ١٣٦٣هـ) وفيه تحديد اختصاصات شيخ الجامع وشيخ مشايخ الصوفية أو الشيخ البارز من بينهم. وقد جاء فى هذا الصك ما نصه:

«وإذا رفع إليه ـ شيخ الجامع ـ دعوى وكان ذلك مما هو تحت حكم سعادة السيد البكرى كالأشراف ومشايخ الطرق فيرد إلى حاكم المذكور حكم الأصول السالفة وأن الأمر فى المهمات .. لأنه بذلك تحصل راحتهم جميعا لعدم تعدى أحد على أحد...!!

ولا ينبغى أن يقال إن هذا الشاهد الذى رويناه قد وقع بعد انقضاء العصر العثمانى بخمسين عاما، فإن ذلك حجة لنا لا علينا، إذ كان الناس إذ ذاك فى عصر إسماعيل باشا ، فكان الكثيرون منهم قد انصرفوا إلى التفكير فى شئون المدنية الغربية التى أصبحت الأسرة العلوية ، بل أقبلت مع نابليون فى غزوته، ونمت واشتد بأسها فى عصر إسماعيل، وانشغل أكثر المستنرين بأحداث السياسة الداخلية والخارجية فضعفت صولة التصوف وانكمش سلطانه عما كان فى أيام العثمانيين، ولكن هذا لم يمنع من استمرار الفقراء فى التقاضى أمام أظهر شيوخهم بقوانينهم الخاصة، سائرين فى ذلك على ماجرى العرف منذ القدم، وإن قولهم «فيرد إلى حاكمه المذكور حكم الأصول السالفة، لذو دلالة واضحة المعنى ، بل لقد كان الرجل إذا عظم نفوذه وقوى سلطانه يجمع فى يده السلطتين القضائية والتنفيذية فيحكم على الناس وينفذ أحكامه.. ! فقد اجتمع بعض أولاد البلد ذات ليلة بمنزل أحدهم ـ كما يروى الجبرتى ـ وأخذوا فى السخرية من

أصحاب المظاهر على عاداتهم ، وتطاير النبأ حتى اتصل بالسادات فأرسل فى طلبهم جميعا «وعزرهم بالضرب والإهانة وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضوه فى شىء بل يوافقوه» وكذلك فعل بأحد أعاظم المباشرين من الأقباط، توقف معه فى أمره «فأحضه ولعنه وسبه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد ولم يراع حرمة أميره وهو إذ ذاك أمير البلدة، ولما شكا إلى مخدومه ما فعل به ، قال له وما تريد أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا».. وكذلك كان يفعل مع المباشرين وخدمة الأضرحة عند حسابهم على ما فى عهدتهم ، فيضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم ....!! وكان إذا أراد الإيقاع بشخص وخشى عاقبه ذلك، مهد الطريق سرا قبل الإيقاع به، فيتألف الفقهاء والعلماء الذين ينتظر منهم إعلان السخط على موقفه ، حتى إذا ظفر بذلك قام بالإيقاع والضرب جهرا أمام الناس...! وكأن البلد من غير حكومة أو قانون...!!

التمرد على العرف عند الفقراء

بل لقد تمردوا على أبسط قواعد العرف الذى جرى عليه أرباب الطريق من قديم الزمان. فإن التصوف لا يستقيم بغير الزهد فى الحياة والإعراض عن مباهجها والميل عن مطالب النفس وشهوات الجسم، والعيش فى جو بعيد عن الأغراض الدنيا والنزعات الأرضية، ولكن الذى يثير عجب الإنسان من هؤلاء الفقراء، إقبالهم على الدنيا وحرصهم على التمتع بلذاتها والظفر منها بأوفى نصيب، وقد يفعلون هذا كله جهارا أمام الناس ولايرون فيه سبة ولا معرة، مما أدى بالمؤلفين فى هذا العصر إلى الإكثار من تحذيرهم من الوقوع فى هذا الشر، وإغرائهم بالزهد وحملهم على حياة الخشونة والتقشف.

وكان الفقراء يقبلون على كل شيخ كريم ويتكدسون فى زاويته، ويتزايد عددهم بين الحين والحين، وينفضون عن كل زاوية أدرك البخل شيخها وأصابح الحرص نقيبها، وكانت الزوايا تكتظ بالفقراء وتعج بطوائفهم أيام الغلاء ، وكان الشيوخ - فى الجملة - يرون تمتعهم بالعيش الرغيد والحياة الهنيئة حقا من حقوقهم يستحوذون عليه إن شاءوا ويتنازلون عنه إن أرادوا وما أكثر الذين كانوا يلتمسون أسباب الوصول إلى المال الطائل حتى إذا ظفروا به انفردوا بأكثره واستباحوا لأنفسهم وأولادهم العيش فى كنفه. والذين نادوا بتحريم هذا كانوا لا يتورعون عن التماس الأعذار لمن ينعم منهم بالملبس الفاخر ويتمتع بالطعام الشهى ، فيقولون إن المريد لا يجوز له ذلك العيش فى ذلك النعيم إلا إذا كان من أصحاب الكرامات وخوارق العادات. وقد روى الشعرانى حادثة من هذا النوع وعلق عليها قائلا: فلولا أن الشيخ أقام البرهان على طعامه اللذيذ بالكرامة، لفارقته تلك المرأة وهى منكرة عليه.

ومن هذا نرى أن أرباب الطريق فى هذا العصر قد تمردوا على عرف البلاد وتحرروا من دينها وخرجوا على نظمها وقوانينها ، بل أدى بهم التمادى فى التمرد إلى الخروج على أبسط قواعد العرف السائد بين أهل التصوف من قديم الزمان، فهل يعدو الحق من يقول إن أرباب الطريق فى مصر كانوا دولة داخل الدولة..؟ وفى الحق لقد كانت دولتهم غريبة فى تاريخ الدول، لأنها أعطت أهلها

الكثير من الحقوق والامتيازات ، ولم تحملهم من الواجبات كثيرا ولا قليلا...! فإن الكثيرين منهم كانوا لا يحملون أنفسهم حتى مشقة الدعوة للزهد فى الدنيا والتفرغ للعبادة، بل كانوا يعلنون التمرد على هذا كله استهانة واستهتارا. فهل عرف التاريخ من قبل دولة كهذه الدولة...؟

* * *

بعض مظاهر نفوذهم

دنيا الصوفية الروحية وحكامها ـ تقسيم مصر بين الأولياء إلى مناطق نفوذ ـ القطبانية ونفوذ أهلها فى مصر ـ آفاق نفوذهم فى مناطقهم ـ بعض مظاهر نفوذهم عند المريدين ـ عند الحكام.

دنيا الصوفية الروحية وحكامها:

وفى الحق لقد ضاق الشرق فى ظل السلطنة العثمانية بالحياة الدنيا وكره ما تنطوى عليه من ألوان الشر وضروب الظلم، وانتهت الرغبة فى إصلاح الدنيا عند نفر من أهله، بتصور مملكة باطنية وراء الدنيا التى تعيش فى رحابها ونكرع من آثامها وشرورها. وكان طبيعيا بعد أن أقام هذه الدولة فى مخيلته ، أن يبحث لها عن حكام عدول يتولون إدارتها والإشراف على أحوالها، ثم يخرج من هذا إلى تصنيف هؤلاء الحكام، فصنفهم بطريقة تعسفية فى طبقات تختلف باختلاف المصنفين ، ويتزعمها القطب وتليه فئات من الأوتاد والأبرار والنقباء والنجباء والأبدال... وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر الحياة فى هذه المملكة الباطنية ويسيرون دفتها وينظمون أمورها ويعوضون الناس خيرا عما يلقونه من شر دنياهم...

وقد عرفت مصر فى العصر العثمانى من هؤلاء الحكام صنفين اثنين : وهما القطب والأولياء بوجه عام، وقد ضاق الشعب المصرى بدنيا الفاقة والظلم، فانساق بتأثير جهله إلى الإيمان بمن يدعون الزلفى إلى الله ـ ولما كان الأولياء فى هذا قد أصابوا المال الطائل ، وبسطوا نفوذهم على الأتباع والمريدين ، فقد تهيأ لهم سلطان روحى ونفوذ دنيوى معا...!

تقسيم مصر بين الأولياء إلى مناطق نفوذ:

انتشر الأولياء فى أرض مصر وفشا أمرهم بين أهلها، واقتسموا مناطقها فاستولى كل وليّ على مساحة من الأرض تقبل الزيادة والنقصان ، يتصرف فى أهلها ويستغل غلاتها، فيقيم الولائم فى بيوت ملاكها وبطالبهم بالأتاوات ينظم منها موالد الأولياء ـ وكان الناس يخفون إليهم سراعا كلما تطاير إليهم نبأ وجودهم ويستجيبون لمطالبهم راضين مغتبطين ، يحملهم على ذلك الأمل فى اكتساب البركة والظفر بالزلفى إلى الله. .! والمنطقة التى تخضع لنفوذ الولى تتناسب فى سعة مساحتها طرديا مع قدرة هذا الولى على اجتذاب الناس إليه وكسب عواطفهم نحوه. وقد حرص كل ولى على إقرار نفوذه فى منطقته والعمل على توسيع دائرتها مااستطاع إلى ذلك سبيلا. وكان يطمع فى أغلب أحواله فى أن يكون كافة أهل بلده تلامذة ومريدين

له وحده وكان الأولياء يؤثرون أن تكون الزعامة لواحد لاينافسه عليها أحد، حكى عن يوسف العجمى أن الله حين قضى بمغادرته بلاد العجم، سمع هاتفًا يأمره بالسفر لينفع الناس فى مصر، فظنه شيطانًا وأهمل أمره، بيد أن النداء أخذ يتكرر حتى بلغ الرابعة، فقال يوسف: اللهم إن كان هذا وارد حق منك فاقلب هذا النهر لبنا أغرف منه بقصعتي، وتقول الرواية إن النهر قد انقلب لبنا..!! فأيقن أن الهتاف الذى سمعه وارد حق لاشك فيه..! فلما أقبل على مصر وجد «الشيخ حسن التسترى» وقد سبقه إليها ولم يتصدر المشيخة بعد، فقال له يوسف: إن الطريق لاتكون لأكثرمن واحد يقوم بها لأنها تقوم على الأخلاق الالهية، فإما أن أتصدر أنا وتكون وزيرى وخادمى، وإما أن تتصدر أنت وأكون وزيرك وخادمك، فتخلى له الشيخ حسن عن الصدارة وأخذ يقوم بخدمته حتى وافته منيته، فأخذ مكانه بعد أن استأذنه في ذلك وهو على قيد الحياة..! وأظهر فى الطريق العجائب، ودانت له الملوك وخضع لنفوذه الأمراء..!

وما كان مشايخ العصر على هذا الخلق، فقد كانوا يظهرون بأنفسهم ويدعون المشيخة دون أن يبايعهم أولياء الدائرة، ويدخلوا فى طاعتهم كما كان ينبغى، وكانوا يجلسون للمشيخة وفى بلدهم من هو أقدم منهم هجرة فى الطريق فلا يعبأون به، مع أن الآداب تقضى باحترامهم له، وطلب الإذن منه بارشاد المرشدين نيابة عنه، إن أحسوا فى أنفسهم بأنهم أعلم منه، و لقد أدى بهم هذا الإدعاء إلى أن يجور بعضهم على حقوق بعض، ويعتدوا على مناطق غيرهم ويحاولوا الاستحواذ على ماليس لهم فيه حق..! ولكن الأولياء كانوا على كل حال حريصين على أتباعهم ومريديهم لا يحب أحدهم أن ينفضوا من حوله ويلتفوا حول غيره، ولعل هذا جائز ومحتمل فى رأى المنطق وحكم العقل، ولكن الغريب أن شيوخ الطريق فى هذا العصر كانوا يطمعون فى أن يقتصر على صحبتهم كل من اتصل بهم أو تلقى الذكر عنهم بقصد التبرك والتيمن ، ولهذا نرى «الدردير العدوى» يحذر الأشياخ من شر ذلك، ويقول إن المريد الصادق المحبة. هو وحده الذى لا ينبغى له أن يزور وليا ولاصالحا من أهل عصره إلا بإذن شيخه، ولا يحضر مجلسا غير مجلسه ولا يستمع إلى أحد سواه..! «أما الذين يتلقنون الذكر بقصد التيمن وحده فليس للشيخ أن يقيدهم بصحبته، ومن طمع فى ذلك كان غير صالح لأن يكون شيخا فى طريق الله. ونرى الشعرانى يقول إن أشياخ عصره قد ضلوا حتى عز عليهم التمييز بين من يحبهم مكتفيا بهذا الحب ، ومن يطلب التربية على يدهم ، ويروى ما يؤيد هذا فيقول إن أحد مشايخ العرب قد اجتمع بأحد شيوخ مشايخ الطريق وأهدى إليه قمحا وأرزا وعسلا وذهبا، وأقبل عليه إقبالا عظيما، فقال الشيخ : إن كنت تصحبنى فلا تصحب فلانا، فنفرت نفسه من هذا التضييق وترك الشيخ قائلا : ما طلبت أن أكون شيخا ولا مريدا، ثم مضى إلى الشعرانى واجتمع به، فظن الشيخ الأول أن الشعرانى هو الذى حرضه على تركه وحوله إليه وأغراه بصحبته فحمل له العداء من أجل ذلك. وما كان الأشياخ ليطمعوا فى امتداد نفوذهم إلى هذا الحد، لو أن الشعب كان على استعداد للإعراض

عنهم لو تجاوزوا حدودهم ـ ولعل رواية الشعراني لا تنقض ما نقول، فليس يبعد أن يكون الشعراني ـ بما عرف عنه من مهارة وقدرة على اجتذاب الناس إليه ـ هو الذى حول شيخ العرب عن شيخه الأول، ولولا ذلك لرضخ شيخ العرب لمطلب هذا الشيخ واستجاب لرأيه.

كان طبيعيا بعد هذا أن يغضب الولي إذا اعتدى أحد زملائه على منطقته التى تخضع لنفوذه، بل لقد كان غالب فقراء هذا العصر يبغضون من لم يكن من تلامذة شيخهم ويتمنى الواحد منهم ألا يظهر اسم فى بلده لغير شيخه، ويتبادلون نظرات مليئة بالحقد فياضة بالاحتقار، كأنما ظن الواحد منهم أن من أخذ الطريق على غير شيخه كان على غير دينه وما كان المريدون وحدهم هم الذين يحملون هذه الضغينة وينطوون على هذا التعصب ، فقد كان الأشياخ إذا تحول عنهم مريدوهم إلى شيخ آخر أصابت الإحن قلوبهم، وأدركت الكراهية نفوسهم حتى حذر الشعراني الشيوخ من شر ذلك، وأشار على من ابتلى به منهم أن يتخذ له شيخا يسلك على يديه حتى يرقى به إلى مرتبة الإخلاص، فينشرح صدره لمثل هذا التحول ، لأن من ساءه هذا فقد أعوزه الإخلاص لطريقه.

كان اعتداء الولي على منطقة غيره من الأولياء عدوانا بالغا وامتهانا لحرمة الطريق، على أن الأولياء كانوا إذا رأوا أقوى منهم شخصية وأكثر أتباعا وأمضى نفوذا وأرحب سلطانا، خضعوا له وساروا تحت رايته، فإن أجمعوا على الإذعان له، عرضوا عليه «القطبانية» ودانت له الأرض بما رحبت، وخضعت له الرقاب بما حملت .. وكان وحيد عصره..!!

القطبانية ونفوذ أهلها فى مصر:

والقطبانية التى جرى العرف بأن تكون لواحد فذ لا تتجاوزه، قد ظفر بها فى مصر بعض الأولياء إبان هذا العصر .. أصابها محمد الحفناوى الخلوتى المتوفى سنة ١١٨١هـ الذى دانت لطاعته الرقاب، وأخذ العهود على العالم وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار وأحيا طريق القوم بعد درسها، أنقذ من ورطة الجهل مهجا من غى نفوسها فبلغ هديه الأقطار كلها وصار له فى كثير من قرى مصر ـ قبل أن يكون قطبا ـ نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى ـ ، ولم يزل أمره فى ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض وصار الكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله بطريقته ، وصار خليفة الوقت وقطبه ولم يبق ولى من أهل عصره إلا أذعن له.. وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى...» وأكثر فيه الشعراء من المديح، وبموته «ابتدأ نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية لأن «الرحى لا تدور بدون قطبها ، وقد كان رحمه الله قطب رحى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه.

بل لقد كان الولي إذا ثبت قدمه وذاعت تعاليمه ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، يشعر بتوطد سلطانه حتى ليأتى القطبانية إذا عرضوا عليه ...!! فمن ذلك ما كان من أمر أستاذه السيد مصطفى البكرى الذى «أوتى مفاتيح العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه فى مشارق الأرض

ومغاربها، وأخذ على رؤساء الجن العهود ، وعم مدده سائر الورود » فإن قطبانية المشرق قد عرضت عليه فأباها.

وبلغ من خطر القطبانية فى العالم الإسلامى أن أشيعت عند المغاربة عن الزبيدى + ١٢٠٥ فى مصر ـ وهو صاحب الشرح الوافى لإحياء الغزالى وتاج العروس فى شرح القاموس وغير ذلك ـ فكان إذا وفد أحد هؤلاء المغاربة إلى مصر حاجا ولم يصله بشىء ، لا يعتبر حجة كاملا.. ! وكانوا أيام الحج محتشدين ببابه منذ الصباح حتى المساء، وكان بعضهم يحمل إليه استفتاء من علماء بلده وأعيانه ، فإن ظفر «بقطعة ورق ولو بمقدار الأنملة فكأنما ظفر بحسن الخاتمة وحفظها معه كالتميمة » ورأي حجة مقبولا، وإلا فقد باء بالخيبة والندامة وأحاطه باللوم أهل بلاده، ودامت حسرته إلى يوم ميعاده..

من الخير أن نشير إلى أن الكتاب فى هذا العصر كانوا يسرفون فى إضافة الأوصاف إلى من يترجمون لهم، على سبيل التمجيد والتعظيم، ولم يكن صغار المؤرخين وحدهم هم الذين ينزلقون إلى هذا الإسراف، وكان الناس ـ فى مصر ـ يزعمون أن الأقطاب أربعة ـ وقال بعضهم بل إثنان ـ وقد عرض للحديث عنهم الأستاذ «لين» Lane وصور فكرة المصريين عنهم بشىء التفصيل.

على أن الأولياء كانوا فى مصر يعلنون استقلالهم إذا لم تجد القطبانية من هو أهل لها، قال الجبرتى معقبا على ممات الحفناوى : إن البلاء قد نزل بالبلاد المصرية والحجازية والشامية بعده، ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وساد أقطار الأرض، وهذا «هو السر الظاهرى» وهو ولا شك تابع الباطنى، وهو القيام بحق وراثة النبوة وكمال المتابعة وتمهيد القواعد وإقامة أعلام الهدى والإسلام وإحكام مبانى التقوى. لأنهم أمنا الله فى العالم وخلاصة بنى آدم، أولئك الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» وظاهر من نص الجبرتى أن القطبانية لو وجدت من يتولاها بعد ممات الحفناوى لما أصاب البلاد الإسلامية هذا البلاء...! ولعل هذا الرأى يخالف ما اتفق عليه جمهرة الباحثين فى القطبانية، إذا انعقد رأيهم على أن القطبانية لا تخلو لحظة واحدة من ولى يتولاها ويقوم أعمالها.

آفاق نفوذهم فى مناطقهم:

كان المتصوف إذا خرج إلى شارع أو سار فى الأسواق تهافت عليه الناس وتكاثر حوله عديدهم ، وسدوا طريقه وانهالوا على يديه وقدميه تقبيلا ولثما، وممن كان خروجهم إلى الشوارع يثير هذا الضجيج السيد محمد البكرى، كما يقول صاحب الكواكب السائرة. بل لقد روى صاحب النور السافر فى ترجمته أن الشعراء من فضلاء مصر المتمكنين فى علوم اللغة وقواعد الشعر ومذاهب الإنشاء ، كانوا يقصدون إليه بقصائد المليئة بالمدائح، وأنه كان إذا قام من مجلس جلس فيه للتدريس بالجامع الأزهر أو غيره، تقدم الناس لتقبيل يده والتبرك بدعائه والتيمن بالقرب من موضعه، وكان الازدحام يقع بينهم حتى ليسقط بعضهم تحت أقدام الناس ـ وكان يحيط به جماعة من جند السلطان التركى وغيرهم يحلقون على حضرته بأيديهم خشية عليه من أذى الازدحام ، وربما أخذ أحدهم بيده الشريفة

وهى ممدودة لتقبيل الناس لطول زمن مدها لهم إذا كان يمدها بعد درسه نحو ا من ساعة زمانية ثم يسير إلى جهة دابته والناس على الغاية فى الازدحام عليه إلى أن يصل إليها، كما يقول صاحب النور السافر، بل لقد كان وجود الفقير فى مكان الفقر كفيلا بتعميره وجذب الناس إليه، اتصل بالشيخ محمد المنير ذات يوم أن ولدا قد اشتد به الظمأ حتى قتله، فهاله ما سمع ومضى إلى المكان الذى مات فيه وحفر فى الأرض بئرا وأقام زاوية له فسرعان ما تهافت عليه الفقراء وعمروا لهم بيوتا على كثب من زاويته، فأضحى المكان القفر قرية عامرة بالفقراء والناس والنزلاء ومن يرحلون عن مصر إلى القدس والشام أو غزة أو يعودون إليها من هذه البلاد، وكان أبو النجا الفوى «إذا سافر إلى بلده «فوه» ثم عاد إلى مصر ووصلت مركبه إلى بولاق إذهب الناس أفواجا يتلقونه كأنه سلطان، ويكون ذلك يوم عيد عندهم» كما يقول المناوى.

بل لقد امتد نفوذ هؤلاء إلى طريدى القانون والخارجين على قواعد الدين..!! فكان العصاة من قطاع الطرق يرتدون على يد الشيخ على البيومى ١١٨٣ مريدين وأتباعا له.! ومنهم من صار من السالكين.! وقد كان يوثقهم أحيانا فى أعمدة مسجد الظاهر بسلسلة من حديد، وتارة يضع الطوق فى رقابهم أو يؤدبهم بما يقتضيه رأيه وهم سكوت عن رضا وطواعية...! وكان إذا ركب إلى المشهد الحسينى فى جماعته تبعه هؤلاء العصاة والمجرمون حاملين العصى والأسلحة فى موكب له روعته وجلاله، وكذلك كان الشأن مع الشيخ الشناوى، فقد كان ينظر إلى قاطع الطريق وهو مار به فسرعان ما يتبعه هذا ولا يملك رد نفسه عن ملازمة الشيخ والسير فى ركابه..! وقد ارتقى بعض هؤلاء اللصوص التائبين حتى صاروا من أعيان جماعته..!

سار على البكرى ١٣٠٧هـ عاريا فى الأسواق يهذى فى حديثه ويخلط فى كلامه، فيؤول الناس هذيانه تأويلا يلائم أحوالهم ويتفق مع أغراضهم، واستغل أخوه سذاجة الناس فمنعه من الخروج إلى الشوارع والأسواق ـ مكشوف الرأس والسوأتين كما كان يفعل فى أغلب أحواله ـ وحبسه فى بيته وروج له وعزا إليه من الكرامات والخوارق ما حمل الناس على الإسراف فى الإيمان به والمسارعة إلى تقديم الهدايا والنذور إليه حتى أثرى أخوه من ورائه، وقد بلغ من اعتقاد الناس فى هذا الدرويش أن تبعته امرأة ولزمته فى الشوارع والأسواق، فسرعان ما آمن الكثيرون من الناس بصدق ولايتها، وأشاعوا أن الشيخ قد «لحظها وجذبها» فأضحت من أولياء الله الصالحين، ثم ارتقت فى درجات الجذب فخرجت معه إلى الشارع فى زى الرجال يتبعهما أنى سارا الأطفال والصغار وعامة الناس...! ومنهم من اقتدى بهما «ولزع ثيابه وتحنجل فى مشيته» فقيل إن الشيخ قد جذبه أو مسه فصار وليا...! وكثر أتباع هذا الرجل المعتوه حتى كان إذا مر بشارع ملأه ضجيجا، ونهب أتباعه محال التجار واستولوا على ما فيها من بضائع.! وكانت المرأة تصعد أحيانا على درج عال وتفحش فى القول فيزداد إيمان الكثير بها ويقبلون يدها تيمنا ببركتها...! ومر موكبهم ذات يوم ببيت جندى يسمى «جعفر كاشف» فقبض على الشيخ وأدخله إلى داره ومعه المرأة وسائر المجاذيب ـ ثم طرد الناس عنه وقدم له ما يأكله، وأدخل المرأة والمجاذيب إلى الحبس وأطلق الشيخ إلى حال سبيله. ثم أخذ يضرب المرأة

والمجاذيب حتى طير الولاية من رءوسهم ورد الرشد إلى عقولهم ، ثم أطلق سراحهم إلا المرأة فإنه أرسلها إلى المارستان وربطها عند المجانين، ولبثت على هذه الحال حتى إذا جدت الحوادث أطلق سراحها فخرجت إلى الشوارع فإذا هى «شيخة على انفرادها» يحسن الناس الاعتقاد فيها، ويؤمن الناس بصدق ولايتها حتى أقيمت لها الموالد ـ بعد مماتها ـ وقدمت إليها الهدايا والنذور...!!

بل بلغ من مكانته الملحوظة أن كان شيوخ الطرق فى الدول الإسلامية يجتمعون به فيعطيهم «إذنا عاما على عموم الطرق ويأذن لهم فى أن يكونوا رؤساء يرجع إليهم فى أمر عموم أهل الطرق...» كما يقول صاحب طبقات الشاذلية.

وكما كان هذا هو الشأن مع الأميين والمشعوذين فقد كان مع المستنيرين ، وقد عرفنا من قبل كيف جمع السادات فى يده السلطتين : التشريعية والتنفيذية حتى أباح لنفسه أن يستدعى المذنبين والأيمة فى داره، ويفرض عليهم العقاب الذى يشاوه ، وينفذه على مرأى من الناس ومسمع من الحكام، فلا يغضب لذلك أحد.! والغريب أن روح العصر كانت لا تسمح بأن يكون الحاكم واحدا من أهل البلد..!

فلم يكن غريبا بعد هذا أن يلتمس الحكام معونة هؤلاء الشيوخ زلفى إلى الله من ناحية، وضمانا لرضا الرعايا عن جورهم من ناحية أخرى، وكثيرا ما كانوا يلجأون إليهم عند المحن والأزمات، ويلتمسون عندهم العون على تهدئة الناس وحفظ الأمن العام، أو فى الانتصار على الخصوم والأعداء، روى الجبرتى أن إبراهيم بك قد مضى إلى البكرى (١٢٠٨ هـ) والعروسى(١٢٠٨ هـ) والدردير ١٢٠١ ـ حين أقبلت إلى مصر الحملة التأديبية التركية بقيادة حسن باشا الجزايرلى القبودان ـ وأنه أخذ «يبكى لهم وتصاغر فى نفسه جدا وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت، فإنه كان يخاف ذلك جدا». وقد كان هؤلاء الثلاثة من كبار شيوخ التصوف فى مصر إبان عصرهم. وإن جميع العروسى والدردير بين الفقه والطريق.

وكذلك كان الحال مع السيد خليل البكرى، إذ كان الأمراء الذين أدركهم الجزع من بطش الفرنسيين بهم أيام غزو نابليون، كانوا ـ فيما يقول الجبرتى ـ يلوذون به، ويجتمعون فى بيته، لأنه مسموع الكلمة مقبول الشفاعة.

وقد بلغ من نفوذ الشعرانى عند الحكام، أن كان يسعى لتعيين القضاة والمحتسبين وشيوخ العرب فى وظائفهم كما كان الحفناوى قطب رحى الديار المصرية، ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا بإذنه».

وقد كان هؤلاء الشيوخ ، يعملون من جانبهم على إيهام هؤلاء الحكام بسطوتهم وسعة نفوذهم، لأن هذا يعلى من شأنهم فى نظر الناس، ويكثر من أتباعهم وداره عليهم المال الطويل، ويحقق لهم السمعة الطايرة، فكان الشيخ يقول لنقيب زاويته : إذا أقبل الأمير الفلانى لزيارتى ، فقل لى على مسمع منه إن الباشا قد أرسل إليكم السلام مع أحد أفراد جماعته، وهو يطلب إليكم ألا تضنوا عليه بدعواتكم.! فإذا سمع الأمير ذلك، نقله إلى ساير الأمراء فيعلو شأنه عندهم، ويكثر ترددهم على زاويته ، ويقوى اعتقادهم فى ولايته...! وكان الشيخ السادات ١٢٢٨ هـ يلتمس شتى السبل لتوثيق علاقته بالأمراء، فكان يدعوهم إلى زيارته فى بيته، ثم يوعز إلى فقراء الطرق الأحمدية والسعدية والشعبية بأن يمروا بمواكبهم تحت داره، حتى يدرك

الحكام مبلغ نفوذه عند أرباب الطريق..!

ومن الأرزاق التى أجـراها هؤلاء الحكام ومن إليهم من المحسنين ، عاش هؤلاء الفقراء فى ترف ورخاء ـ لا يستقيم مع أبسط قواعد الطريق ـ ولكنهم كانوا يدعون أنهم ينفقون من الغيب ، لأن الصادقين من شيوخ الطريق ، لا يذعنون لقبول ما يقدمه لهم الملوك والأمراء من أموال وهدايا ومرتبات. ولا يرضون عن حياتهم المألوفة بديلا. والرزق إنما يكون مما يفتح الله، فإن العبد إذا صدقت نيته، وأخلص فى عبادة ربه، أدناه الله من حضرته، وقربه من ساحته ، وأولاه الكثير من نعمه، حتى ليرتفع فوق نواميس الطبيعة وقوانينها..!!

ووجه الغرابة فى هذا التعليل ، أنه قد صادف قبولا عند مؤرخى ذلك العصر، وفاتت حقيقته ذوى الحجى منهم ممن سبقوا عصرهم بأزمان طوال فالجبرتى يؤرخ لمحمد القلينى الأزهرى ١١٦٤هـ فيقول إنه كان من أصحاب الكرامات المآثر ، منها أنه «كان ينفق من الغيب ، لأنه لم يكن له إيراد ولا ملك ولا وظيفة، ولا يتناول من أحد شيئا، وينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وإذا مشى فى السوق تعلق به الفقرا، فيعطيهم الذهب والفضة ، وإذا دخل الحمام دفع الأجرة عن كل من فيه» ...!! ويقول المحبى فى ترجمة أحمد بن سلام المصرى ، إنه كان لا يتردد إلى أحد من الكبراء، ويحب الفقرا ولا يقبل من أحد صدقة مطلقا، بل كان فى غالب أوقاته يرى متصدقا، وليس له وظايف ولا معاليم ، وعلى ذلك كان فى أرغد عيش وأطيب نعيم» ..!! ويقول الشعرانى عن الشيخ الدويب، إنه ـ حين وافته منيته ـ خلف مابة ألف دينار، لا يعلم أحد مصدرها، لأنه كان متجردا من الدنيا زاهدا فى جاهها.

على أن شيوخ الطريق قد دفعوا لمن علاقتهم بالحكام، انتصارا لظلمهم وتأييدا للجائر من تصرفاتهم ، فأدى هذا إلى إضعاف روح التمرد على هؤلاء الظلمة، وإخماد نار الثورة فى قلوب المصريين.

٣ ـ نفوذهم أمواتا

جلال الموت ـ الأميون من مدعى الولاية ـ العلماء من مدعى الولاية ـ نظرتهم إلى من أخذ العهد على موتى الأولياء ـ الطوائف التى سلكت الطريق على موتى الأولياء.

كان شيوخ الطريق إذا تخطفهم الموت، تسلط على الناس نفوذهم. واستأثر بالأميين والمستنيرين، وكلما تقادم عليهم العهد، ازداد نفوذهم قوة واستبد بهوى الناس وإعجابهم، ولا غرابة فى ذلك، فإن الشعوب ـ والمتأخرة منها بوجه خاص ـ تؤمن بالأضاليل، وترث الأوهام جيلا بعد جيل، ولا يتدخل العقل فى تنظيم الحياة عند الناس إلا بقدر. وللموت حرمة ورهبة، تفضى بالناس إلى الإسراف فى تقدير من تخطفهم من الصالحين، والإشفاق من مهاجمة من يعدو عليهم من الاتقياء...!! والصادق من شيوخ الطريق، بالغا ما بلغ من صدق التصوف، يصادف المفكرين والساخرين ، ولكنه إذا أضحى فى ذمة الله، سكت عنه خصومه وحساده، وكف المنكرون عن التشهير به والنيل منه، وطوت الموت سوءاته ، واكتفى الناس بتناقل حسناته عملا بالقول المأثور : إذكروا محاسن موتاكم. ومن لم يعلو اسمه بعد موته، وتتسع فرجة الخلاف بينه وبين سائر البشر.

الترف في معيشة أرباب الطريق:

وكان الفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك، لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون في الزوايا طاعمين كاسين على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله. ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهدة الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شئون العيش، أرغد عيشا وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف، وقد وصف مؤرخو العصر ـ من الجبرتي وابن اياس والشعراني ومن إليهم ـ حال المصرى تحت الحكم العثماني ، بما ينوء تحت نيره من فاقة وضنك، ثم وصفوا حال الفقراء في الزوايا وما كانوا ينعمون به من أطايب العيش وسائر مظاهر اليسر والهناءة. فظهر خلال وصفهم نوع من التباين يثير الدهشة ويدعو إلى العجب.

سقوط التكاليف الدينية عن مدعى الولاية:

كان من العوامل التى أدت إلى انتشار التصوف شيوع الرأى القائل بأن الولى يسقط عنه كل ما أمر به، ويحل له أن يفعل كل ما ينهى عن فعله، والأصل في الرأى أن طائفة من المتصوفة أجازته لمن بلغ الغاية القصوى في الولاية. فرأى طغام الناس أن ادعاء الولاية ينقذهم من تكاليف الدين، وينجيهم من فروضه وواجباته، ويتيح لهم التميع بما حرم عليهم من رذائل وشهوات ـ وكان طبيعيا أن يشيع مثل هذا الرأى بين ناس قد انحلت أخلاقهم في عصر شابه الذل وتمشى فيه الضنك وساد الفقر ومست الحاجة إلى أسباب الترويح عن النفس ـ فنزع بعض الناس إلى الهرب من ضغط التقاليد وتضييق الرأى العام على حرية الناس، بالتماس الحرية في رحاب التصوف، وادعاء الولاية التى ترفعهم عن سائر البشر، وتجعلهم فوق قواعد الدين وأوضا العرف ومقتضيات التقاليد.

ولعل انحلال الأخلاق في هذا العصر قد ساعد على ادعاء الولاية، ولا يعجب في أن تنحل أخلاق قوم يشتد في نفوسهم التعصب لرسوم الدين وطقوسه ، فإن تاريخ الأديان يقول إن عصور الاضمحلال تسودها نزعتان دينيتان متضادتان : نزعة ترمى إلى التشبث برسوم الدين والتزام طقوسه، ونزعة ترمى إلى التهاون في تنفيذ تعاليمه والاستهتار بقواعده ومبادئه ، وأن هاتين النزعتين تسيران جنبا إلى جنب في العصر الواحد والبلد الواحد والشخص الواحد.! وبهذا وجد انحلال الأخلاق في مصر إلى جانب ما أسلفنا ذكره من تعصب شديد، وكان من مظاهر هذا الانحلال الخلقى شيوع الزنا وانتشار المخدرات وغيرها من حشيش وخمرة وبوزة وشيوع الشذوذ الجنسى من عشق المرد والغلمان، ومن أمثلة النوع الأول ما رواه الشعراني عن طالب علم اعترف له بأنه أحب زوجة شيخه وزنا بها وهى تخادع زوجها وتستغل غفلته..!! وقد كان هذا الداء شائعا في هذا العصر، فقد انتشر الزنا بحليلة الجار أو من غاب زوجها، حتى لم يسلم منه أحد، ضم أحد المجالس جماعة من أكابر الناس فقال أحدهم من سلم منكم من الوقوع في الزنا ليحلف بالله على ذلك، فما تجرأ واحد منهم على القسم واعترفوا جميعا بأنهم وقعوا فيه إبان شبابهم.

ومن أمثلة النوع الثانى ما رواه عبد الغنى النابلسى عن إمام مسجد السنانية ببولاق فقد حضر النابلسى مع زين العابدين البكرى ١١٠٧ صلاة الجمعة بهذا المسجد فأدهشه أن الخطيب كان كثير اللحن فى خطبته وصلاته، وكان زين العابدين كلما سمع لحنه نظر إلى النابلسى وابتسم فظن الإمام أنه معجب به مغتبط بكلامه، فلما انتهت الصلاة مضى الخطيب إلى زين العابدين فى زاوية الكلشنية وأخذ يتشفع عنده «فى أن يأخذ له بقية الخطابة لأن له شريكا فيها لا يستحقها» فأفهمه بعض الحاضرين حقيقة حاله وعرفوه بأن الشيخ كان يبتسم لكثيرة لحنه فى خطبته وصلاته. «فاعتذر بأنه كان غائبا يأكل الحشيشة التى هى مناه، ثم عدل على ذلك كله إلى السخرية وأظهر الكلمات المضحكات والاصطلاحات العامية فطرده الحاضرون» ولو أن تعاطى الحشيش كان اتهاما يشين صاحبه أو يقضى على سمعته، لالتمس هذا الإمام عذار للحنه غير هذا العذر، والجبرتى وابن اياس خير من تحدثا من المؤرخين عن انتشار الحشيش والخمر والبوزة والفسق بالنساء والمرد إبان هذا العصر.

والأمثلة على النوع الثالث (الشذوذ الجنسى) كثيرة لا يكاد يحصيها العد، فكثيرا ما ترى فى كتب التاريخ والتراجم والطبقات أن هذا العالم أو غيره كان يعشق الغلمان.

وليس أدل على شيوع الشذوذ الجنسى بين هؤلاء الناس من دهشة رفاعة بك طهطاوى حين سافر إلى فرنسا لأنه لم يجد هذا الداء منتشرا بين أهلها كأن انتشاره هو الشيء الطبيعى وغير الطبيعى حقا ألا يكون شائعا بين الناس.

هذا الانحلال فى الأخلاق قد ساعد الناس على التهافت على دخول الطريق وادعاء الولاية، وعاون على تمهيد السبيل لانتشار الدجل وشيوع الشعوذة، ولو كانوا على خلق عظيم أو تدين صحيح لكان من المحتمل، بل من المؤكد أن ينفروا من هذا الادعاء، ويتساموا بأنفسهم عن تضليل الناس .

النزاع بين أهل الفقه وأرباب الطريق

الحقد فى صدور الفقهاء

تولى الصدارة بين الناس فى هذا العصر حملة الشريعة وأرباب الطريق، ورغم ماكان بين الطائفتين من خلاف فى وجوه النظر فقد كان الدين سبيلهما إلى ارتقاء الزعامة، ولهذا كان طبيعيا أن يثور فى صدور كليهما الحسد والضغينة والبغضاء وأن يقوم بينهما النزاع للذود عن الدين حينا ولحيازة السلطة أحيانا.. وقد اتخذ النزاع بين العلماء والمتصوفة فى العصر العثمانى مظهرين عنيفين: مظهر المقاومة الفعلية التى اتخذت صورة الضغينة والضرب والقتل وما يشبه ذلك ومظهر المقاومة النظرية بتأليف الرسائل يحملون بها على مسلك خصومهم فى لهجة تتراوح بين العنف واللين. فلنتناول المظهرين فى إيجاز مبتدئين بالحقد الذى ربض فى صدور الفقهاء.

بعض مظاهر المقاومة العملية:

كان العلماء فى الكثير من هجماتهم قساة

غلاظ الأكباد يخطون أوامر الدين ونواهيه بدعوى الحرص على قواعده وتعاليمه، فكثيرا ما كانوا يقتصون من خصومهم بالتنكيل بهم أو تدبير المؤامرات التى تؤدى بحياتهم مدعين بأنهم يحمون الدين من شرهم ـ وكان اتصاف الرجل بالتصوف ـ ولو قام تصوفه عن فقه بالدين ـ كفيلا فى أكثر الأحايين ببغض العلماء له وقسوتهم فى معاملته وسعيهم للتنكيل به، وتاريخ التصوف فى هذا العصر حافل بالمآسى التى تشهد بالتعصب الدينى وتنطق بضيق العقول وكدر النفوس، ومن أفظع هذه المآسي .حيال «عبد الرءوف المناوى ١٣٠٣ هـ رغم ما كان عليه من علم أدى إلى إعجاب الكثيرين من الفقهاء به:

روى «المحبى» أن المناوى ، اعتزل الناس واعتكف لدراسة الدين والتبحر فيه ثم ظهر لهم فأنكروا عليه علمه، ولما تولى التدريس فى المدرسة الصالحية برم بذلك العلماء لأن التدريس فيها كان وقفا على أكبر علما الشافعية ـ وهو شيخ الجامع الأزهر فى العادة كما يقول الجبرتى ـ وهالهم إعطا هذا المنصب لرجل لا يعرفون عنه إلا أنه من أهل التصوف. فلما حضر الدرس أقبل عليه البارزون من شيوخ المذاهب وتأهبوا لانتقاده، ولكنه شرع فى أقراء مختصر المزنى.ونصب الجدل فى المذاهب وآتى فى تقريره بما لم يسبقه إليه أحد . فاضطر الذين حضروا درسه إلى الإعجاب به والثناء عليه، وأخذ أجلاء العلماء يبادرون لحضوره ويفيدون منه، وقد انتفع به جمهور كبير منهم، ولكنه كان معروفا بالتصوف وكان صاحب زاوية بخط المقسم بين زاويتى «أحمد الزاهد» «ومدين الأشمونى» . فأثار هذه الضغينة فى نفوس حساده ودسوا له السم «وتوالى عليه بسبب ذلك نقص فى أطرافه وبدنه من كثرة التداوى، ولما عجز صار تاج الدين يستملى منه التآليف ويسطرها ، حتى مات عام ١٠٣١ ودفن بزاويته.

اغتال الفقهاء المناوى وحاول سلفهم أن يمثلوا المأساة مع عبد الوهاب الشعرانى ٩٧٣ فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى التنكيل به والتشهير باسمه وكان الشعرانى عالما من خيرة علماء عصره غزير المادة وحب الأطلاع واسع الحيلة ملما بمختلف آفاق الدين على نحو ما كان يفهم معاصروه ، وقد شهد له بذلك كثير من حملة الشريعة وكان صاحب زاوية كبيرة تضم مائتين من مريديه وأتباعه. فتكفل العلماء الازهريين بتشويه سمعته، وقد حاولوا نفيه من البلاد بعد أن عز قتله وإراحة الناس من شره.. وقد كان الشعرانى فى كافة كتبه يحتم على الفقراء التفقه فى الدين والتبحر فى شئونه ، واعتبر الفقه مقدمة للتصوف وحاول التوفيق بين التصوف والفقه ووقف على هذه الغاية بعض مؤلفاته ـ كاليواقيت والجواهر ـ ومع ذلك فقد كان له من حملة الشريعة حزب يناوئه وينفس عليه نفوذه وشهرته، وحزب آخر ينتصر له ويروج لتعاليمه، وقد ظهر هذان الحزبان فى فتنة أثارها عليه فى الجامع الأزهر فى مصر والحجاز خصومه وحساده.

ثم سكنت الفتنة وخبت نارها ولكن الضغينة مازالت رابضة فى صدور خصومه من الأزهريين تتمثل فى وجوههم العابسة المقطبة كلما مر بهم هذا الخصم الذى يهدد الدين بالخطر.. وقد أقاموا على بغضه طيلة حياته ولوّوه بالنظرات الشذراء كلما صافحته أبصارهم كأنما كانوا على السنة وهو

على البدعة وربما كان العكس هو الصحيح كما يقول بل لقد سعى بعضهم إلى قتله مرات كثيرة وتمنى غيرهم لو نجح مسعاه فى نفيه من مصر وكثيرا ما أدى الحقد ببعض حساده إلى رميه بالجهل فى الشريعة والحقيقة معا.

التناسب الطردى بين حقد وعلم أرباب الطريق:

وعلام هذه الضغينة كلها؟ لقد كان الشعرانى لا يكتب كتابا إلا أعلن فيه التزامه للكتاب والسنة وبراءته من المارقين من الدين الذين يظنون أن الحقيقة شيء والشريعة شيء آخر، وما أكثر الكتب التى حفلت صفحاتها شرح مذهبه فى هذا الصدد.

ولهذا كان الحقد الذى يحمله الفقهاء لأهل التصوف يتناسب فى قوته وعنفه تناسبا طرديا مع علم المتصوفة عكسيا مع جهلهم ـ فالمتتبع لحركات النزاع بين الطائفتين ومظاهر العدوان والتحدى يرى أن المتصوفة الذين نادوا بدراسة العلم وحتموا على الفقراء التبحر فى الدين قد نالهم من أذى الفقهاء وعدوانهم فوق ما نال دعاة الجهل وأنصاف الأميين من أهل التصوف..! وإذا قارنا موقف العلماء من المناوى والشعرانى بموقفهم من محمد كريم الدين الخلوتى ٩٨٦ ، وعلى البيومى ١١٨٣ هـ عرفنا مبلغ الصدق فيما نقول.

وسنعرف أن المقاومة النظرية كانت تظهر فى صورة الكتب والرسائل يضعها الفقهاء فى مهاجمة الجهلة من الفقراء. ولم يعن العلماء ـ فيما نعلم ـ بوضع كتب وتأليف رسائل يردون بها على التعاليم التى كان ينشرها المستنيرون من أهل التصوف .

وإنما اهتموا بتدبير المؤامرات التى تفقدهم السمعة الطيبة وتفض الناس من حولهم إذا لم تنته بقتلهم وإراحة البلاد من شرهم..

ولعل السر فى هذا التناسب الطردى بين علم المتصوفة وكراهية العلماء أن الفقهاء قد لاحظوا أن العلماء من أهل التصوف أكثر خطرا على نفوذهم عند الناس والحكام من جهلة أرباب الطريق، لأنهم يتساوون مع العلماء أمام الجمهور فى سعة العلم وفهم الدين ثم يزيدون عليهم هذا التصوف الحبيب إلى نفوس الناس، وفى هذا الامتياز ما يمهد لهم سبيل الانتصار على الفقهاء فى اكتساب النفوذ عند طبقات الشعب وهيئات الحكام.

أو لعل السر فى هذا التناسب الطردى أن العارفين بالدين من أهل التصوف أخطر على عقائد الناس من جهالهم وسنوضح هذا بعد.

بعض مظاهر الحقد النظرية:

إن هذا العصر كان عصر الشروح والحواشى وإن العلماء كانوا يتناولون المتن الذى وضع من قبل فيضعون له الشروح والتعليقات ثم يأتى بعدهم من يتولى شروحهم بالشرح والتعليق. فبدا ركود فى الحركة الفكرية وقلة فى المؤلفات مع كثرة الحواشى والشروح، وكان طبيعيا بعد هذا أن تقل الكتب التى يضعها الفقهاء فى الرد على مايرونه فى سلوك المتصوفة من خروج على قواعد الدين وتعاليمه، وأن تكون هذه الكتب ـ فى الأغلب والأعم ـ رسائل صغيرة حافلة بضروب السباب وألوان الشتائم محشوة بأقوال فى الدين يقتبسها المؤلفون من كتب السلف، وقل منها مادل على فكر مبتكر أو سداد نظر لم يستعره صاحبه من الأغيار.

والظاهر أن واضعى هذه الرسائل كانوا أصنافا

ثلاثة : أولها الفقهاء الخلص وقد كانت رسائلهم تنضح بالحقد وتفيض بالضغينة وتنهال على الخصوم بالسباب والتهم، ويمثل هؤلاء الشيخ على الصعيدى العدوى وغيره من العلماء الذين نالوا من المتصوفة كل منال وأخفوا عن القراء أسماءهم كما سنعرف بعد قليل.

وثانى الصنفين : العلماء الذين أشربوا بروح التصوف ـ فيما يلوح لنا ـ وقد كانوا فى الأغلب والأعم أميل إلى نصرة المتصوفة ورد التهم التى كانت توجه إليهم فكانت رسائلهم مشبعة بروح اللين والعطف.

وثالث الأصناف: المتصوفة الذين كانوا متفقهين فى الدين. وقد كانوا فريقين : قام أحدهما بالدفاع عن أهل التصوف ورد التهم التى كانت تنهال على رءوسهم ويمثل هذا الفريق : السيد محمد البكرى ٩٤٤ ـ وتولى الفريق الثانى الفقراء بالطعن واشتد فى حسابهم وكان أقسى عليهم من خلص العلماء القساة ـ كما سنعرف بعد ـ ويمثل هؤلاء الشعرانى ٩٧٣ . ولا بأس من أن نزيد هذا الكلام وضوحا.

(١) كتب الشيخ الصعيدى سنة ١١٩٧ للهجرة فتوى على سؤال وجه إليه بصدد طريقة الذكر عند طائفة المطاوعة التى عرفنا عن فقرائها تتخذ المغنيين والأعلام والطبول والنقباء والسبح الكبيرة والملاحف والسراويل يضعها الغلمان الذين يجلسون خلف الذاكرين فوق رءوسهم أو يمسكون بها ظهورهم .... وغير ذلك من ضروب البدع عند فقراء المطاوعة.

فاستهل الشيخ الصعيدى فتواه باقتباس فقرة من رد الشيخ يوسف الزرقانى (المالكى) وعامر الشبراوى (الشافعى) وأمين الدين (الحنفى) على مثل هذا السؤال إذ قالوا «رقصهم نقص وسماعهم سفاهة وتواجدهم خفة من الرأس والقائل منهم هذا عن رسول الله كاذب فى ذلك ويتبوأ مقعده من النار ويعزز على إفتائه بغير علم. ويمنعون من الاختلاء بالمرد ومن مسهم، ويثاب ولى الأمر على زجرهم، وعقب على ذلك بذكر ما رواه مالك فى تحريم الغناء، والجنيد فى كره السماع ووصف اتخاذ الغلمان بأنه ضلال مبين وقال إن مسهم دبر الولد وإباحتهم ذلك ودعواهم بألا جناح عليهم فى غير فعل الفاحشة كفر لا ريب فيه، وحرم اتخاذ الرايات من الحرير وغيره لأنهم يخدعون به الناس ويوهمونهم بأنهم فقراء ليتمكنوا من أكل أموالهم بالباطل والاستمرار فى أخذ «العوائد» من البلاد ومرضاة الناس عن مبيتهم فى بيوتهم وتحمل نفقات ذلك ولو أدى بهم الأمر إلى الاستدانة من غير المعوزين، ووصف هذا بأنه ظلم مبين ، وحرم الضرب على الكأس.. إلى أن قال لهم فى لهجة المغيظ المحنق «وأنتم معشر المطاوعة احتوى عليكم الجهل واستولى الشيطان على قلوبكم وزيف لكم ما أنتم عليه من القبائح التى لا يقول بها إمام من الأئمة..» ثم حمل عليهم فى اتخاذ الأولاد الملاحف والسراويل وقال إنه سفاهة وقلة أدب وطلب شهرة والنبى يقول «ومن لبس ثوب شهرة كساه الله يوم القيامة ثوب ذلك وصغار ثم أشعل عليه نارا» وأدخل فى ثوب الشهرة اتخاذهم السيوف من الخشب والمزاريق من الجريد والطواقى من السعف والطراطير التى يضعون عليها أنواع الريش والخرق الملونة والأباريق الملأى بالماء والسبح الكبيرة.. ووصف دوران الغلمان على الذاكرين واحتضانهم من الخلف بأنه ضلال يسوله لهم الشيطان وأورد من الفضائح ما ينبئ عن بغضه الدفين لهم ورغبته الملحة فى التشهير بهم والانتقام منهم على نحو ما نرى فى فتواه.

من الرســائل التى هاجم بهـا العلمــاء أهل التصوف هجوما لا رفق فيه ولاهوادة ـ رسالة باسم الصاعقة المحرقة كتبها أحد العلماء سنة ١١٠٥ هـ [محـمـد صفى الدين الحنفى] فى الفـقـراء الذين اتخذوا الرقص واللعب دينا وخلطوهمـا بالعبـادة، وراحوا فى حلقات الذكر يدورون مركبين أيديهم إلى وراء وقدام رءوسهم بالتصعيد والتسفيل والتلوى، على هيئة معروفة فى لعبه (ركض الديك) عند النصارى كما يقول المؤلف. والرسالة فياضة بالحقد والضغينة والموجدة.

وهذان مثلان للمقاومة النظرية عند العلماء الخلص، ترى منهمـا بعض مظاهر البغض الرابض فى الصدور والحقد الجاثم فى القلوب.

(٢) ويمثل طائفة العلماء الذين يكتبـون عن المتصوفة بروح مشوبة بالعطف واللين، أحمد بن عبد العزيز بن على الفتوح الشهير بابن النجار (الحنبلى) وناصر الدين اللقانى (المالكى) وشهاب الدين أحمد بن يونس (الحنفى) وشهاب الدين الرملى (الشافعى) وقد كان هؤلاء الأربعة الذين يمثلون المذاهب الأربعة خير من انتصر للشعرانى فى محنته التى عرضنا لها من قبل. ونرى شيئا من الدفاع الحماسى الذى قاموا به مع غيرهم من العلماء فى إجازاتهم المنشورة فى «البحر المورود» ولطائف المنن.

وترى صورة أخرى لهذا الدفاع الذى تولاه هذا الصنف من العلماء فى استفتاء وجهه مصطفى الرومى بقناطر السباع فى أواخر القرن الحادى عشر إلى اثنى عشر عالما عن (١) ذكر الله بطريقة الدمرادشية والخلوتية والشناوية (٢) الهوية عندهم وهى دورانهم فى حلقة الذكر وقد وضعوا أيديهم بعضها فى بعض وراحوا يقولون .. هو هو هو ..

فأجاب عن السؤال الأول المشايخ أبو الخير أحمد المرحومى الشافعى ومحمد الأحمدى الشافعى ومحمد المهلهل المالكى وأحمد الأزهرى وعبد ربه البربرى الشافعى وأبو الصفا الشنوانى وعلى بن عامر الأنبابى المالكى ـ وأجاب عن الفتوى الثانية المشايخ أبو العزيز بن أحمد العجمى الشافعى الوفائى والشهاب الرملى وعبد الحى الشرنبلالى وسليمان السراخيبى المالكى ومحمد الخليل الشافعى.. ولما كانت إجاباتهم انتصارا لأهل التصوف وتأييدا لوجهات نظرهم فقد حمل الشيخ مصطفى الرومى هذه الإجابات إلى عبد الغنى النابلسى وأطلعه عليها ونشر هذا فى رحلته.

وثمة رسائل كثيرة من هذا النوع

(٣) وثالث الأنواع دفاع المتصوفة المتبحرين فى الدين عن طوائف الفقراء وأعمالهم، ويمثل هؤلاء السيد أبو بكر محمد زين العابدين البكرى (+٩٩٤هـ الذى كتب رسالة ينتصر فيها لفقراء الطائفة السعدية الذين يكثرون من ذكر الله حتى إذا طاب لهم الوقت تواجدوا واضطربوا وتساقطوا على الأرض وافتقدوا الحس وزايلتهم الحركة حتى أضحوا كالخشب المسندة لا يقوورن على النهوض حتى يسارع إليهم نقيب الشيخ فيكبس أيديهم وأرجلهم ويقيمهم على بركة شيخهم. ويذود عن بعض فقراء هذه الطائفة ممن يخرجون من أجسادهم شيئا ملونا بالأحمر أو الأبيض أو الأصفر يسيل منهم كالعرق من غير جرح أو منفذ له على سبيل الكرامة ـ فتولى الدفاع عنهم والذود عن مسلكهم والانتصار لطريقتهم بما نراه فى رسالته ـ حتى السائل الذى يخرج من أجسادهم ملونا دون جرح ولا منفذ قد زعم بأنه كرامة فقال «فيها كرامة ظاهرة وآية ظاهرة حيث كانت أنوارها مشرقة من

سماء نفوس لا تعدل عن اتباع الشريعة ولا تأوى إلا إلى حصونها المنيعة» وكأنه أحس بأن دعواه فى التزام هؤلاء الفقراء للشريعة سافرة البطلان فعقب على هذا قائلا «وإذا ظهر على من يخلط بالعصيان بعض الأحيان ، فالكرامة لأستاذه الذى ينتسب إليه ، ولكن لطهـارة قلبـه فى ذلك الوقت ظهـرت عليه..!!».

تصوف الفقهاء الذين انتصروا لمشايخ الطرق:

قلنا فيما أسلفنا أن العلماء الذين تولوا الدفاع عن مسلك المتصوفة كانوا فى الأغلب والأعم يجمعون بين عنصرى الفقه والتصوف، وإن عرفوا بين الناس بأنهم فقهاء لغلبة الأول على الثانى فى مسلكهم . فهل ثمة دليل يشهد بصحة هذ الزعم..؟

كان بين العلماء الذين انتصروا للشعرانى فى محنته وذادوا عنه فى فتنة الأزهر وكتبوا له الأجازات التى تشهد بتدينه : ناصر الدين اللقانى وشهاب الدين المالكى والفتوحى الحنبلى . وقد ترجم لهم فى كتاب له فكانت تراجمهم الشاهد العدل على صحة ما نقول.

وكذلك نقول فى عبد الله الشبراوى الذى انتصر للبيومى فى ثورة العلماء عليه وسعيهم لإلغاء مجالس الذكر التى كان يعقدها لجماعته بالمشهد الحسينى، فقد كان الشبراوى شديد الحب للمجاذيب كما يقول الجبرتى فسعى له عند الباشا والأمراء حتى منع عنه ما كان وشيكا أن ينزل به من حيف.

وكذلك يقال فى كثير من العلماء الذين انتصروا لأهل التصوف ودافعوا عن طريقتهم.

بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف:

ولكن تصوير التصوف فى أذهان الفقهاء على هذا الوجه من الكراهية غير صحيح، فقد كان بعض المتصوفة فى رأى الكثيرين من العلماء موضع حب وتقدير، وكثيرا ما احتفى الأزهر بعلمائه وطلبته بأهل التصوف الذين يفدون لزيارة مصر من أمثال مصطفى البكرى وعبد الغنى النابلسى ـ وقدأشار هذا فى رحلته إلى مظاهر الحفاوة التى كان يستقبل بها بين العلماء وطلاب الأزهر، وكثيرا ما كانوا يتوافدون على دار زين العابدين للتيمن به ويرحبون بزيارته لهم. وإنه ليصف موقفا رائعا ينطق بهاذ الحب فيقول إنه زار الجامع الأزهر، فأقبل عليه العلماء والمدرسون وطلبوا إليه درسا تبركا منه وتيمنا فاعتذر لهم عن ذلك، وقال يصف مبارحته للأزهر «انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك يقبلون يدنا ويطلبون الدعاء مع زيادة الاعتقاد فأخذتنا هيبة ذلك الحال فصرنا نبكى وهم يبكون وندعو لهم حتى خرجنا من الجامع..!!».

ولكن لماذا لم يلق هذه الحفاوة البالغة فى رحاب الأزهر كبار المتصوفة من المصريين ونزلاء مصر المقيمين بها...؟ أليس يدل هذا على أن الفقهاء قد احتفوا بالنابلسى لأنهم لا ينفون عليه نفوذه ولا يضيقون بسلطانه لأنه بقاءه فى مصر محدود الأجل..؟ ألا تكون هذه الخصومة التى ثارت بين العلماء المتصوفة مردها إلى النزاع على حيازة السلطة عند الناس والحكام معا؟

الواقع أن الكثيرين من الفقهاء كانوا يحسنون الظن بأرباب الطرق روى الجبرتى (فى حوادث سنة ١١٩١هـ) عن مفتى الشافعية الشيخ الكفراوى أنه كان يعتقد أن الشيخ صادومه من كبار الأولياء

وأرباب الأحوال والمكاشفات ، فأخذ يعلى من شأنه عند الأمراء (وخصوصا أمام أبى الدهب) حتى راج حاله وطار صيته، واختلى أبو الدهب ذات يوم بمحظيته فإذا على سوأتها كتابة..!! واعترفت له بعد أن هددها بالقتل أن الشيخ صادومه هو الذى كتبها ليدنيها من قلب سيدها، فأمر الأمير بقتله وإلقائه فى النهر، فألقوه فى النهر وصادروا داره فوجدوا فيها تمثالا من القطيفة على هيئة الذكر.. !!

وذكر «المحبى» عن «فايت المصرى» (من أهل القرن الحادى عشر) أنه كان يقيم بباب الجامع الأزهر وكان كبار العلماء يحترمونه ويعتقدون فى ولايته، وكان إذا أقبل لزيارته أحد هؤلاء العلماء وقف بين يديه ، فإن أشار إليه الشيخ فايد بالجلوس جلس وإلا لبث واقفا حتى يأمره بالانصراف أو ينصرف هو من نفسه..!!

وقد لاحظ الأستاذ «فولرز» أن من مظاهر النزاع بين الفقهاء والمتصوفة أن الشعرانى لم يكن له مكان فى الأزهر رغم نباهة ذكره وشيوع اسمه وكونه ممثلا لرجال التصوف فى عصره ورغم أن الكثيرين من الأزهريين ـ علماء وطلبة ـ كانوا يبغضون الشعرانى ولايحبونه على نحو ما أشرنا، إلا أن السبب فى بعده عن الأزهر ربما يرجع إلى رغبته فى الاستقلال بمريديه الذين بلغوا فى زاويته المائتين على ما عرفناه ، فإن الكثيرين من المتصوفة كانوا يقيمون فى المساجد أ ويتخذونها مقرا لتلاوة الأوراد وذكر الله.

موقف المتصوفة من الفقهاء:

كل ما أسلفناه من مظاهر المقاومة النظرية والفعلية منصب على تصوير الموقف الذى التزمه الفقهاء من أرباب الطريق، ولم نشر فيما ذكرناه إلى موقف النزاع أن المتصوفة قد قاموا فيه بدور سلمى بحت، وأن الفقهاء هم الذين قاوموا أرباب الطرق واشتدوا فى حسابهم وأغلظوا فى معاملتهم وتعقبوا آثارهم ورصدوا حركاتهم وطاردوا مريديهم ونالوهم بالأذى فى كل فرصة حانت لهم.م ولعل السر فى هذا : (أ) أن أرباب الطريق هم الذين خرجوا على ظاهر الشرع وأعلنوا هذا دون مداراة فاحتاجوا إلى من ينصرهم من أهل الفقه ويؤيد مسلكهم فى كل مالا يلتئم مع ظاهر الكتاب والسنة ، فاستعانوا بالعلماء فى أخذ الأجازات التى تشهد بالتزامهم قواعد الدين كما فعل الشعرانى فى كتابه «البحر المورود فى المواثيق والعهود» وفى غيره من الكتب. وقد تغنى بذلك فى عدة مواضع من مؤلفاته.
(ب) أن أرباب الطرق فى الجملة يدعون إلى السلام ويبشرون بالحب والصفاء ويطالبون مريدهم باحتمال الأذى والصبر على الاضطهاد أملا فى نيل الثواب ورغبة فى اكتساب الصفاء النفسى الذى يؤدى إلى حضرة الله. فساعدتهم هذه الدعوة على موقفهم السلبى من هجمات العلماء والظاهر أن هذا هو الذى حمل الأستاذ «فولرز» على القول بأن الغلبة كانت على الدوام للفقهاء على أرباب الطريق ولكن إن صح هذا الرأى فى القدم فإنه غير صحيح فيما نظن فى العصر العثمانى. فقد كان الشعب فى صف الفقراء وكان إيمانه بهم أشد بكثير من إيمانه بالعلماء. وما عرفنا عالما كان له من الأتباع الذين يستجيبون لمطالبه وينصاعون لآرائه ويستحيلون أدوات مسخرة لتنفيذ مآربه، وما كان لكبار أرباب الطريق.

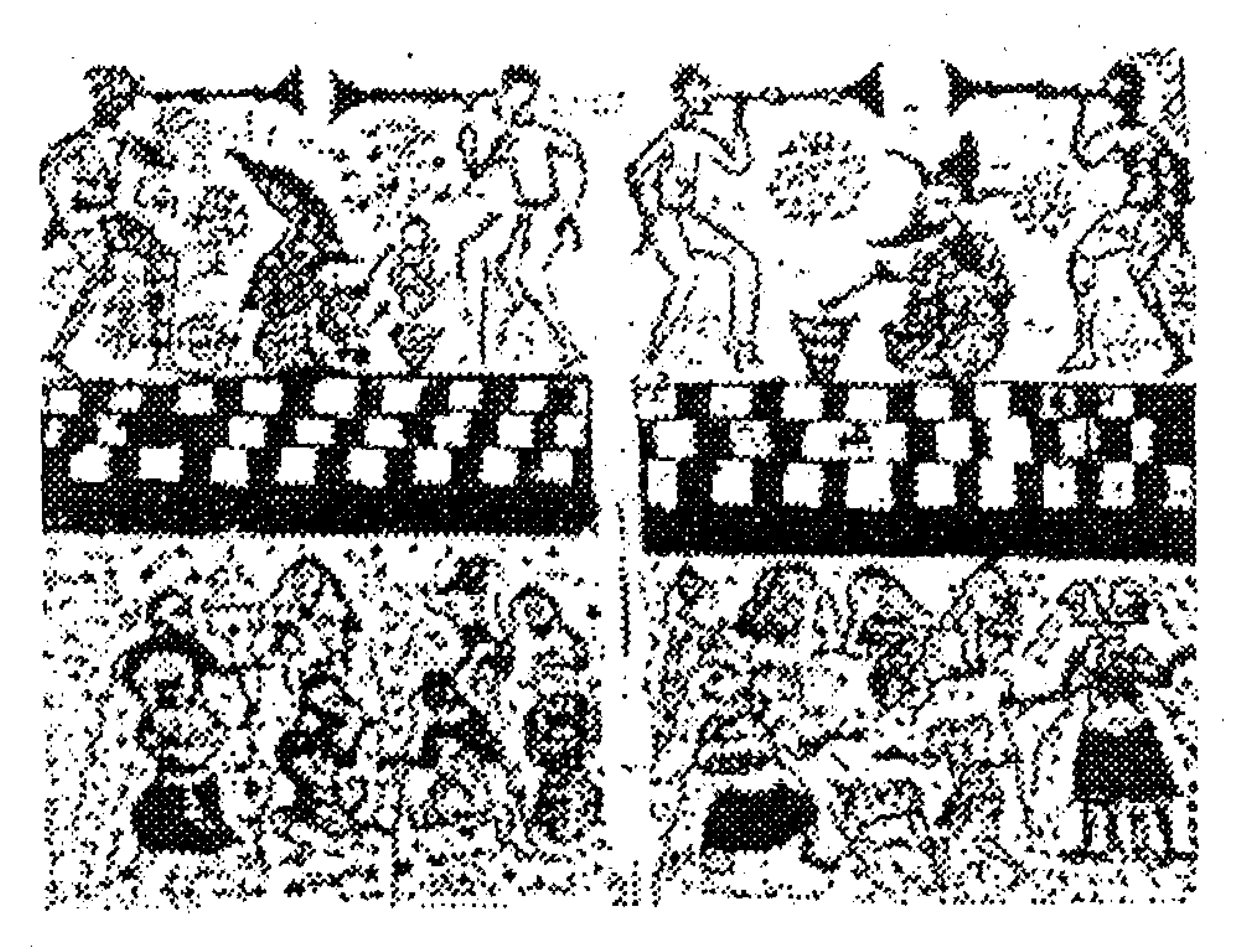
مخطوطات مصرية مصورة من فترة الاحتلال العثماني*

تحتفظ المكتبات والمتاحف العالمية بمجموعة لا بأس بها من المخطوطات التى نسخت وزوقت فى مصر فى فترة الاحتلال العثمانى، من كتب علمية، يمكن تناول أمثلة من صورها بالدراسة الوصفية والتحليلية بحسب ترتيبها الزمنى، بالاعتماد على ما تحمله من تواريخ نسخها، أو ما تحمله صورها من أساليب فنية على النحو التالى:

١ ـ نسخة مخطوطة من كتاب قانون الدنيا وعجايبها، للشيخ أحمد المصرى محفوظة بمكتبة طوبقابو سراى فى استانبول تحت رقم (ديوان Revan 1638 ١٦٣٨ ، مؤرخة بسنة(٩٧٠هـ/١٥٦٣م). تشتمل على مجموعة من الصور العلمية الملونه تعتبر صدى لروح العصر الذى تنتمى اليه هذه الصور. ويلاحظ ان الروح السائدة فى صور هذه المخطوطة هى الروح الشعبية، والتى تتجلى فى التناول المباشر للموضوع، والاقتصاد على الأساسيات وتوزيع العناصر على سطح الصورة وملء جميع الفراغات فى الصورة بلفائف زخرفية نباتية، .

وفى صورة تمثل قصة يأجوج ومأجوج على صفحتين متقابلتين نشاهد صورتين متشابهتين كل صورة تحتوى على قسمين: العلوى منهما يبين طبالا جالسا وزمارين واقفين، يليه القسم السفلى حيث نشاهد منظرا لمخلوقات غريبة، ويفصل بين القسمين فى الصورتين جدار سميك. ومناظر هذه الصورة توضح قصة الرجل الصالح (ذو القرنين) وقوم يأجوج ومأجوج التى جاءت فى القرآن الكريم فى سورة الكهف.

وهكذا نجد ان رسوم المنظر السفلى تعبر عن قوم يأجوج ومأجوج، فرسم المصور مخلوقات شريرة غريبة الشكل عبارة عن رجال برءوس مزدوجة ورجال بدون أفواه، وآخرين بآذن كبيرة، كما نشاهد ذلك الرجل الذى رسم بلا رأس وقد برز وجهه من بين كتفيه. ولعتقد بأن هذه الرسوم ليأجوج ومأجوج تعبر عن فكرة المصور التى تخيلها عن هؤلاء الأقوام وأشكالهم.



ولقد وفق المصور فى رسم السور السميك الذى حبس خلفه يأجوج ومأجوج الذى يتكون من أربعة صفوف أفقية من الحجر وليميز بينها رسم كل صف بلون، كالأرجوانى، والبنى الداكن، والأزرق، والأصفر، ورسمت بقية القصة فى المنظر العلوى، ذلك أن يأجوج ومأجوج ستظل محبوسة وراء هذا السور المنيع، ممنوعة من تدمير

* الخصائص الفنية لمدرسة التصوير فى مصر فى العصر العثمانى. د. أبو الحمد محمود فرغلى المجلة التاريخية المصرية . المجلد ٣٨ ص ١٧٧/ ٢٣١.

العـالـم حـتى يأتي وعـد الله . ولقـد اكـتـفى المصـور بالتعـبيـر عن مـشـهـد النفخ في الصـور برسـم رجلـين ينفـخـان في المزمـار (البـوق) ويجلـس بينهـمـا شـخـص ثالـث يقـرع على الطبلة.

ويلاحظ في الصورة أنها تكشف عن قوة فطرية في التصميم، وعن إهمال للتفاصيل غير الأساسية التي تشهد انتباه المشاهد للصورة. كما أن رسوم الأشـخـاص جاءت مسطحـة تماما، وقـد ملئت خطوطهـا الأوليـة بلون أو أشكال مـسطحـة. هذا فـضـلا عن الطابع الزخـرفي الذي يتـجلى في الزخارف اللولبية الحلزونية، قوامها فرع نباتي يحتل كل الفراغات الموجودة بين الرسوم ، وكذلك في الألوان الزاهية البراقة التي نفذت بها رسوم الصورة وأسلوب توزيعها.

٢ ـ نسـخـة مـخطوطة من كـتـاب عـجـائب المخلوقات للقزويني محفوظة في مكتبة رضا رامبور مؤرخة بسنة (٩٧٩هـ/ ١٥٧١م) تزينها مجموعة من الصور الملونة التي تتفق من حيث أساليبها الفنية مع صور المخطوطة السابقة من كتاب قانون الدنيا وعجـائبهـا للشيخ أحمد المصرى، وهي تعد من روائع التـصـوير المصـرى في مـصـر إبان العـصـر العثماني.

٣ ـ نسخة مخطوطة من كتاب عيون الحقايق وإيضاح الطرايق محفوظة بدار الكتب المصرية في القاهرة تحت رقم سجل (١٦٨ غيبيات بالخزانة التيمورية) مؤرخة بسنة (١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م) تحتوى على مجموعة من الصور الملونة، تزينها رسوم



آدمية وحيوانية وطيور وحشرات ، فضلا عن رسوم الكائنات الخرافيـة، وتمتاز هذه الصور بخصائص فنية منها البساطة والاتقان، على الرغم من وضوح الطابع الشعبى فيها.

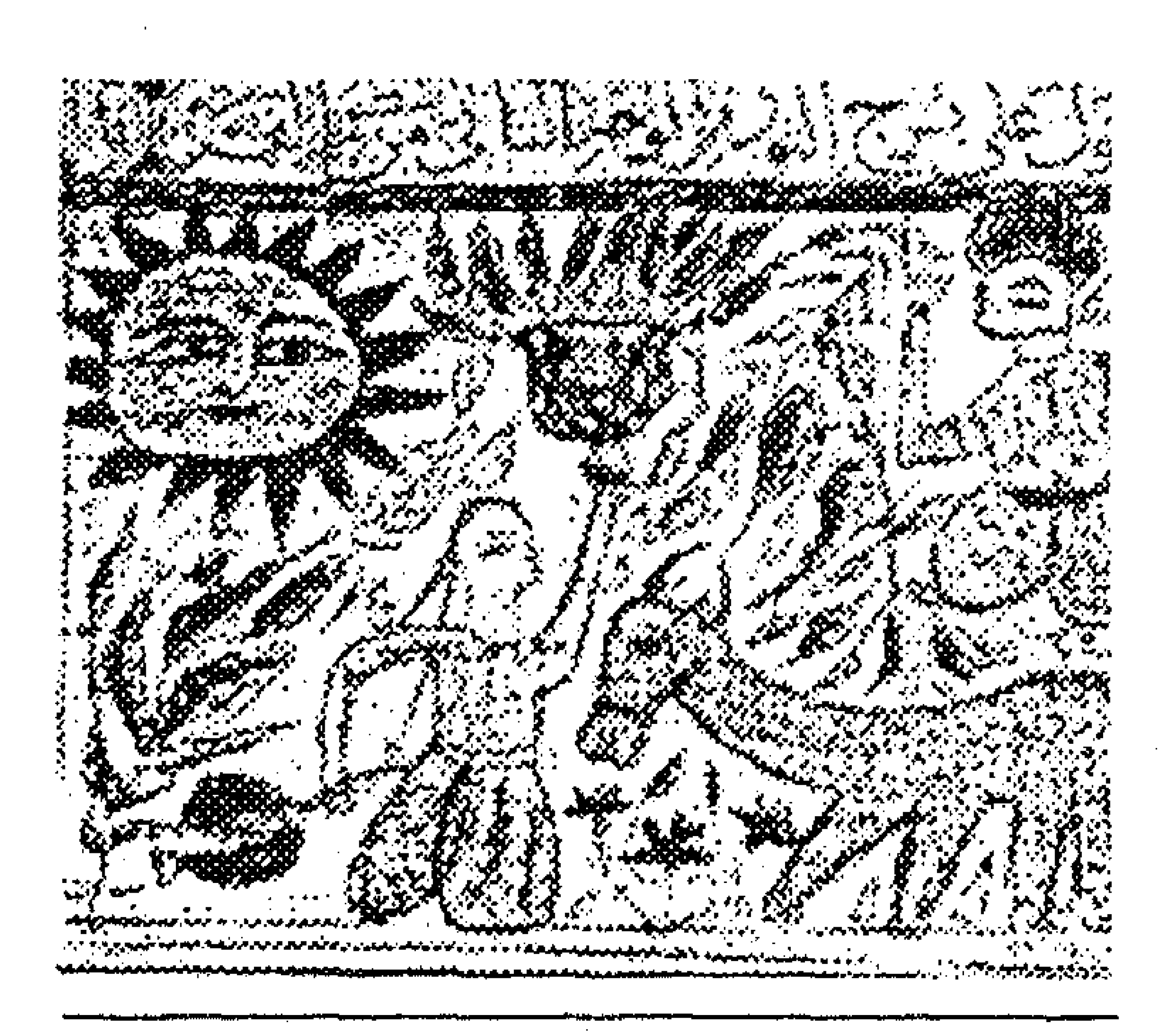
٤ ـ نسـخـة مـخطوطة من كـتـاب عـجـايب المخلوقات للقزويني محفوظة بالمكتبة الوطنية في ميونخ تحت رقم (مادة عرب ٤٦٣) تزينها مجموعة من الصور العلمية الملونة التي تعد مثالا نموذجيا لاستمرار الأساليب الفنية لمدرسة التصوير التي استمرت في مصر خلال الاحتلال العثماني، وبخاصة الميل الواضح نحو الفن الشعبي. وفي إحدى صور هذه المخطوطة تمثل برج الثور في الفلك حرص المصور على رسم الثور كأحد الأبراج الفلكية بأسلوب زخرفي، ذلك أنه اكتفى برسم الجزء الأمامي من الثور على عكس المعتاد من رسم الحيوان كاملا في كثير من صور البروج الفلكية الإسلامية الأخرى.

وانتشرت في المخطوطات العربية المنسوخة من كتاب «مجموعات النجوم وصور الكواكب الثابتة» لأبي الحسن بن عبد الرحمن بن عمر الصوفي. و(أقدم نسخة محفوظة في مكتبة طوبقا بوسراى في

استانبول تم نسخها في سنة (٥٢٦هـ/١١٣٠-١١٣١م) حوالي ست وأربعين صورة ملونة تشتمل على البروج والكواكب. وزيادة من المصور في إضفاء الطابع الزخرفي رسم الثور برأس كبير مشوه قليلا بعينين حزينتين تتطلعان إلى اللامحدود، وهي أقرب إلى عيون الإنسان. كما رسم هذا الرأس في وضع المواجهة باللون البني الداكن، في حين رسم الجسم صغير الحجم باللون البرتقالي متقنة التصميم.

٥ - نسخة مخطوطة عن التنجيم بدون عنوان وبدون تاريخ محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة.. ينسبها الدكتور سعد الخادم إلى مصر حوالي القرن (١١هـ/ ١٧م) في حين ينسبها الدكتور حسن باشا إلى فترة الاحتلال العثماني حوالي القرن (١٢هـ/١٨م) وتشتمل هذه المخطوطة على صور تمثل الابراج الفلكية وتنبؤاتها، وتتشابه من حيث موضوعاتها مع صور مخطوطة من كتاب في التنجيم لأبي معشر البلخي، تنسب إلى مصر، حواالي القرن (٧ هـ/ ١٣م). ويلاحظ في صور مخطوطة التنجيم الخاصة بفترة الاحتلال العثمانية أن أساليبها الفنية لا تخلو من طابع الجدة والبراعة في التناول المباشر للموضوع وفي صورة من هذه المخطوطة تمثل برج الثور من الوجه الثاني من نظر القمر تتجلى الخصائص الفنية المميزة للتصوير المصري في فترة الاحتلال العثماني، وذلك من حيث غلبة الطابع المصري في رسم الثور الذي لولا رسم القرنين لاعتقد المشاهد أنه يمثل حيوانا آخر غير الثور، وكذلك في رسم الأغصان والفروع النباتية التي تملأ الفراغات في الصورة.

وبمقارنة هذه الصورة بأخرى تمثل برج الثور في الفلك من مخطوطة عجائب المخلوقات



للقزويني، تعود إلى مصر حوالي القرن (١٢هـ/١٨م) - السالفة الذكر - يمكن ارجاع صور هذه المخطوطة إلى حوالي نهاية القرن (١٢هـ/١٨م) وبداية القرن (١٣هـ/١٩م).

وذلك لما يسود صورها من طابع شعبي وأسلوب توزيع العناصر على السطح، بدون أن يخفي الرسوم البسيطة للأشخاص والحيوانات. هذا فضلا عن البساطة والتسطيح في رسم المزهرية والقنينة التي تحملها المرأة في الصورة.

٦ - نسخة مخطوطة من كتاب الدر المنظم المسمى بالجفر الصغير لابن طلحة، محفوظة في دار الكتب المصرية في القاهرة بالخزانة التيمورية مؤرخة بسنة ١٢٧٧هـ = ١٨٦٠م، وتشتمل على مجموعة من الصور الملونة التي تضم رسوما ادمية كثيرة وتمتاز بإتقانها من حيث الرسم والتلوين ولكن يلاحظ أنها تدخل ضمن الفن الشعبي التلقائي. ومن ثم يمكن مقارنتها من حيث الأساليب الفنية مع صور مخطوطة التنجيم - حوالي نهاية القرن (١٢هـ/١٨م) وبداية القرن (١٣هـ/١٩م) - من حيث البساطة والتسطيح، والميل إلى طابع الفن التلقائي. ومن ثم فإن صور

مخطوطة الجفر الصغير لابن طلحة تعطينا فكرة واضحة عن استمرار فن التصوير المصرى فى ظل الاحتلال العثمانى واستمراره على هذا الاسلوب خلال النصف الثانى من القرن (١٣/١٩م) بعد أن أصبحت مصر تحت حكم أسرة محمد على باشا.

مما سبق يتضح لنا مدى انتعاش فن التصوير وتزويق المخطوطات خلال فترة الاحتلال العثمانى فى مصر منذ القرن (١٠هـ/ ١٦م)، يؤيد ذلك تلك الأمثلة من المخطوطات العلمية المزوقة بالصور الملونة. هذا فضلا عن المخطوطات المزينة بالرسوم من كتب الجغرافية والطب. وكذلك بعض الأحجبة والطلاسم السحرية التى عثر عليها فى الفسطاط ، وتشتمل على رسوم ذات طابع شعبى تلقائى.

إلى جانب هذه المخطوطات توجد عدة مخطوطات دينية مسيحية مصورة من نفس فترة الاحتلال العثمانى تؤكد على ازدهار نسخ وتزويق المخطوطات الدينية المسيحية فى مصر، وحسبنا فى ذلك ما سجله أبو صالح الأرمنى فى تاريخه بما يفيد أن بطريرك الأرمن فى عام (٥٦٨هـ/١١٧٢م) قد توجه من مصر إلى بيت المقدس وصحبته خمسة وسبعون كتابا من الكتب الإلهية، أحدها فيه الأناجيل الأربعة، مصور ومذهب بعجائب السيد المسيح. وتجدر الإشارة إلى أن اللغة العربية قد دخلت فى كتابة المخطوطات الدينية المسيحية فى مصر ، حيث وصلت إلينا مخطوطات كتبت نصوصها بنهرين: باللغة العربية، واللغة القبطية، ولعل أروع مثال منها نسخة مخطوطة من كتاب الرسايل وأعمال الرسل، نسخها غبريال الراهب فى سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) مزوقة بالصور الملونة.

وأخذت اللغة العربية فى الانتشار أكثر فأكثر حتى أصبحت بعض الكتب الدينية المسيحية فى مصر تكتب بها ومن أمثلة ذلك نسخة من مخطوطة من كتاب مختصر تفسير رويا يوحنا الإنجيلى، نسخها المعلم جرجس الحبار فى سنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م) ولقد وصلت إلينا من فترة الاحتلال العثمانى فى مصر مجموعة من المخطوطات المصرية التى نسخت وزوقت من كتب دينية مسيحية مثل البشائر الاربع ووثائق تقليد نظارة الأديرة، وغيرها الكثير والكثير، حتى أن معظم الأديرة والكنائس بمصر تحتفظ بمجموعات من المخطوطات المسيحية المزوقة بالصور الملونة ترجع الى هذا العصر.

ويمكن تناول بعض صور المخطوطا الدينية المسيحية اعتمادا على ترتيبها الزمنى حسبما ورد بها من تواريخ نسخها، أو تحويه من أساليب فنية:

١ ـ نسخة من كتاب دينى مسيحى محفوظة فى المتحف القبطى بالقاهرة، مؤرخة بسنة (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م) كتب متنها باللغتين العربية والقبطية، أى أن صفحات المخطوطة تنقسم كل منها إلى نهرين (قسمين) الأيمن يحتوى على النص باللغة العربية، والنهر (القسم) الأيسر يحتوى على نفس النص باللغة القبطية. وهذه المخطوطة محلاة بالتذهيب والتلوين، حيث يزخرف أعالى الصفحات صلبان تشتمل على رسوم الزخارف النباتية تتكون من أغصان وفروع مورقة متماوجة. ورسمت فى الهوامش الخارجية رسوم حيوانات وطيور بأسلوب محور، يلاحظ فيها الدقة والإتقان.

٢ ـ وثيقة على الورق بتقليد المعلم جرجس الجوهرى، نظارة دير الملاك القبلى، من قبل الأنبا يؤنس، محفوظة فى المتحف القبطى بالقاهرة، ومؤرخة بالسابع من شهر مسرى سنة (١٤٨٩) للشهداء يوافق سنة (١١٧٨هـ/١٧٧٣م) .. ويزين هذا التقليد صورة ميخايل بما فيها من طابع مسيحى ، يحيط به مسحة من الاحترام والوقار، بالإضافة إلى بعض الزخارف، قوامها صورة لصليبين ومحراب ووردة زخرفية.

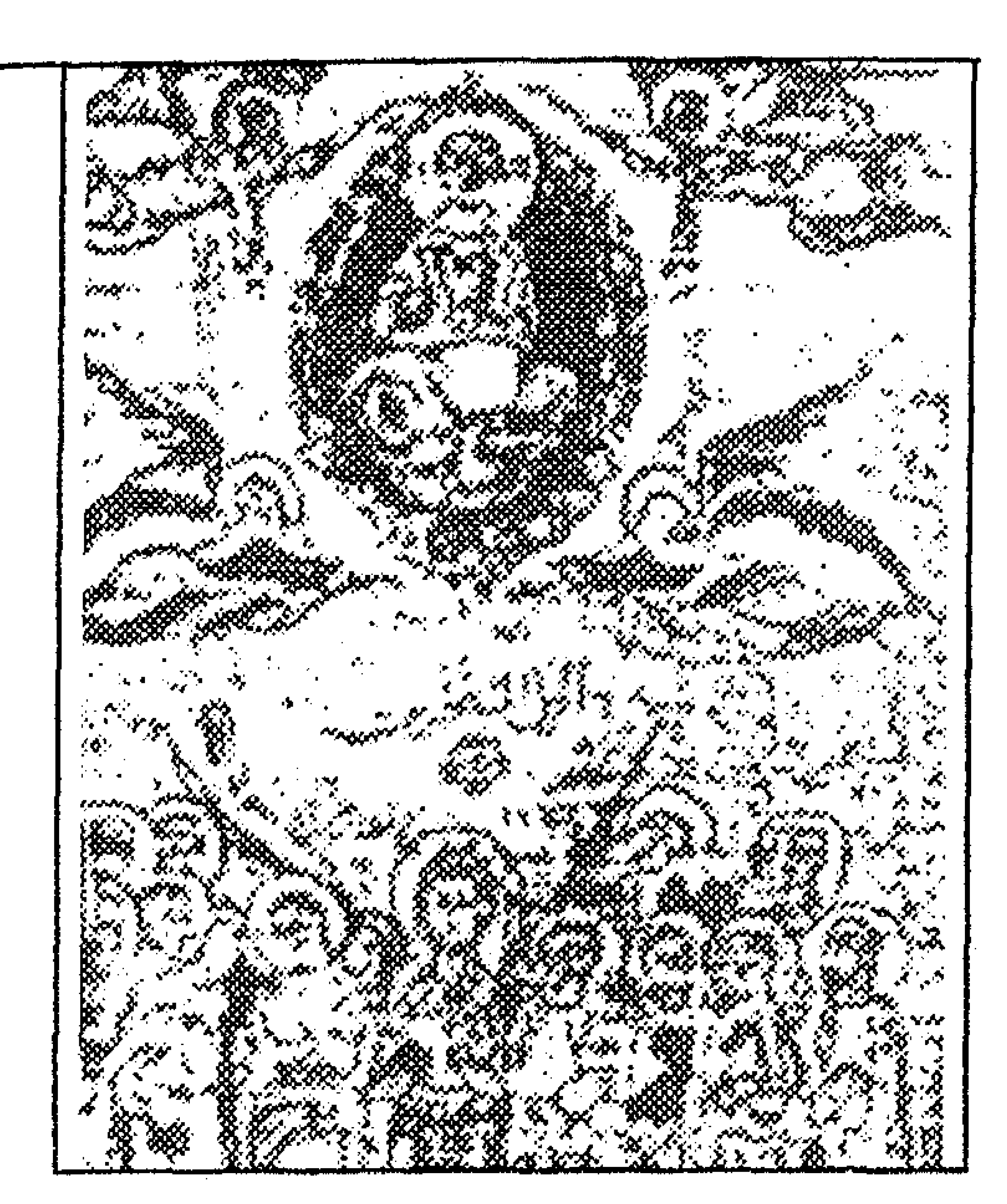
٣ ـ نسخة مخطوطة من كتاب مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى الذى يسمى الأبوكالسيس، أو أبو غالسيس يسوع المسيح وهى كلمة يونانية -Apok) (alupsis تعنى إزاحة الحجاب أو كشف أو إعلان يسوع المسيح. كان قد أوقفت وحبست على دير الست الطاهرة القديسة دميانة بترب الزعفرانة. تم نسخها على يد المعلم جرجس الحبار وشوهها أى: زوقها بالصور ابراهيم بن سمعان فى يوم الخامس والعشرين من شهر طوبة سنة (١٤٥٧) للشهداء، أى ما يوافق سنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م) وتحتوى هذه المخطوطة على ست عشرة صورة ملونة بالألوان الزاهية البراقة، تشرح بعض قصص الرؤيا الواردة بمتن المخطوطة، وما يتصل بها من رموز دينية.

ويلاحظ أن هذه الصور بوجه عام من حيث التكوين الفنى والتصميم العام تميل نحو الأسلوب الهندسى، ذلك أن المصور المصرى (ابراهيم بن سمعان) الذى قام برسم صورها اعتمد على الخطوط الرأسية أو الأفقية فى توزيع رسوم الأشخاص ، وبخاصة عند توزيعهم فى صفوف منتظمة، ومثال ذلك صورة تمثل رؤيا العرش



صورة تمثل الآباء الأربعة. مخطوطة الرسائل وأعمال الرسل.

السماوى فى وسطه الأربعة المخلوقات الحية، وحوله يجتمع أربعة وعشرون قسيسا، وصورة ثانية تمثل رؤيا خلاص الشيطان من محبسه وفكه لوثاقه وجمعه ليأجوج ومأجوج ليثير حربا، ولكن تنزل نار من السماء من عند الله فتأكلهم جميعا. ومن ثم نجح ابراهيم بن سمعان فى التعبير عن الأحاسيس الدينية بقوة وبساطة بدون تفاصيل كثيرة ومثال ذلك صورة تمثل رؤيا الشيطان يركب الفرس الأحمر وصورة تمثل رؤيا حبس الشيطان مقيدا بالسلاسل لمدة ألف سنة فى جب عميق.. ومن ثم نجده قد وفق إلى حد كبير فى الالتزام بالنص الوارد فى المخطوطة بشأن قصة الرؤيا التى تشرحها كل صورة ، ولعل مرد ذلك أنه يرسم صورا دينية ذات موضوعات تشرح بعض المسائل فى علم اللاهوت. وعلاوة على ذلك فإن صور هذه المخطوطة رسمت بحسب الأساليب الفنية للتصوير المصرى التلقائى



صورة تمثل صعود السيد المسيح إلى السماء. مخطوطة الرسائل وأعمال الرسل. متحف الفن القبطى بالقاهرة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)

في ذلك الوقت (القرن ١٢هـ/ ١٨م).

ويمكن إلقاء الضوء على بعض نماذج من صور هذه المخطوطة بالدراسة الوصفية والتحليلية، مع التركيز على إبراز الخصائص الفنية لمدرسة التصوير المصرية فى ظل الاحتلال العثمانى. والمثال الأول قوامه صورة تشرح رؤيا وصف المسيح على هيئة ابن إنسان يجلس على كرسى العرش فى وضع المواجهة بلحيته وشعر رأسه الأبيض ويرتدى قميصا أبيض اللون، ويتمنطق بمنطقة ذهب، ويخرج من فمه، ما يشبه السيف. ويحيط به سبع منائر ترمز إلى التعاليم السبعة المضيئة فى الكنايس. رسمت على هيئة شماعد مضئة اسطوانية الشكل. ونجد بأسفل الكرسى رسما لشخص سقط طريحا على الارض من هول المفاجأة، وربما يرمز به إلى يوحنا الإنجيلى، ويلاحظ الاهتمام برسم الوجه الآدمى.

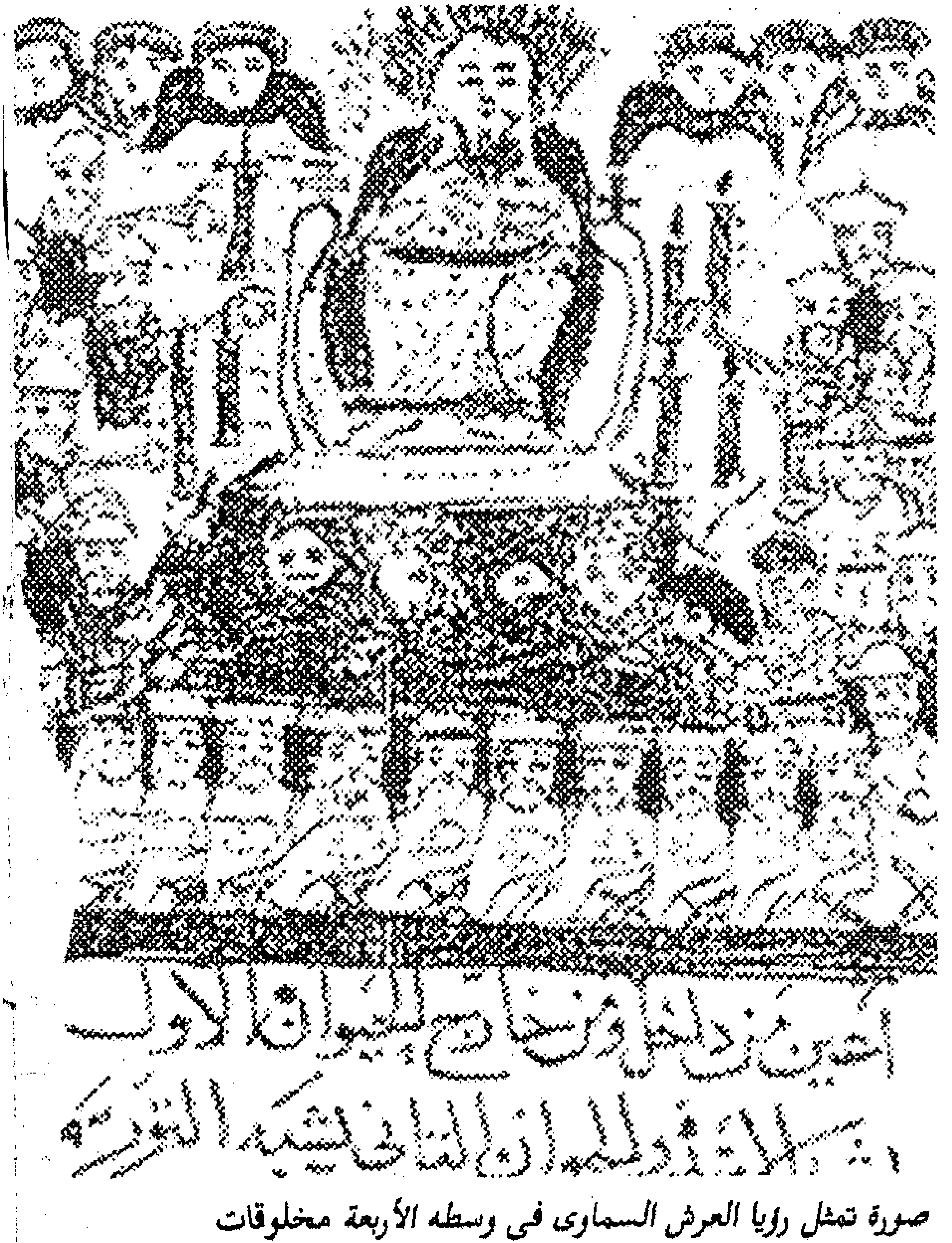


صورة تمثل رؤيا وصف المسيح على هيئةابن إنسان يجلس على كرسى العرش.مخطوط مختصر رويا يوحنا الانجيلى (الابوكالسيس) متحف الفن القبطى بالقاهرة (١١٥٣هـ/١٧٤١م)

وفى صورة أخرى تشرح رؤيا العرش السماوى فى وسطه رسم الأربعة المخلوقات الحية، وحوله يجتمع أربعة وعشرون قديساً نشاهد المسيح بلحيته الكثة ، وشعر رأسه الأبيض ، يجلس على كرسى من الذهب، فى وسطه رسمت أربعة مخلوقا هى: الأسد، والثور، والإنسان، والنسر الطائر.. ذلك أن الأسد حيوان مفترس، وشهرته تغنى عن وصف، وهو ذو طلعة مهيبة، وعرف منسول، وحواجب شعثاء، وأسنان لامعة ، وصورته تدل على الجرأة وعدم الخوف، يضرب به المثل فى الشجاعة، ويعبر

عن الهيبة الملكية التى للمسيح، ويرمز الثور إلى الصبر والقوة، ويظهر الثور والحمار معا فى صور المسيح وقد اتخذ الثور فى فجر المسيحية رمزا للمسيح الحقيقى، ويستعمل للدلالة على كل الذين يحملون النير بسكوت من أجل الآخرين. فى حين يرمز النسر أو العنقاء إلى القيامة، ومنشأ هذا الاعتقاد هو أن النسر يجدد ريشه فى وقت معين من السنة، كما يتجدد شبابه ويطير فى السماء تجاه الشمس، ثم يغطس فى الماء. ولقد نجح المصور فى توزيع رسومه بحسب المساحة التى أتيحت له مراعيا التوازن والتماثل فى صورته.

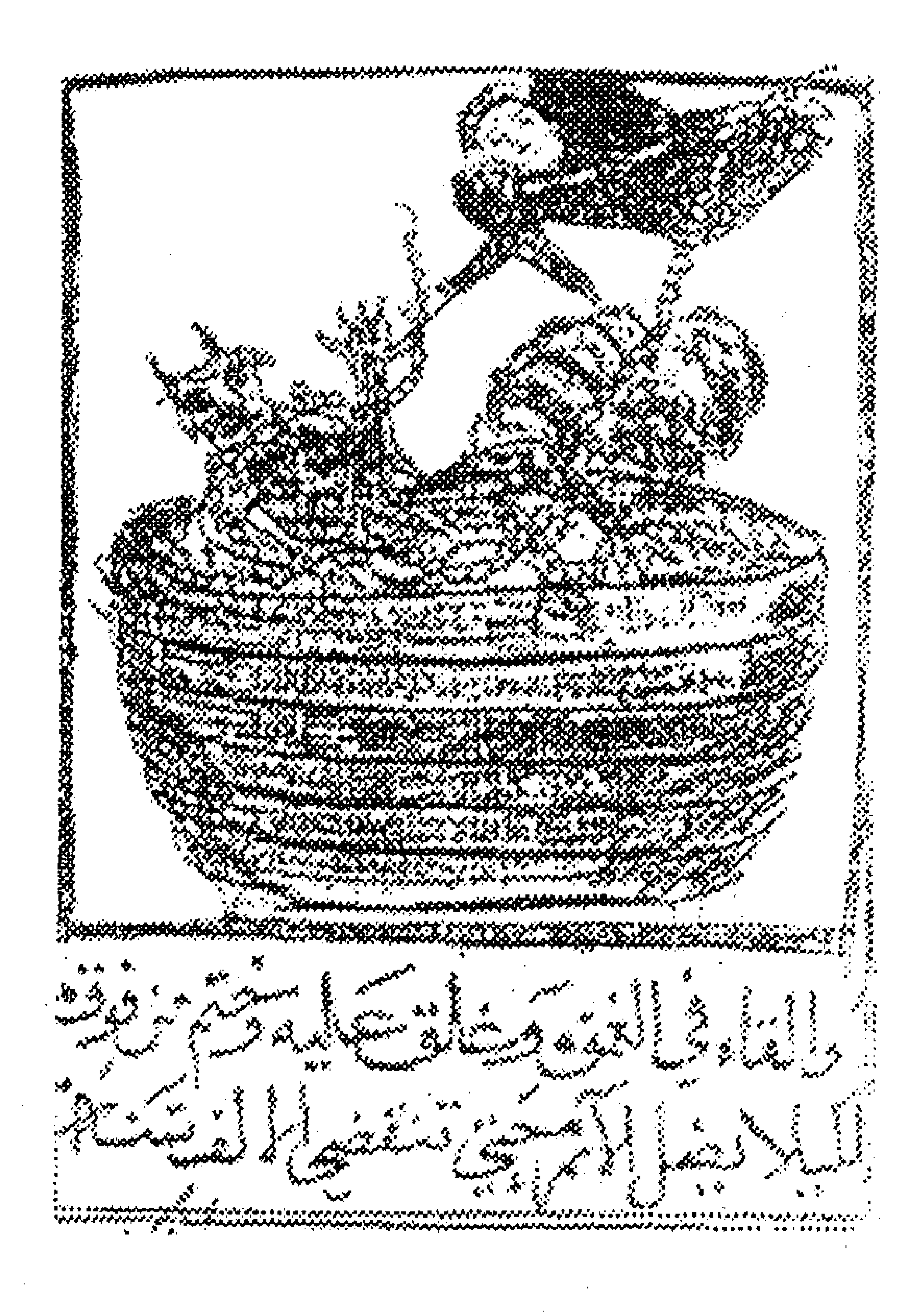
وفى صورة من نفس المخطوطة تشرح رؤيا الشيطان (الدجال) يركب الفرس الأحمر الذى أعطى له لكى ينزع السلامة من كل الارض. نشاهد كائنا خرافيا على هيئة مركبة تجمع بين شكل إنسان وطائر، رأسه ملتهب، ويلتف ثعبان حول وسطه، ويمسك بلجام الفرس الأحمر فى يده اليمن، ويمسك بسيف طويل بيده اليسرى، وتحيط النيران به من كل جانب. ويعد الفرس أو الحصان قديما رمزا للشمس، كما أن الثور يرمز الى القمر. ويرمز الحصان أيضا إلى الشهوة. من ثم فهو يرمز فى هذه الصورة إلى شهوة سفك دماء الشهداء وتتشابه مع هذه الصورة صورة أخرى من نفس المخطوطة تشرح رؤيا الجراد الذى وقع على الأرض وهو ذا وجوه آدمية وأجسام خيول مجنحة ذات أذناب طويلة تطير فى السماء لتهبط إلى الأرض المعمورة التى عبر عنها المصور ابراهيم بن سمعان عن طريق رسم خلفية معمارية لمجموعة من العمائر بأسفل الصورة، ذات أسطح جمالونية الشكل وطريق على ضفة نهر، رسمت مياهه باللون الازرق.



صورة تمثل رؤيا العرش السماوى فى وسطه الأربعة مخلوقات الحية. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس).

وتجدر الإشارة إلى أن الجراد فى هذه الصورة يرمز إلى الشر الذى وقع على اهل الأرض، كما ورد بمتن المخطوطة.

وفى صورة من المخطوطة ـ التى نحن بصددها ـ تشر ح رؤيا حبس الشيطان مقيدا بالسلاسل لمدة ألف سنة فى جب عميق نشاهد ملاكا مجنحا تحيط برأسه هالة مستديرة باللون الذهبى، وله جناحان يخرجان من الكتفين باللون الأخضر، ويرتدى جلبابا أحمر اللون، وهو يمسك بسلاسل أوثق بها الشيطان وألقاه فى إناء واسع، داخله مظلم



صورة تمثل رؤيا حبس الشيطان مقيدا بالسلاسل لمدة ألف عام فى جب عميق. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس).

وخارجه رسم باللون الأزرق، فى حين يحاول الشيطان جاهدا الدفاع عن نفسه، ولكنه هوى فى الجب ومعه بعض الدخان الاسود اللون. وتجدر الإشارة إلى أن الأجنحة ترمز إلى الرسالة الإلهية، ولهذا السبب رسمت الملائكة ورؤساء الملائكة بأجنحة فى حين يوصف كل شيء زائل بالدخان، لأنه يرتفع فى الهواء ويختفى، كما يرمز به إلى تفاهة الحياة فى هذه الدنيا وعدم جدوى السعى وراء المجد الزائل الباطل فى الأرض.

ومن حيث رسم الملائكة المجنحة، فقد قطعت هذه الرسوم شوطا كبيرا من حيث الدقة والإتقان امتزجت فيها العديد من الأساليب الفنية المختلفة:

ولقد ظهر الملاك المجنح فى الفن القبطى متأثرا إلى حد كبير بالفن المصرى الفرعونى، مثال ذلك قطعة من النسيج محفوظة بالمتحف المصرى القبطى بالقاهرة تعود إلى حوالى القرن الخامس الميلادى، وتحتوى على رسم لملاك مجنح فى حركة طيران ومثال آخر عبارة عن نقش على الحجر بالحفر الغائر يعود إلى حوالى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، يمثل ملاكين مجنحين يحملان إكليل النصر. وأما فى الفن الإسلامى فلقد انتشر رسم الملاك المجنح، ونذكر من أمثلته على التحف التطبيقية المتنوعة ذلك الرسم المنقوش على الرخام من عصر السلاجقة، ويعود إلى حوالى القرن (٦هـ/١٢م) يمثل ملاكا مجنحا.

وآخر مثال من مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الانجيلى صورة تشرح رؤيا كنيسة جديدة، وهى الكنيسة المقدسة، المملوءة سلاما بعد الخلاص من الشيطان وأعوانه ونشاهد فى الصورة رسما لكنيسة عبارة عن قبة مركزية كبيرة دائرية الشكل، ذات ألوان متعددة، مثل الأخضر والأحمر والبنفسجى، تنتهى من أعلى بقبة عبارة عن صليب رسم باللون الذهبى.

وعلى جانبى القبة المركزية الكبيرة توجد قباب صغيرة رسمت بنفس أسلوب القبة المركزية، ويتقدم الكنيسة بائكة من ثمانية عقود نصف دائرية، يتدلى من كل عقد ما يشبه المشكاة للإضاءة والإنارة، ولعل هذه العقود تمثل أبواب الكنيسة الكبيرة.. على كل باب لؤلؤة كثيرة الثمن من أجلها تبيع كل شيء لتقتنيها. وبأسفل الكنيسة نهر

مياهه زرقاء اللون، وعلى ضفتى النهر توجد رسوم شجيرات باللون الأخضر، ذات زهور حمراء اللون.

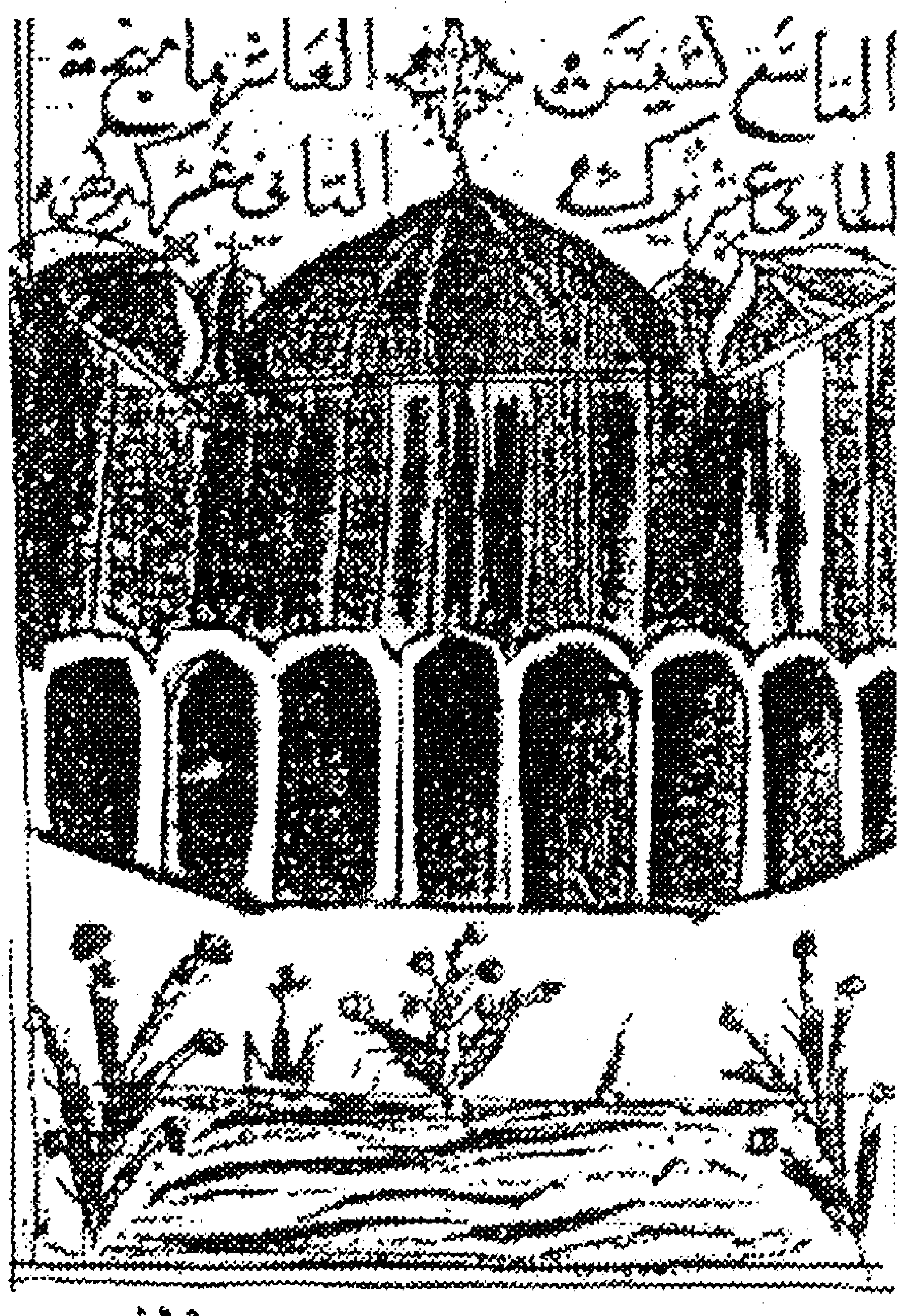
ولقد حرص المصور ابراهيم بن سمعان فى رسم الكنيسة على مراعاة المنظور بعض الشيء، فرسم الوحدات المعمارية لهذه الكنيسة فى صفوف تتراجع صوب عمق الصورة إلى حد كبير . هذا بالإضافة إلى حد كبير على رسم قبة مركزية كبيرة فى وسط الرسم، وعلى جانبيها قباب صغيرة.

وجدير بالذكر أن رسم هذه الكنيسة فى الصورة التى نحن بصددها انعكس على رسوم الأماكن المقدسة الإسلامية ، وبخاصة المسجد الحرام ، والمسجد النبوى الشريف، التى انتشرت رسومها على البلاطات الخزفية فى ظل الاحتلال العثمانى،

ومثال ذلك بلاطة من الخزف العثمانى فى مصر عليها صورة الكعبة المشرفة، وتحمل توقيع الخزاف أحمد فى سنة (١٠٧٤هـ/١٦٦٣م) محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة وكذلك يحتوى سبيل عبد الرحمن كتخدا بشارع المعز لدين الله بالقاهرة على بلاطات من القاشانى تغطى جدران حجرة السبيل، من بينها رسم صورة الكعبة المشرفة على هيئة رسم ابراهيم ابن سمعان. ولقد شيد هذا السبيل الأمير عبد الرحمن كتخدا بن حسن جاويش سنة (١١٥٧هـ/١٧٤٤م).

الخصائص الفنية

امتاز فن التصوير فى مصر فى ظل الاحتلال العثمانى بخصائص فنية أمكن تتبعها واستخلاصها من خلال دراسة الأمثلة من صور المخطوطات



صورة تمثل رؤيا كنيسة جديدة هى الكنيسة المقدسة المملوءة سلاماً بعد الخلاص من الشيطان وأعوانه. مخطوطة «مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطى بالقاهرة (١١٥٣هـ / ١٧٤١م).

العلمية والدينية المسيحية التى نسخت وزوقت فى مصر فى هذا العصر ، ولعل من أهم هذه الخصائص الفنية مايلى:

١ ـ الطابع المحلى المصرى، الذى يتجلى فى إظهار السحنة المصرية فى رسوم الأشخاص ذوى العيون الواسعة، أو اللوزية الشكل، التى يختص بها

سكان مصر وبخاصة فى صور مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الانجيلى (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م) .
ويتجلى هذا الطابع المحلى المصرى أيضا فى الميل إلى الروح الشعبية فى رسوم المخطوطات، والتى تمثلت فى التناول المباشر لموضوع الصورة، والاقتصار على الأساسيات دون الإغراق فى التفاصيل، وتوزيع العناصر على سطح الصورة، وملء الفراغات بلفائف زخرفية نباتية، وبخاصة فى صور المخطوطات العلمية السابق دراستها، مثل مخطوطة قانون الدنيا وعجائبها (٩٧٠هـ/١٥٦٣م). ومخطوطة عجائب المخلوقات للقزوينى (٩٧٩هـ/١٥٧١م). وأخرى من نفس الكتاب ترجع إلى حوالى القرن (١٢هـ/١٨م) ، ومخطوطة من كتاب فى التنجيم بدون عنوان ترجع الى حوالى نهاية القرن (١٢هـ/١٨م) وبداية القرن (١٣هـ/١٩م)

٢ ـ ظهور الأساليب الفنية التى تعتمد الاسلوب الهندسى و الخطوط الرأسية أو الأفقية فى توزيع رسوم الأشخاص فى صفوف منتظمة وكذلك فى اهمال التفاصيل غير الأساسية ، والتركيز على موضوع الصورة، وتلك القوة التلقائية التصميم.

٣ ـ ظهور الأساليب الفنية التى تعتمد على رسم الأغصان والفروع النباتية ذات الأوراق والزهور بأسلوب قريب من الطبيعة إلى حد كبير. وكذلك فى رسوم الكائنات الخرافية المركبة مثل الشياطين برسومها القاسية المرعبة ورسم البراق وأبى الهول وهو عبارة عن وجه آدمى وجسم حيوان مجنح قد يكون فرسا أو أسدا.

٤ ـ جاءت الألوان التى استخدمها المصور فى تنفيذ رسوم المخطوطات فى مصر فى ظل الاحتلال العثمانى براقة وزاهية، تبرهن على الطابع الزخرفى



صورة تمثل رؤيا الجراد الذى وقع على الأرض وهو كشبه الخيل تركض فى القتال. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالسيس) متحف الفن القبطى بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م).

الذى يسود صور هذه المخطوطات ، وعلى مهارة المصور الفنية فى تنسيقها بتقابل وتضاد، إلى جانب بعض الدرجات من اللون الواحد، نفذها بأسلوب رائع.

ولعل من أهم الألوان التى انتشر استخدامها هو اللون الأحمر ، والأصفر والأخضر والبنى، فضلا عن الأبيض، والأسود ، والبرتقالى ، والذهبى الذى استخدم بكثرة فى رسوم صور مخطوطة تفسير



بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد

نبتدي بعون الله وحسن توفيقه

بتفسير رويا يوحنا الانجيلي الذي

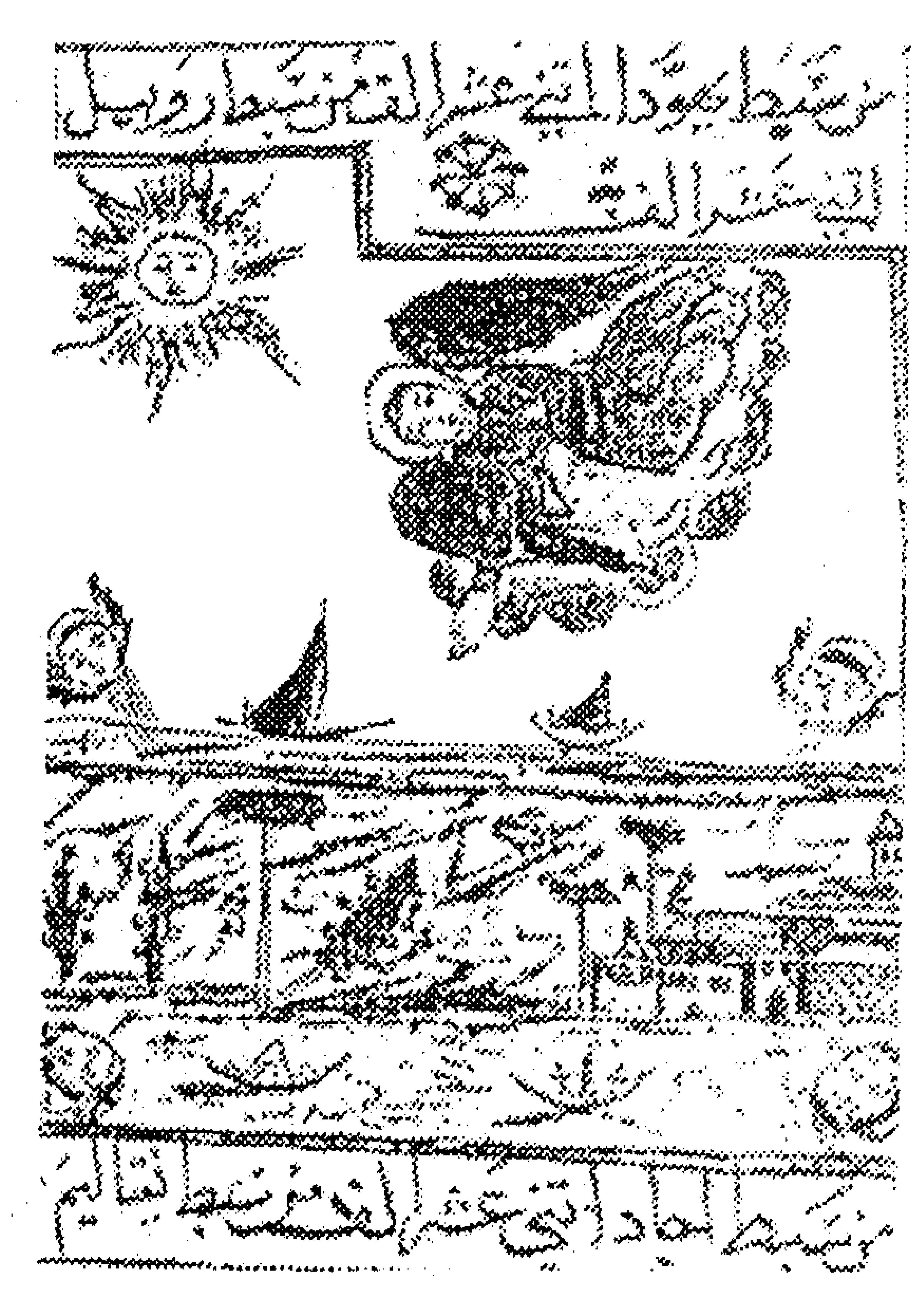
يسمي الابوكالبسيس

ابتدا اعلان يسوع المسيح الذي اعطاه الله

صورة توضح صفحة العنوان. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلي (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطي بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م).

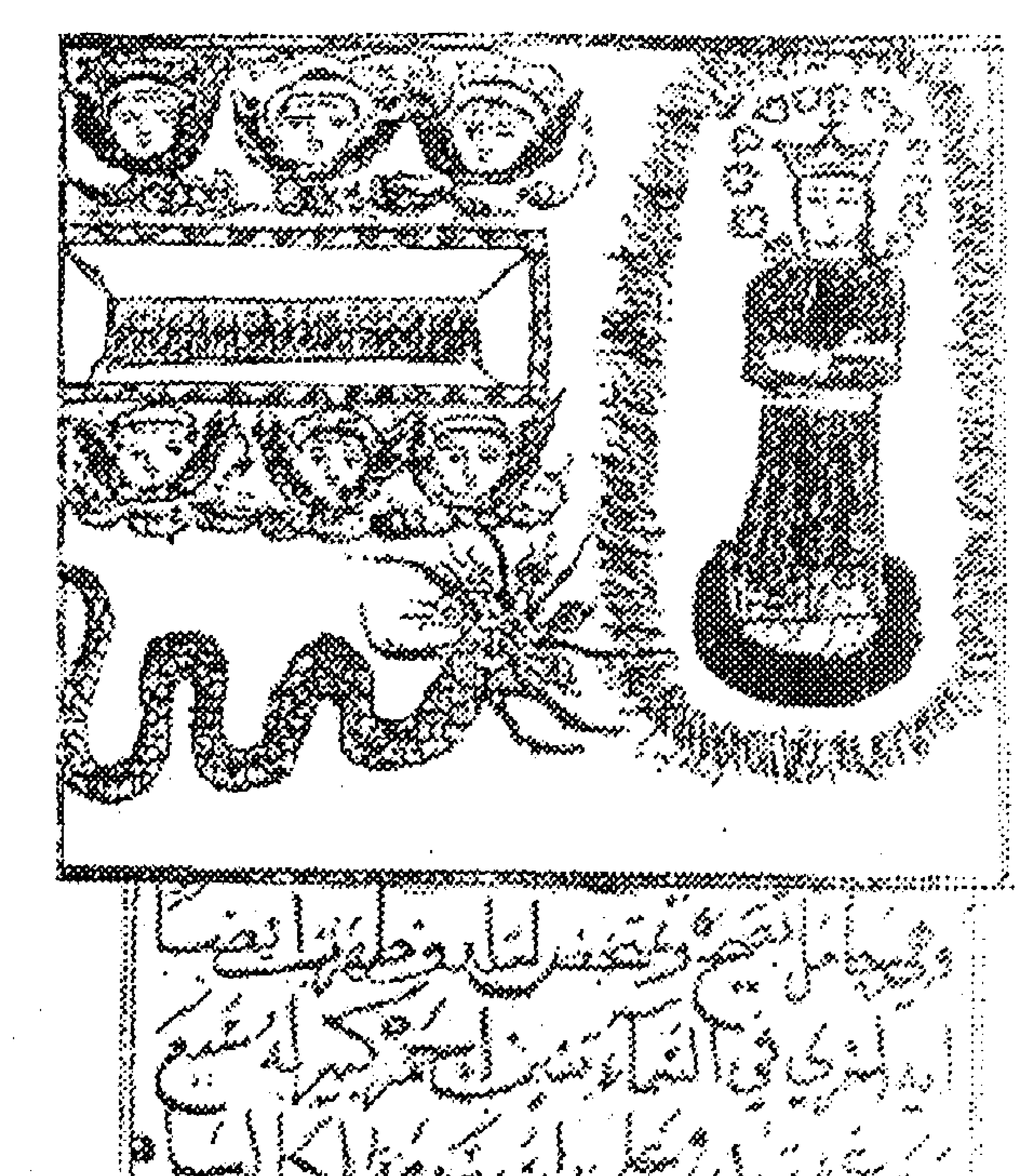
صورة تمثل منظرا طبيعيا من ثلاث شجيرات. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطي بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م).

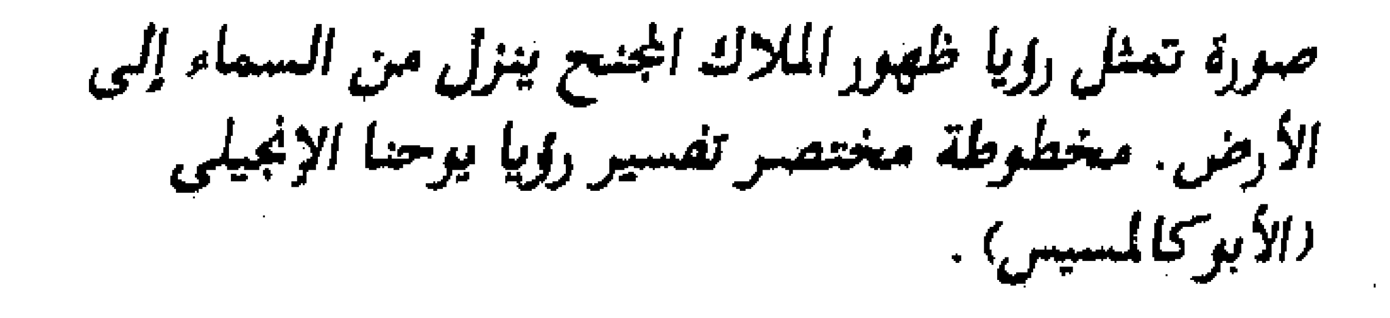
مختصر رؤيا يوحنا الإنجيلي (١١٥٣هـ/١٧٤١م).



صورة تمثل رؤيا المرأة المتسربلة بالشمس وهى حامل وقد أخذت تصيح وتمتخض لتلد مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطى بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م)

صورة تمثل رؤيا الشيطان (الدجال) يركب الفرس الأحمر لينزع السلامة من على كل الأرض. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطى بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م).





صورة تمثل رؤيا ظهور الملاك المجنح ينزل من السماء إلى الأرض. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلي (الأبوكالمسيس).



صورة توضح فاتحة مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلي (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطي بالقاهرة (١١٥٣هـ / ١٧٤١م).

سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ١٧٦٨م

١١٨٢هـ.
١٤٨٤ ق.
١٧٦٨ م.

غاية الفيضان١ قيراط ٢٤ ذراع

□ كان طرد الجزويت من نابولى ومالطة وبارمه

□ ١ توت ١٤٨٥ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٦٨ = الجمعة ٢٦ ربيع الثانى ١١٨٢.

□ عزل العسكر محمد راقم باشا، بعد أن حكم مصر سنة وحدة، وتولى بعده محمد باشا الأورفلى.

□ ١ يناير ١٧٦٩ = ٢٥ كيهك ١٤٨٥ = الأحد ٢٢ شعبان سنة ١١٨٢.

□ طلب الباب العالى من مصر ١٢ ألف نفر لمحاربة الروسيا، فاوقعت المماليك والباشا الفتن فى حق على بك، فورد فرمان شاهانى بقتله وارسال رأسه إلى الآستانة لكنه لم يفد حيث علم بذلك على بك وتربص لحامل الفرمان ورفقائه الأربعة وقتلوا بامره،وأعلن استقلال مصر، وكتب إلى الشيخ ضاهر أمير عكا بذلك.

(استهل شهر المحرم بيوم الأربعاء) فى ثانيه سافرت التجريدة المعينة إلى بحرى بسبب الأمراء المتقدم ذكرهم وهم حسين بك وخليل بك ومن معهم، وقد بذل جهده على بك حتى شهل أمرها ولوازمها فى أسرع وقت، وسافرت (ص ٧٣٥) فى يوم الخميس وأميرها وسر عسكرها محمد بك أبوالدهب، فلما وصلوا إلى ناحية دجوة وجدوهم عدوا إلى منية الخضر فعدوا خلفهم فوجدوهم ذهبوا إلى طندتا وكرنكوابها، فتبعوهم إلى هناك وأحاطوا بالبلدة من كل جهة ووقع الحرب بينهم فى منتصف شهر المحرم، فلم يزل الحرب قايما بين الفريقين حتى فرغ ماعندهم من الجبخانة والبارود، فعند ذلك أرسلوا إلى محمد بك وطلبوا منه الأمان فأعطاهم الأمان وارتفع الحرب من بين الفريقين، وكاتبهم محمد بك وخادعهم والتزم لهم بإجراء الصلح بينهم وبين مخدومه على بك فانخدعوا له وصدقوه وانحلت عزايمهم واختلفت آراؤهم وسكن الحال تلك الليلة، ثم إن محمد بك أرسل فى ثانى يوم إلى حسين بك يستدعيه ليعمل معه مشورة، فحضر عنده بمفرده وصحبته خليل بك السكران تابعه فقط، فلما وصلوا إلى مجلسه ودخلوا إليه فلم يجدوه، فعندما استقربهما الجلوس دخل عليهما جماعة وقتلوهما، وحضر فى إثرهما حسن بك شبكة ولم يعلم ماجرى لسيده، فلما قرب من المكان أحس قلبه بالشر، فأراد الرجوع فعاقه رجل سايس يسمى مرزوق وضربه بنبوت

فوقع إلى الأرض، فلحقه بعض الجند واحتز رأسه، فلما علم بذلك خليل بك الكبير ومن معه ذهبوا إلى ضريح سيدى أحمد البدوى والتجأوا إلى قبره، واشتد بهم الخوف وعلموا أنهم لاحقون بإخوانهم، فلما فعلوا ذلك لم يقتلوهم،وأرسل محمد بك يستشير سيده فى أمر خليل بك ومن معه، فأمر بنفيه إلى ثغر سكندرية وخنقوه بعد ذلك (ص٧٣٦) بها، ورجع محمد بك وصالح بك والتجريدة ودخلوا المدينة من باب النصرفى موكب عظيم وأمامهم الروس محمولة فى صوانٍ من فضةوالخدم يقولون «صلوا على محمد» وصالح بك ظاهر بوجهه الانقباض والتعبيس، وعدتها ستة روس وهى رأس حسين بك وخليل بك السكران وحسن بك شبكة وحمزة بك وإسماعيل بك أبى مدفع وسليمان أغا الوالى وذلك يومالجمعة سابع عشر المحرم.

* عودة محمد بك ابو الدهب بروس ستة من الأمراء المنافسين لسيده على بك الكبير.

(وفى يوم الثلاثاء رابع عشر صفر) حضرنجاب الحج وأطمأن الناس، وفى ويوم الجمعة سابع عشره وصل الحجاج بالسلامة ودخلوا المدينة وأمير الحاج خليل بك بلفيه، وسر الناس بسلامة الحجاج وكانوا يظنون تعبهم بسبب هذه الحركات والوقايع

(وفى ثامن عشر صفر) أخرج على بك جملة من الأمراء من مصر ونفى بعضهم إلى الصعيد وبعضهم إلى الحجاز وأرسل البعض إلى الفيوم، وفيهم محمد كتخدا تابع عبد الله كتخدا وقرا حسن كتخدا وعبدا لله كتخدا تابع مصطفى باش اختيار مستحفظان وسليمان جاويش ومحمد كتخدا الجردلى وحسن أفندى الباقرجى وبعض أوده باشية وعلى جربجى وعلى أفندى الشريف جمليان. (وفيه) صرف على بك مواجب الجامكية. (وفيه) أرسل على بك وقبض

على أولاد سعد الخادم بضريح سيدى أحمد البدوى وصادرهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة لايقدر قدرها، وأخرجهم من البلدة ومنعهم من سكناها ومن خدمة المقام الأحمدى وأرسل الحاج حسن عبد المعطى وقيده بالسدنة عوضاً عن المذكورين، وشرع فى بناء الجامع والقبة والسبيل (ص٧٣٧) والقيسارية العظيمة وأبطل منها مظالم أولاد الخادم والهمل والنشالين والحرمية والعيارين وضمان البغايا والخواطى وغير ذلك.

* على بك يصادر أموال اولاد سعد الخادم بضريح السيد البدوى. ويعمرّ المسجد ويجدده.

وفى تاسع شهر ربيع الأول حضر قابجى من الديار الرومية بمرسوم وقفطان وسيف لعلى بك من الدولة

١١٦

(وفيه) وصلت الأخبار بموت خليل بك الكبير بثغر سكندرية مخنوقا (وفى يوم السبت ثانى عشره) نزل الباشا* إلى بيت على بك باستدعا فتغدّى عنده وقدم له تقادم وهدايا

* باشا مصرفى هذا الوقت هو محمد باشا الاورفلى.

(وفى يوم الأحد ثانى عشر ربيع الآخر) اجتمع الأمراء بمنزل على بك على العادة وفيهم صالح بك وقد كان على بك بيّت مع أتباعه على قتل صالح بك، فلما انقضى المجلس وركب صالح بك ركب معه محمد بك وأيوب بك ورضوان بك وأحمد بك بشناق المعروف بالجزار وحسن بك الجداوى وعلى بك الطنطاوى، وأحدق الجميع بصالح بك ومن خلفهم الجند والمماليك والطوايف، فلما وصلوا إلى مضيق الطريق عند المفارق بسويقة عصفور تأخر محمد بك ومن معه عن صالح بك قليلا، وأحدث له محمد بك حماقة مع سايسه وسحب سيفه من غمده سريعًا وضرب صالح بك وسحب الآخرون سيوفهم ماعدا أحمد بك بشناق وكملوا قتله ووقع طريحًا على الأرض، ورمح

* مؤامرة اغتيال صالح بك على يد محمد بك ابو الدهب ورفض أحمد الجزار الاشتراك فى المؤامرة.

* سويقة عصفور: جنوب باب زويلة.

الجماعة الضاربون وطوايفهم إلى القلعة، وعندما رأوا مماليك صالح بك وأتباعه مانزل بسيدهم خرجوا على وجوههم، ولما استقر الجماعة القاتلون بالقلعة وجلسوا مع بعضهم يتحدثون عاتبوا أحمد بك بشناق* فى عدم ضربه معهم صالح بك وقالوا له «لماذا لم تجرد سيفك وتضرب مثلنا؟» قال «بل ضربت معكم» (ص٧٣٨) فكذبوه فقال له بعضهم «أرنا سيفك» فامتنع وقال «إن سيفى لايخرج من غمده لأجل الفرجة» ثم سكتوا وأخذ فى نفسه منهم وعلم أنهم سيخبرون سيدهم بذلك فلا يأمن غايلته وذلك أن أحمد بك هذا لم يكن مملوك لعلى بك وإنما كان أصله من بلاد بشناق حضر إلى مصر فى جملة أتباع على باشا الحكيم عندما كان واليا على مصر فى سنة تسع وستين وماية وألف، فأقام فى خدمته إلى سنة إحدى وسبعين وماية وألف، وتلبس صالح بك بإمارة الحج فى ذلك التاريخ فاستأذن أحمد بك المذكور على باشا فى الحج وأذن له فى الحج فحج مع صالح بك وأكرمه وأحبه وألبسه زى المصريين ورجع صحبته، وتنقلت به الأحوال وخدم عند عبد الله بك على، ثم خدم عند على بك فأعجبه شجاعته وفروسيته فرقاه فى المناصب حتى قلده الصنجقية وصار من الأمراء المعدودين فلم يزل يراعى منه صالح بك السابقة عليه، فلما عزم على بك على خيانة صالح بك السابقة وغدره خصصه بالذكر وأوصاه أن يكون أول ضارب فيه لما علمه فيه من العصبة له، فقيل له إن أحمد بك أسر ذلك إلى صالح بك وحذره غدر على بك إياه فلم يصدقه لما بينهما من العهود والأيمان والمواثيق، ولم يحصل منه مايوجب ذلك ولم يعارضه فى شى ولم ينكر عليه فعلا،

* قصة أحمد الجزار منذ دخوله مصر مع على باشا الحكيم سنة ١١٦٩ = ١٧٥٥م وهروبه عام ١١٨٢ = ١٧٦٨م إلى الشام.

تمثل حياة أحمد باشا الجزار سلسلة من المؤامرات والدسائس التى كانت تبرز السمة الاساسية للحياة السياسية فى السلطنة العثمانية. ولقد كان نبوغ الجزار فى تنظيم المؤامرات وتدبير الدسائس عائدًا فى الاساس إلى طبيعة هذه السلطنة التى كانت تعتنق منذ بداياتها، على يد سلاطينها الأول، مقولة : إن القوة هى الوسيلة الوحيدة لبسط نفوذها، وما لايؤخذ بالقوة يؤخذ بالخديعة والتآمر والغدر والرشوة، بل وبالتمسح فى الدين. وماكان من الممكن لمثل هذه المبادئ إلا أن تفرز زعامات تجعل الحياة السياسية للسلطنة ميدانًا لها وملعبا تزهق فيه كل المبادئ الشريفة، دينية كانت أو أخلاقية، لحساب اطماعها،وتُعلى من شأن عديمى الذمة والأفاقين وفاقدى الضمائر ومحبى سفك الدماء ومبتزى الأموال والثروات، فكانت خدمات مثل الأغتيال ودسّ السم، وحرق القرى بفلاحيها، والإيقاع بين القوى بالفتن الدينية والعصبية، ترتفع بكل من يتقنها إلى زمرة الطبقة الحاكمة والمستفيدين منها.

ولقد كان الجزار من هذا الصنف من الزعامات ـ بمعناها الشرقى ـ التى افرزتها السلطنة العثمانية لتخدم بهم مصالحها وأهدافها المحدودة، وان كان سقوطها النهائى تم بسبب هذه الزعامات منذ جان برد الغزالى وخاير بك، إلى على بك الكبير والجزار وانتهاءً بمحمد على.

فلما اختلى صالح بك بعلى بك أشار إليه بما بلغه فحلف له على بك بأن ذلك نفاق من الخبر ولم يعلم من هو، فلما حصل ماحصل ورأى [الجزار] مراقبة الجماعة له ومناقشتهم له عند استقرارهم بالقلعة تخيل وداخله الوهم وتحقق فى ظنه تجسم القضية، فلما نزلوا من القلعة وانصرفوا إلى منازلهم تفكر تلك الليلة وخرج من مصر وذهب إلى الإسكندرية وأوصى حريمه بكتمان أمره ماأمكنهم حتى يتباعد عن مصر،فلما تأخر حضوره بمنزل على بك وركو به سألوا عنه (ص٧٣٩) فقيل له إنه متوعك، فحضر إليه فى ثانى يوم محمد بك ليعوده وطلب الدخول إليه فلم يمكنهم منعه، فدخل إلى محل مبيته فلم يجده فى فرشه، فسأل عنه حريمه فقالو: «لانعلم له محلا ولم يأذن لأحد بالدخول عليه». وفتشوا عليه فلم يجدوه، وأرسل على بك عبد الرحمن أغا وأمره بالتفتيش عليه وقتله، فأحاط بالبيت وهو بيت شكربره وفتش عليه فى البيت و الخطة فلم يجده، و هو قد كان هرب ليلة الواقعة فى صورة جزايرلى مغربى وقصقص لحيته وسعى بمفرده إلى شلقان، وسافر إلى بحرى ووصل السعاة بخبره لعلى بك بأنه بالأسكندرية فأرسل بالقبض عليه فوجدوه نزل بالقبطانة واحتمى بها وكان من أمره ماكان بعد ذلك كما يأتى، وهو أحمد باشا الجزار الشهير الذكر الذى تملك عكا وتولى الشام وإمارة الحج الشامى وطار صيته فى الممالك.

(وفيه) عين على بك تجريدة علىَ سويلم بن حبيب وعرب الجزيرة ، فنزل محمد بك بتجريدة إلى عرب الجزيرة، وأيوب بك إلى سويلم، فلما ذهب أيوب بك إلى دجوة فلم يجد بها أحداً، وكان سويلم بايتاً فى سندنهور وباقى الحبايبة

* عرب الجزيرة: المقصود هنا عرب الجزيرة العربية.

* دجوه: من قرى القليوبية الآن.

* سندنهور : عرفت قديمً باسم «هاساحورع» من قرى الشرقية تابعة لمركز بلبيس.

متفرقين في البلاد، فلما وصله الخبر ركب من سندنهور وهرب بمن معه إلى البُحيرة والتجأ إلى الهنادى* ونهبوا دوايره ومواشيه، وحضروا بالمنهوبات إلى مصر، واحتج عليه بسبب واقعة حسين بك وخليل بك لما أتيا إلى دجوة بعد واقعة الديرس والجراح وقدم لهم التقادم وساعدهم بالكلف والذبايح ونحو ذلك، والغرض الباطني اجتهاده في إزالة أصحاب المظاهر كاينًا ما كان.

وفي ويوم الاثنين تاسع عشره: أمر على بك بإخراج على كتخدا الخربُطلى منفيًا، وكذلك يوسف كتخدا مملوكه ونفى حسن أفندى درب الشمسى (ص٧٤٠) وإخوته إلى السويس ليذهبوا إلى الحجاز، وسليمان كتخدا الجلفى وعثمان كتخدا عزبان المنفوخ، وكان خليل بك السيوطى بالشرقية فلما سمع بقتل صالح بك هرب إلى غزة.

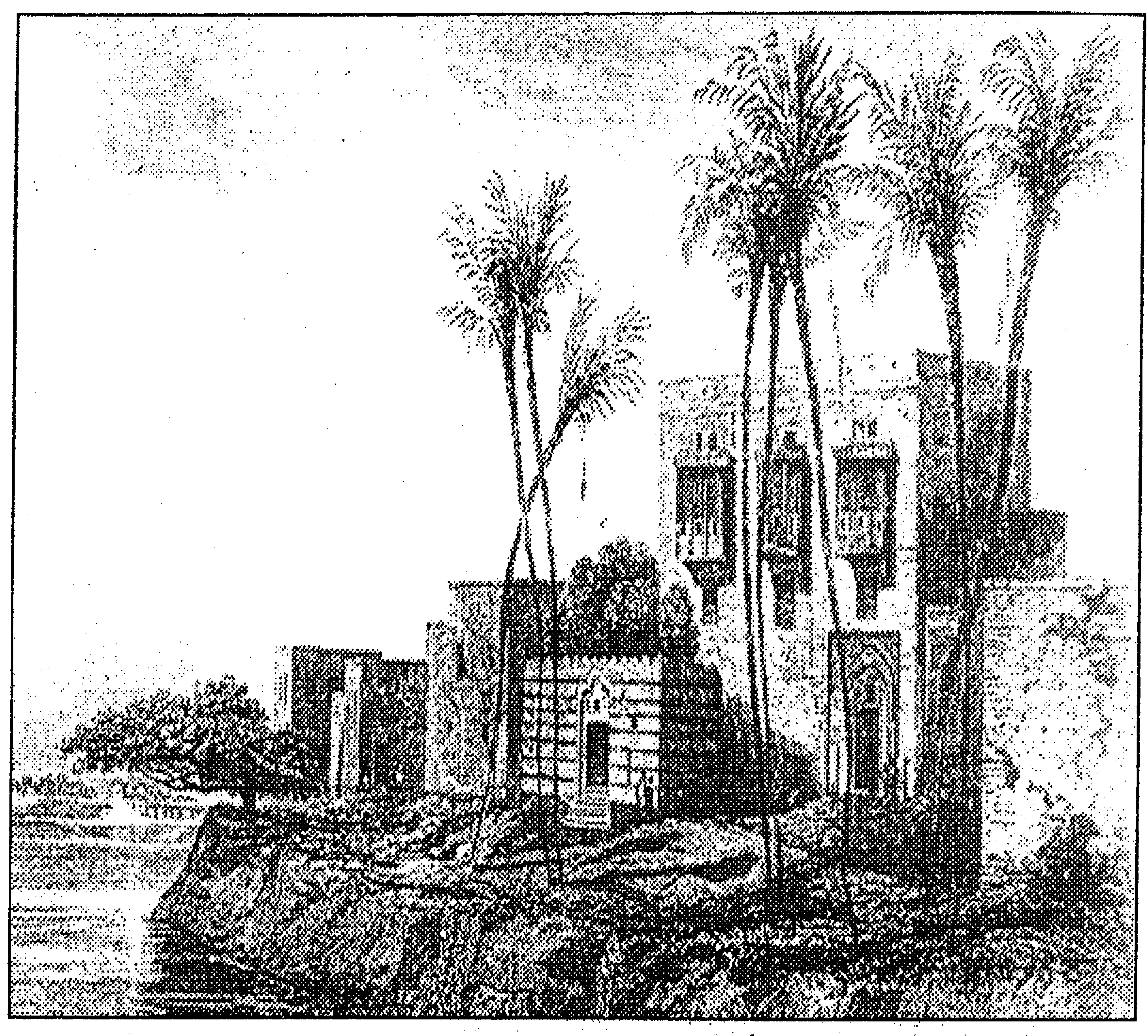
وفي يوم الأحد خامس جمادى الأولى طلع على بك إلى القلعة وقلد ثلاثة صناجق من أتباعه وكذلك وجاقلية، وقلد أيوب بك تابعه ولاية جرجا وحسن بك رضوان أمير حج وقلد الوالي.

وفي جمادى الآخرة قلد إسماعيل بك الدفتردارية، وصرف المواجب في ذلك اليوم.

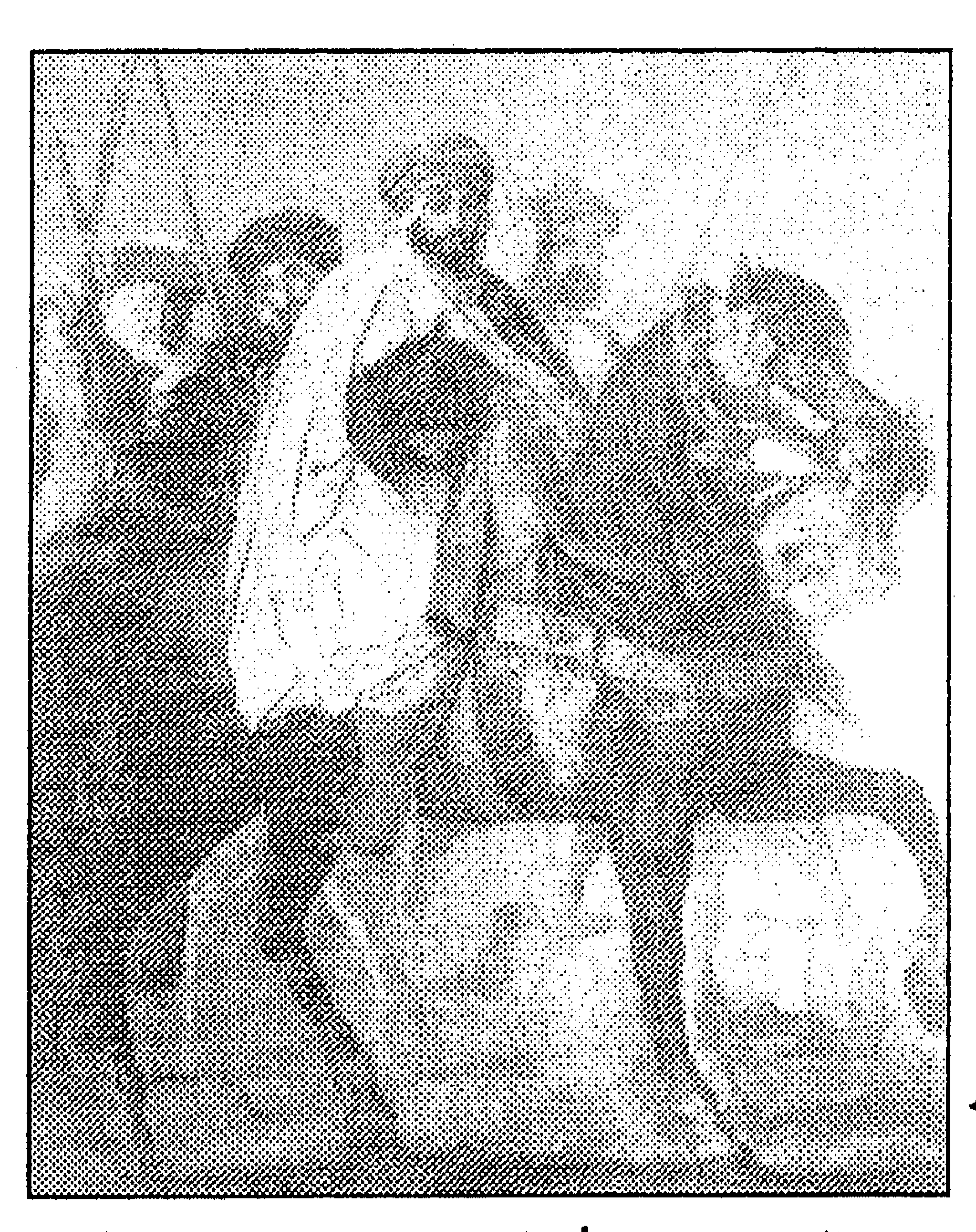
وفي منتصف شهر رجب وصل أغا من الديار الرومية وعلى يده مرسوم بطلب عسكر للسفر فاجتمعوا بالديوان وقروا المرسوم وكان على بك أحضر سليمان بك الشابورى من نفيته بناحية المنصورة وكان منفيًا هناك من سنة اثنتين وسبعين وماية وألف.

وفي يوم الثلاثاء عملوا الديوان بالقلعة ولبسوا سليمان بك الشابورى أمير السفر الموجه إلى الروم وأخذوا في تشهيله،

* الهنادى: من البدو الذين كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب في منطقة البحيرة غرب فرع رشيد. انضم لهم في هذه الفترة سويلم بن حبيب احد مشايخ العرب الذى طرده على بك من دجوه بالقليوبية.



▲ المنصورة . دار ابن لقمان حيث أسر الملك لويس ملك فرنسا



فرسان من البدو.

* علي بك الكبير يبدأ في كسر شوكة شيخ الهوارة «همام».

* برديس: قرية تابعة لمركز البلينا، محافظة سوهاج.

* البحر الرومي: هو البحر المتوسط.

وسافر محمد بك أبو الذهب بتجريدة ومعه جملة من الصناجق والمقاتلين لمنابذة شيخ العرب همام، فلما قربوا من بلاه ترددت بينهم الرسل واصطلحوا معه على أن يكون لشيخ العرب همام من حدود برديس ولا يتعدى حكمه لما بعدها، واتفقوا على ذلك، ثم بلغ شيخ العرب أنه ولد لمحمد بك مولود فأرسل له بالتجاوز عن برديس أيضًا إنعامًا منه للمولود، ورجع محمد بك ومن معه إلى مصر، وفيه قبض على بك عَلى الشيخ أحمد الكتبي المعروف بالسقط، وضربه علقة قوية وأمر بنفيه إلى قبرص، فلما نزل إلى البحر الرومي ذهب إلى إسلامبول وصاهر حسن أفندى قطة مسكين المنجم وأقام هناك إلى أن مات، وكان المذكور من دهات العالم (ص٧٤١) يسعى في القضايا والدعاوى يحيى الباطل ويبطل الحق بحسن سبكه وتداخله

وفى سابع عشره حصلت قلقة من جهة والى مصر محمد باشا وكان أراد أن يحدث حركة [ضد على بك] فوشى به كتخداه عبد الله بك إلى على بك فأصبحوا وملكوا الأبواب والرميلة والحجر وحوالى القلعة وأمروه بالنزول فنزل من باب الميدان إلى بيت أحمد بك كشك وأجلسوا عنده الحرسجية.

* فشل مؤامرة محمد باشا ضد على بك وعزله.

(وفى يوم الأحد غرة شعبان) تقلد على بك قايمقامية عوضاً عن الباشا.

* على بك يتولى قائمقام بعد عزله لمحمد باشا.

(وفى يوم الخميس) إرسل على بك عبد الرحمن أغا مستحفظان إلى رجل من الأجناد يسمى إسماعيل أغا من القاسمية وأمره بقتله، وكان إسماعيل هذا منفياً جهة بحرى وحضر إلى مصر قبل ذلك، وأقام ببيته جهة الصليبة وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية والإقدام، فلما وصل الأغاحذا بيته وطلبه ونظر إلى الأغا واقفاً بأتباعه ينتظره علم أنه يطلبه ليقتله كغيره لأنه تقدم قتله لأناس كثيرة على هذا النسق بأمرة على بك، فامتنع من النزول وغلق بابه ولم يكن عنده أحد سوى زوجته وهى أيضاً جارية تركية وعمر بندقيته وقرابينته وضرب عليهم فلم يستطيعوا العبور إليه من الباب وصارت زوجته تعمر له وهو يضرب حتى قتل منهم أناساً وانجرح كذلك، واستمر على ذلك يومين وهو يحارب وحده وتكاثروا عليه وقتلوا من أتباعه وهو ممتنع عليهم إلى أن فرغ منه البارود والرصاص ونادوه بالأمان فصدقهم ونزل من الدرج فوقف له شخص وضربه وهو نازل من الدرج وتكاثروا عليه وقتلوه وقطعوا راسه ظلماً، رحمة الله تعالى.

(وفى تاسع عشرة) صرفت المواجب (ص٧٤٢) على الناس والفقراء.



على بك الكبير فى شبابه.

(وفى ثامن عشرينه) خرج موكب السفر الموجه إلى الروم فى تجمل زائد.

* على بك يصادر أموال المعلم إسحق اليهودى ويقتله.

(وفى عاشر رمضان) قبض على بك على المعلم إسحق اليهودى معلم الديوان ببولاق وأخذ منه أربعين ألف محبوب ذهب وضربه حتى مات، وكذلك صادر أناسًا كثيرة فى أموالهم من التجار مثل العشوبى والكهن وغيرهما، وهو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادى ظهوره واقتدى به من بعده.

* على بك يرسل الهدايا إلى السلطان ورجال دولته.

(وفى شوال) هيأ على بك هدية حافلة وخيولا مصرية جيادا وأرسلها إلى إسلامبول للسلطان ورجال الدولة وكان المتسفر بذلك إبراهيم أغا سراج باشا وكَتَبَ مكاتباتٍ إلى الدولة ورجالها والتمس من الشيخ الوالد أن يكتب له أيضًا مكاتبات لما يعتقده من قبول كلامه وإشارته عندهم،

ومضمون ذلك الشكوى من عثمان بك ابن العظم والى الشام وطلب عزله عنها بسبب انضمام بعض المصريين المطرودين إليه ومعاونته لهم، وطلب منه أن يرسل الشيخ عبد الرحمن العريشى ومحمد أفندى البرلى فسافروا مع الهدية وغرضه بذلك وضع قدمه بالقطر الشامى أيضا.

* على بك ينفى الامراء المنافسين له إلى إقاليم مصر ويصادر أموالهم وأقطاعهم.

(وفى ثانى عشر ذى العقدة) رسم بنفى جماعة من الأمرا أيضا وفيهم إبراهيم أغا الساعى اختيار متفرقة وإسماعيل أفندى جاويشان وخليل أغاباش جاويشان جمليان وباشجاويش تفكجيان ومحمد أفندى جراكسة ورضوان بك تابع حسن بك رضوان والزعفرانى، فأرسل منهم إلى دمياط ورشيد واسكندرية وقبلى وأخذ منهم دراهم قبل خروجهم واستولى على بلادهم وفرقها فى أتباعه، وكانت هذه طريقته فيمن يخرجه، يستصفى أموالهم أولا ثم يخرجهم ويأخذ بلادهم وأقطاعهم فيفرقها (ص٧٤٣) على مماليكه وأتباعه الذين يؤمرهم فى مكانهم، ونفى أيضا إبراهيم كتخدا جدك وابنه محمد إلى رشيد وكان إبراهيم هذا كتخدا. ثم عزله وولاه الحسبة فلما نفاه ولى مكانه فى الحسبة مصطفى أغا، والله أعلم.

وأما من ماتت فى هذه السنة من المشايخ والأعيان

٣٠٧ أحمد بن الحسن الجوهرى.

(مات) الإمام الفقيه المحدث الأصولى المتكلم شيخ الإسلام وعمدة الأنام الشيخ أحمد ابن الحسن ابن عبد الكريم بن محمد بن يوسف بن كريم الدين الكريمى الخالدى الشافعى الأزهرى الشهير بالجوهرى، وإنما قيل له الجوهرى لأن والده

كان يبيع الجوهر فعرف به، ولد بمصر سنة ست وتسعين وألف، واشتغل بالعلم وجد فى تحصيله حتى فاق أهل عصره، ودرس بالأزهر وأفتى نحو ستين سنة، مشايخه كثيرون منهم الشهاب أحمد بن الفقيه ورضوان الطوخى إمام الجامع الأزهر والشيخ منصور المنوفى والشهاب أحمد الخليلى والشيخ عبد ربه الديوى والشيخ عبد الروف البشبيشى والشيخ محمد أبو العز العجمى والشيخ محمد الإطفيحى والشيخ عبد الجواد المحلى الشافعيون، والشيخ محمد السجلماسى والشيخ أحمد النفراوى والشيخ سليمان الحصينى والشيخ عبد الله الكنكسى والشيخ محمد الصغير الورزازى وابن زكرى والشيخ أحمد الهشتوكى والشيخ سليمان الشبرخيتى والسيد عبد القادر المغربى ومحمد القسطنطينى ومحمد النشرتى المالكيون، ورحل إلى الحرمين فى سنة عشرين وماية وألف فسمع من البصرى والنخلى فى سنة أربع وعشرين وماية وألف ثم فى سنة ثلاثين وماية وألف، وحمل فى هذه الرحلات علوما جمة، وأجازه مولاى الطيب ابن مولاى عبد الله الشريف الحسينى وجعله خليفة بمصر، وله شيوخ كثيرون غير من ذكرت، وقد (ص٧٤٤) وجدت فى بعض إجازاته تفصيل ماسمعه من شيوخه مانصه: على البصرى والنخلى أوايل الكتب الستة والإجازة العامة مع حديث الرحمة بشرطه. وعلى الإطفيحى بعض كتب الفقه والحديث والتصوف والإجازة العامة. وعلى السجلماسى فى سنة ستٍ وعشرين وماية وألف الكبرى للسنوسى ومختصره المنطقى وشرحه وبعض تلخيص القزوينى وأول البخارى إلى كتاب الغسل وبعض الحكم العطائية وأجازه. وعلى ابن زكرى أوايل الستة وأجازه. وعلى

* تفصيل منح إجازة [درجة مشيخه] للشيخ أحمد بن الحسن الجوهرى.

الكنكسى الصحيح بطرفيه وشرح العقايد للسعد وعقايد السنوسى وشروحها وشرح التسهيل لابن مالك إلى آخره وشروح الألفية للمكودى والمطول بتمامة وشرح التلخيص، وعلى الهشتوكى الإجازة بسائرها. وعلى النفرواى شرح التلخيص مرارا وشرح ألفية المصطلح وشرح الورقات. وعلى الديوى شرح المنهج لشيخ الإسلام مرارا وشرح التحرير وشرح ألفية ابن الهايم وشرح التلخيص وشرح ابن عقيل على الألفية وشرح الجزرية. وعلى المنوفى جمع الجوامع وشرحه للمحلى وشرح التلخيص. وعلى ابن الفقيه شرح التحرير وشرح الخطيب مرارًا وشرح العقايد النسفية وشرح التلخيص والخبيصى. وعلى الطوخى شرج الخطيب وابن قاسم مرارا وشرح الجوهرة لعبد السلام. وعلى الخليفى البخارى وشرح التلخيص والأشمونى والمصام وشرح الورقات. وعلى الحصينى شرح الكبرى للسنوسى بتمامة وعلى الشبرخيتى شرح الرحبية وشرح الآجرومية وغيرهما. وعلى الورزازى شرح الكبرى بتمامة. مرارا وشرح الصغرى وشرح مختصر السنوسى والتفسير وغيره. وعلى البشيشى المنهج مرارا وجمع الجوامع مرارا والتلخيص وألفية (ص٧٤٥) المصطلح والشمايل وشرح التحرير لزكريا وغيره.

هذا نص ماوجدته بخطه، واجتمع بالقطب سيدى أحمد بن ناصر فأجازه لفظا وكتابة، وممن أجازه أبو المواهب البكرى وأحمد البناء وأبو السعود الدنجيهى وعبد الحى الشرنبلالى ومحمد بن عبد الرحمن المليجى. وفى الحرمين عمر بن عبد الكريم الخلخالى حضر دروسه وسمع منه المسلسل بالأولية بشرطه. وتوجه بآخره إلى الحرمين بأهله

وعياله وألقى الدروس وانتفع به الواردون ثم عاد إلى مصر فانجمع عن الناس وانقطع فى منزله يزار ويتبرك به وله تآليف منها منقذة العبيد عن ربقة التقليد فى التوحيد، وحاشية على عبد السلام، ورسالة فى الأولية وأخرى فى حياة الأنبياء فى قبورهم وأخرى فى الغرانيق* وغيرها.

وكانت وفاته وقت الغروب يوم الأربعاء ثامن جمادى الأولى من السنة، وجهز بصباحه وصلى عليه بالجامع الأزهر بمشهد حافل ودفن بالزواية القادرية داخل درب شمس الدولة، رحمة الله. ورثاه نادرة العصر العلامة الشيخ مصطفى بن أحمد الصاوى بهذه القصيدة الفريدة وهى:

يادهرُ مالك بالمكاره تجترى
ولفقد أرباب المكارم تحترى
تغتال منا ماجدًا مع ماجد
طابت طبايعه بطيب المنصر
تردى الكريم ابن الكريم وماترى
حقا لعهد الماهر المتبصر
إن أصبح المولى عزيزَ عشيرة
أمسيته فى ذل ذل أحقر
يغدو كريم النفس وهو مقدم (ص٧٤٦)
فيروح فى هون به مستقهقر
وإذا حلَتْ بالصفو حالةُ حاله
مرّرْتَها بنَغيص عيش أكدر
لو كنت ترعى فى الأفاضل حقهم
أبقيت مجمع شملهم فى الأعصر
من لى يسعدنى لدهر معتد
الغدر شيمته خون مفترى معروف ذكر

* الغرانيق: مفردها غُرنوق وُغرنَيق وغرناق، ومعناها الشباب الغض الجميل. والغرانيق فى الحديث الموضوع المنسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو (تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى) هى الأصنام وهى فى الأصل الذكور من الطير.

في فقد كهف الفضل مجد أولي النهى
فـــى الـــورى لـــم يـــنـــكـــر
حـاوى الفـضـايل والفـواضل والتـقى
والجـــود والمجـــد الأصـــيل المفـــخـــر
هو درة الغـــواصِ والبـــحـــرِ الذى
امـــواجـــه قـــذفت بدّر الجـــوهر
هو عـروة وثقى بهـا اعـتـصم الورى
عند انقطاع حـــبـــال ورد الأبهـــر
بدر أضـاء على الأمـاجـد كلهـا
حـتى على البـدر المنيـر المسـفـر
وســمـــا فـــخـــر لاتمد لهـــا يد
إلا وطول عـلاه قـال لهـا اقـصـرى
ذو مـــعـــهـــد أمّـــا مـــواضى فكره
إن ضـارعـتـهـا الشـهب قـالت تحـترى
فى قـاب قـوس المجـد حطّ رحـاله
ومشى على مِريخه والمشترى وعَمّتْ عن
حـاطت بصـيـرتُه بكلِ فـضـيلة
الإدراك عـينُ المبـــــــصـــــــر
(ص ٧٤٧)إن تختبره فى العلوم وجدته
قـــام الأدلة عن عـــيـــان المخـــبـــر
فـبـفـقـهـه في الدين ثم بشـعـره
يُنســيك أم الرافــعى*والبــحــترى
أن رمــتــه فى الحــزم قــال مــســدد
أو رمت توحـيـداً وجـدت الأشـعـرى
أو رمت نحـــوا أو بـلاغـــة زُهده
ســعـد الزمـان وسـيـبـويه والسـرى

* الرافعى : هو عبد الكريم بن محمد عبد الكريم بن الفضل أبو القاسم الرافعى صاحب الشرح الكبير وغيره من المؤلفات فى التفسير وشرح الحديث، توفى بقزوين سنة ٦٢٣ = ١٢٢٦م.

قــد صح إسناد الرواة حــديثــه
أهل الثبـات ذوى المقـام الأكـبـر
يروى الصحيح من الصحيح فما به
ضــعف ولا وهن ولا من يزدرى
وغــدا بنطق كـمـاله يبـدى لنا
عين النتيـجـة ضـمن شكل أنور
عـجب لشـمس مـعـارف قـد أنزلت
بنجـومـهـا فى ذا التـراب الأقـفـر
ليت المنون الذى ألّم بروحـه
أفنى بنى الدنيـا وأبقى ذا السـرى
سـقـيـا لرمس ضـمـه وبل الرضـا
غـيث الهنا وكف السـحـاب الممطر
حـقٌ لـعـين قـطـفـت مـن زهـرة
تبكى عليـه غـزير دمع أزفـر
ونخط فـوق الخـد من أقـلامـهـا
تحـبـيـر حـزن فى طروس الأسطر
لكنْ صبرًا للقضاء وتصبرًا (ص٧٤٨)
ليكون للإنسـان حـسن المأجـر
فـالصـبـر عند الصـدمـة الأولى رضـا
مـاحـيلة المحـتـال إن لم يصـبـر؟
من حـيث إن لنا هنالك أسـوة
بالسـالفين وبالنبى الأطهـر
صلى عليـه إلهنا مع آله
والصحب أصحاب المقـام الأظهـر
مـا مـصطفى الصاوى قـال مؤرخـا
بشـرى لحـور العين حبٌ الجـوهرى

ورثاه الشيخ عبد الله الإدكاوى بقصيدة بيت تاريخها
مقعد الصدق قد أعدوه حالا
للملى الممجد الجوهرى

٣٠٨ عيسى بن أحمد البراوى.

(مات) الإمام العالم العلامة والحبر الفهامة الفقيه الدراكة الأصوالى النحوى شيخ الإسلام وعمدة ذوى الأفهام الشيخ عيسى بن محمد الزبيرى البراوى الشافعى الأزهرى، ورد الجامع الأزهر وهو صغير فقرأ العلم على مشايخ وقته وتفقه على الشيخ مصطفى العزيزى وابن الفقيه وحضر دروس الملوى والجوهرى والشبراوى وأنجب وشهد له بالفضل أهل عصره، وقرأ الدروس فى الفقه وأحدقت به الطلبة واتسعت حلقته واشتهر بحفظ الفروع الفقهيه حتى لقب بالشافعى الصغير لكثرة استحضاره فى الفقه وجودة تقريره، وانتفع به طلبة العصر طبقة بعد طبقة وصاروا مدرسين، وروى الحديث عن الشيخ محمد الدفرى، وكان حسن (ص ٧٤٩) الاعتقاد فى الشيخ عبد الوهاب العفيفى وفى ساير الصلحاء، وله مؤلفات مقبولة منها حاشية على شرح الجوهرة فى التوحيد، وشرح على الجامع الصغير للسيوطى فى مجلد، يذكر فى كل حديث مايتعلق بالفقه خاصة، ولازال يملى ويفيد ويدرس ويعيد حتى توفى سحر ليلة الاثنين رابع رجب، وجهز فى صباحه وصلى عليه بالأزهر بمشهد حافل ودفن بالمجاورين وبنى على قبره مزار ومقام، واستقر مكانه فى التصدر والتدريس ابنه العلامة الشيخ أحمد ولازم حضوره تلامذة أبيه، رحمة الله.

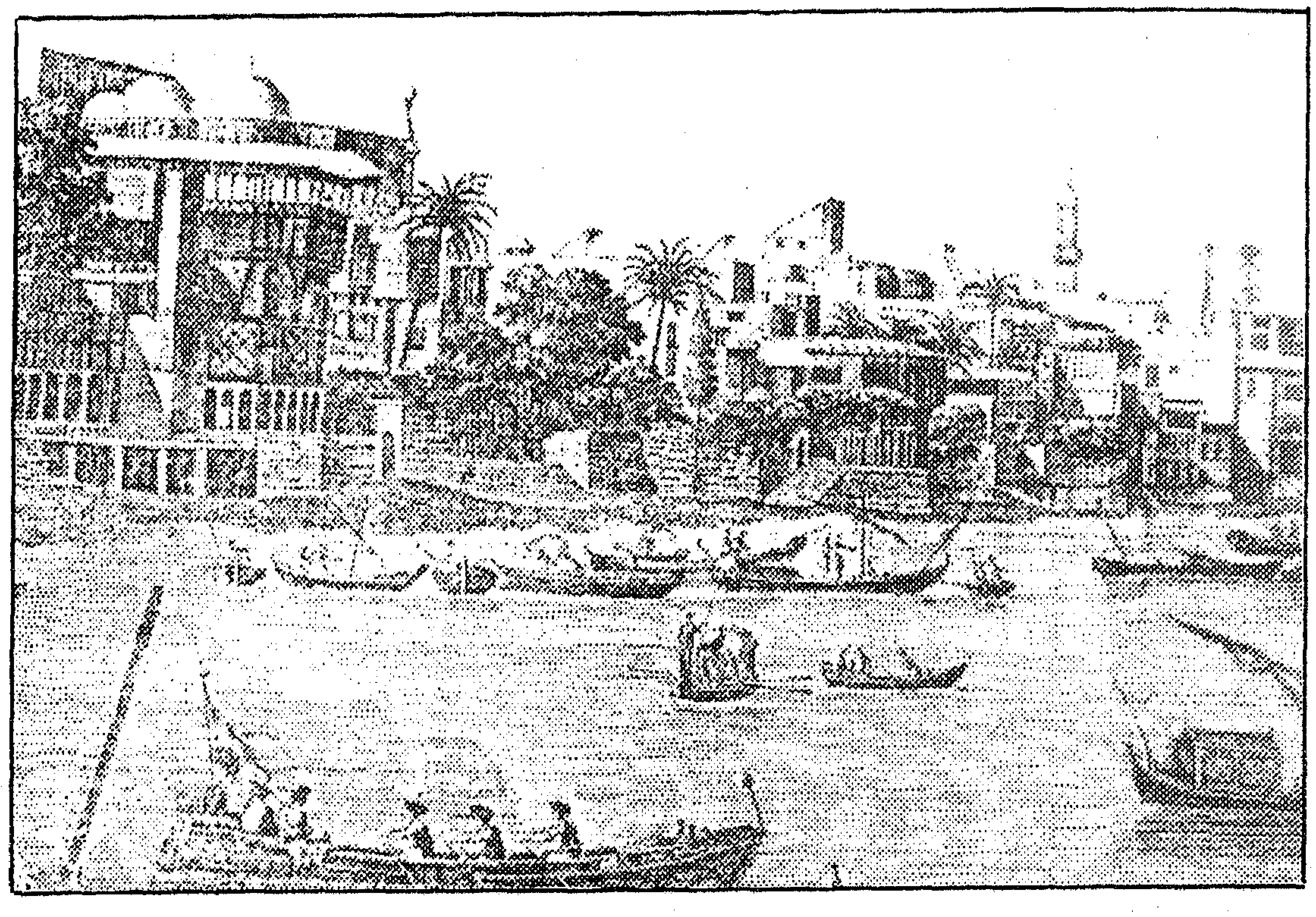
٣٠٩ حسن بن نور الدين المقدسى.

[ومات] الامام العلامة الفقيه، واللوذعى الذكى النبيه،

عمدة المحققين ومفتى المسلمين الشيخ حسن بن نور الدين المقدسى الحنفى الأزهرى، تفقّه على شيخ وقته الشيخ سليمان المنصورى والشيخ محمد عبد العزيز الزيادى وحضر دروس الشيخ مصطفى العزيزى والسيد على الضرير والملوى والجوهرى والحفنى والبليدى وغيرهم، ودرّس بالجامع الأزهر فى حياة شيوخه ولما بنى الأمير عثمان كتخدا مسجده بالأزبكية جعله خطيبًا وإمامًا به، وسكن فى منزل قرب الجامع وراج أمره، ولما شغر فتوى الحنفية بموت الشيخ سليمان المنصورى جعل شيخ الحنفية، بعناية عبد الرحمن كتخدا وكان له به ألفة، ثم ابتنى منزلا نفيسا مشرقا على بركة الأزبكية بمساعدة بعض الأمراء، واشتهر أمره ودرّس بعدة أماكن كالصرغتمشية المشروطة لشيخ الحنفية والمدرسة المحمودية والشيخ مطهر وغيرها، وألف متنًا فى فقه المذهب ذكر فيه الراجح من الأقوال، واقتنى كتبا نفيسة بديعة الأمثال، وكان عنده ذوق وألفة ولطافة وأخلاق (ص٧٥٠) مهذبة، ومن كلامه ماكتبه على رسالة ألمعية للشيخ العيدروس.

لمعت بوارق ألمعية
تفتر عن سر المعيه
تهدى إلى الحق المبين
وتوضح السبل الخفيه
نور الشريف ابن الشر
يف ابن السراة الألمعية
العيدروس العابد الر
حمن ذى المنح الجليه

توفى يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة.



▲ بركة الازبكية

[مات] الإمام العلامة أحد أذكياء العصر ونجباء الدهر الشيخ محمد بن بدر الدين الشافعي سبط الشمس الشرنبابلي، ولد قبل القرن بقليل وأجازه جده وحضر بنفسه على شيوخ وقته كالشيخ عبد ربه الديوى والشيخ مصطفى العزيزى وسيدى عبد الله الكنكسى والسيد على الحنفى والشيخ الملوى فى آخرين، وباحث وناضل وألف وأفاد، وله سليقه فى الشعر جيدة وكلامه موجود بين أيدى الناس، وله ميل لعلم اللغة ومعرفة بالأنساب، غير أنه كان كثير الوقيعة فى الشيخ محيى الدين ابن عربى، قدس الله سره، وألف عدة رسايل فى الرد عليه، وكان يباحث بعض أهل العلم فيما يتعلق بذلك فينصحونه ويمنعونه من الكلام فى ذلك فيعترف تارة وينكر أخرى ولايثبت على اعترافه، وبلغنى أنه

٣١٠ محمد بن بدر الدين الشرنبابلي

ألف مرة رسالة فى الرد عليه فى ليلة من الليالى ونام فاحترق منزله بالنار واحترقت تلك الرسالة من جملة مااحترق من الكتب، ومع ذلك فلم يرجع عما كان عليه من التعصب، وربما تعصب لمذهبه فيتكلم فى بعض مسايل مع الحنفية ويرتب عليها أسئلة ويغض عنهم، ولما كان عليه مما ذكر لم يخل (ص٧٥١) حاله عن ضيق وهيئته عن رثاثة، وأنشد بيتين سمعتهما من الشيخ محمد ابن الشيخ محمد الدفرى، رحمة الله قال

زمان كل حب فيه خب
وطعم الخل خل ولو يذاق
له سوق بضاعته نفاق
فنافق فالنفاق له نَفَاق

(ومن قوله)

أنا فى حماكم ياكرام وإن أكن
أذنبت ذنبًا فالكريم غفور
حاشى حماكم أن يضام نزيله
وندى يديكم فى الورى مشهور

وله في تاريخ وفاة شيخ القراء بالمقام الشافعى الشيخ عمر الدعوجى.

نعت النعاة كبير قراء له
فضل فقلت مؤرخا لمن اعتبر
ليموت إحسان الدعاء بموته
ويموت كيد الكبر بعدك ياعمر

(وله) رسالة سماها تحرير المباحث فى تعلق القدرة

بالحوادث، وهذا نصها بعد البسملة:

«الحمد لله * حق حمده، وصلى الله وسلم على من لا نبى من بعده (أما بعد) فقد طال الخلاف وانتشر فى تعلق القدرة الأزلية بالأمور الاعتبارية، فمن قايل بالتعلق ومن قايل بنفيه، وأقول هذ المسيلة وإن انتشر الخلاف فيها تنبنى على خلاف آخر، وهو أن الحادث لابد وأن يكون موجودا أو هو أعم من ذلك، والعموم هو معتقدنا تبعا لمحققى أئمتنا، (ص٧٥٢) وعليه فالاعتقاد الذى ينبغى التعويل عليه عموم تعلق القدرة بالحوادث جميعها، موجودها بالوجود الحقيقى وموجودها بالوجود المجازى، ويؤيده أن الاحوال الحادثة لم تدخل فى عبارة القوم مع أن مرادهم عموم التعلق لها قطعا، غايته أن عبارتهم إما مبنية على الغالب المتفق عليه أو مؤوله بأن يراد بالموجود الثابت، فيعم الأحوال الحادثة بناء على ثبوتها أو يراد به الموجود حقيقة أو مجازًا فيشمل ماذكر، كالأمور الاعتبارية فإنها موجودة باعتبار المعتبر، ولابدلها من موجد وإن كان ذلك مسمى الإيجاد مجازًا لاحقيقة، لما تقرر أنها من جملة الحوادث، وأن اسم الحادث يشملها فدخلت حينئذ فى القاعدة الكلية، أعنى كل حادث لابد له من محدث المسلمة المرضية، ويؤيد اعتبار بقية الموجودات ماصرحوا به من أن الموجودات أربعة: وجود فى الأعيان وهو الوجود الحقيقى، ووجود فى الأذهان وهو الوجود المجازى، ووجود فى العبارة ووجود فى الرقم وهما مجازيان أيضا، يعنى أن إطلاق اسم الوجود على ماعدا الأول على طريق المشابهة بين الوجود الحقيقى وبينها، وذلك أمارة الاحتياج إلى الموجد، وأنه يوجد بالايجاد الحقيقى تارة وبالمجازى أخرى، لايقال إنه معدوم في نفس الأمر، وإن أطلق عليه

* نص رسالة «تحرير المباحث فى تعلق القدرة بالحوادث» للشيخ محمد بدر الدين الشرنبابلى.

اسم الوجود تنزيلا كما هو شأن المجاز من صحة النفى فيه حقيقة، لأنا نقول إن تلك المشابهة التى اقتضت تنزيله منزلة الموجود رقَّتْه من حضيض العدم المحض إلى ذروة مقابلة، فوجب التعلق والإيجاد، لكن على سبيل المجاز أيضًا لا على سبيل الحقيقة، وإلا لزم مجازيه المتعلق دون المتعلق، وذلك لايعقل، نعم لامحذور فى تسليم أن التعلق بإثباته حقيقى، لأنه ليس المجاز فيه، لكن هل ذلك الإثبات فى نفس الأمر أو فى اعتبار المعتبر أو فيهما يأتى بما فيه؟ وبالجملة (ص٧٥٣) فالتعلق له وجه وجيه، ومما يؤيده أيضاً أن العبد ينسب الفعل له ويضاف إليه وإن كان إيجاده له مجازيا أى شرعا وإلا فهو حقيقة لغوية بحيث يطلق عليه اسم الموجود مجازًا، فنسبة الأشياء الموجدة بالوجود المجازى إلى الفاعل الحقيقى أولى وأحرى، وأيضاً لو سيل المنكر إضافتها إليه مَن الذى حصل هذه الأشياء فى ذهن المعتبر حتى حصلت؟ لم يسعه إنكار النسبة إليه تعالى فإنه يقر بنسبتها إلى المعتبر فكيف لايقر بنسبتها إلى الفاعل الحقيقى جلا وعلا؟ وإن كان التأثير ثابتًا فى الإعدام ففى الوجود والاعتبارات من باب أولى، وقد سألت شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى سيدى أحمد الملوى عن هذه المسيلة فقال «الخلاف فيها ثابت لاشبهة فيه، غير أن الأدب إضافتها إلى الله تعالى ونقله عن المحققين فانظره، لكن أورد عليه أن صفات الأفعال عندنا أمور اعتبارية وهى عبارة عن تعلق القدرة التنجيزى الحادث فيلزم أن يحتاج التعلق إلى تعلق وهكذا فيتسلسل وهو محال، وأجيب على تسليم أنها عين التعلق بأنه لامحذور فيه بالنسبة للأمور الاعتبارية لأنها تنقطع بانقطاع الاعتبار، فلم يكن التسلسل فيها حقيقيًا حتى يمتنع، نعم يرد لو قلنا بأنها ثابتة فى نفس

الأمر مع قطع النظر عن اعتبار المعتبر بأن يراد بنفس الأمر ماهو أعم من الخارج وهو أن يكون الثبوت فيه ثبوت الشيء في نفسه بقطع النظر عن تعقل العاقل وذهن الذاهن كأبوة زيد لعمرو مثلا فإنها ثابتة اعتبرها معتبر أم لا فا علمه.

على أن الإشكال وارد في التعلقات وإن لم نسلم أنها هي صفات الأفعال، وجوابه ما مَرَّ مع مايرد عليه لو قلنا (ص٧٥٤) بثبوتها في نفس الأمر، إلا أن يمنع امتناع التسلسل في الأمور الغير الحقيقية لكونها لم تكن من الخارج ولكن منع هذا المنع أحق، وهو عند المحققين أدق، فافهمه غير ملتفت إلى الرجال فإنه بالحق تعرف لا أنه بها يتعرف.

بقي أن الخلاف في هذ المسيلة يكاد أن يكون لفظيًا، فإن أحدا لاينكر عموم تعلق القدرة بالحوادث، وإنما الخلاف هل هذه الأشياء هي الحوادث فتكون من متعلق القدرة أم لا؟

إن بنينا على أن الحادث لابد وأن يكون موجودا ويؤيده مارجحوه في مقابلة أن القديم لابد وأن يكون موجودا نفينا التعلق وإلا أثبتناه، وإنما اختلف الترجيح في المسألتين وهو اعتبار الوجود في القديم دون الحادث، لما قام عندهم لسيما مراعة الأدب الذى عرفته من الإضافة إلى جناب الحضرة القدسية، فإن مراعاة ذلك الجناب هو الصواب وإليه المرجع والمآب».

انتهت الرسالة المذكورة.

ولما اطلع عليها الأستاذ الحفنى كتب عليها مانصه بعد البسملة:

* تعليق الأستاذ الحفنى على رسالة «تحرير المباحث» للشيخ محمد بدر الدين الشرنبابلى.

«الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وعترته وحزبه (وأما بعد) فقد قلدت عاطل جيد الفهم

بفرايد فوايد النفع الأعم المحلاة بمحاسنها صدور تلك الطروس، والمهنأة بنفايس أسرار بدايعها النفوس، كيف ومبديها واسطة عقد النبلا، ونتيجة أعيان الحذاق البلغا الفضلا، سباق ذوى التحقيق، وفواق سباق فرسان التدقيق، المنادية ألسن الحقايق لإظهار فضلة من له الحق دعا ألالمعى:

الــذى يــظــن بــك الــظــن
كــأن قــد رأى وقــد ســمــعــا

وقد وجدت في حاشية السُكتانى* مايؤيد (ص٧٥٥) هذا العارف الغارف الدانى حيث قال:

المراد بوجود الممكن ثبوته من إطلاق الأخص على الأعم مجازاً قرينته تعليق التأثير على الوصف المناسب وهو الإمكان، وذلك يشعر بعليته، وإذا كانت العلة هى الإمكان وهو موجود فى كل الممكنات، ولم يكن فرق بين الحال وغيرها، فالمراد بالوجود ماهو أعم، انتهى، المراد بالأحوال فى كونها من متعلقات القدرة وقد صرح بذلك شيخنا وقدوتنا وعمدتنا الشهاب الملوى فى شرح منظومته الأشعرية وعبارته «وسابعها قدرة، وهى صفة قديمة تصلح لأن يؤثر بها مولانا فى ثبوت الجايز، ولم أقل فى إيجاده لإدخال الوجه والاعتبارات وإدخال الأحوال على القول بها فإن القدرة تتعلق بها لأنها من الممكنات» انتهى.

لكن التسلسل الذى أورده هذا العلامة على مابناه لم يظهر لنا جواب عنه، فما دام وارداً أشكل ماذكره هؤلاء الأعلام ولاسيما وقد صرح السُكْتانى وعبد الحكيم بخلافه، فلعل الله أن يفتح بالجواب. كتبه محمد الحفناوى مصليًا مسلمًا على النبى وآله وسائر الأصحاب.

ولما عاد إلى المترجم كتب تحته مانصه:

* حاشية السُكتاني، هو عيسي بن عبد الرحمن ت١٠٦٢ = ١٦٥٢م.

«وقد فتح الله بالجواب على مؤلفه أضعف الطلاب فأقول ماصرح به السُكّتانى وعبد الحكيم صرح به كثير ولسنا ننازع فى ثبوت القول الآخر الذى صرح به هؤلاء كما نازع المخالف فى ثبوت ماقلناه فضلا عن راجحيته وقد أوردنا هذا الاشكال معترفين بقوته على هذا الذى وقع فى ترجيحه من المحققين، وقد علمت أن إيراده لايتوجه إلا على تقدير إرادة الثبوت فى نفس الأمر، لافى اعتبار المعتبر فيجوز أن يلتزم مقتضاه، ويقال بعدم المتعلق حينئذ لكونه فى نفسه عدمًا صرقا (ص٧٥٦) لاحظ له فى الوجود بخلافه فى اعتبار المعتبر، فافترقا، ويكون جمعًا بين القولين، فمن قال بمخلوقيته نظر إلى وجوده فى الأذهان، ومن نفى نظر إلى فقده فى الأعيان، وليس الأول مبنيًا على القول بالصورة وأنها عرض كما زعمه المخالف لاتفاق الجميع على حصول شىء فى الذهن، وإنما وقع الخلاف هل يسمى موجودا نظراً لثبوته فيه أم لالفقده فى الخارج؟ وقد وقع اختيار الايمة أنه يسمى بذلك مجازا فاعرفه انتهى. توفى المترجم فى المحرم افتتاح السنة وصلى عليه بالأزهر ودفن بالقرافة عند جده، لأمه، رحمة الله تعالى.

٣١١ أحمد بن إسماعيل بن محمد أبو الامداد الوفائى.

[مات] الجناب الأمجد والملاذ الأوحد حامل لواء علم المجد وناشره، وجالب متاع الفضل وتاجره، السيد أحمد بن إسماعيل بن محمد أبو الأمداد سبط بنى الوفا، والده وجده من أمراء مصر،وكذا أخوه لأبيه محمد، وكل منهم قد تولى الإمارة، والمترجم أمه هى ابنة الأستاذ سيدى عبد الخالق بن وفا، ولد بمصر ونشأ فى حجر أبويه فى عفاف وحشمة وأبهة، أحبه الناس لمكان جده لأمه المشار إليه مع جذب فيه

وصلاح، وتولى نقابة السادة الأشراف سنة ثمان وستين ومائة وألف، وسار فيهم سيرة مرضية وقد مدحه الشيخ عبد الله الإدكارى بأبيات وفيها لزوم مالايلزم

قالوا نقابة مصر أودى كفؤها
وتسربلت بحدادها واستخفت
فأجبت كلا بل لها الكفء الذى
رتب العلا بفخاره قد حفت
هو ذو المحامد أحمد من ذاته (ص٧٥٧)
جمل الفضائل والكمال استوفت
لما دعاها أذعنت واستبشرت
وأتته طائعة ولم تتلفت
وتبرجت فلذاك قلنا أرخوا
أدبًا لأحمدها النقابة زفت

[ثم] بعد وفاة السيد أبى هادى بن وفا تولى الخلافة الوفائية وذلك فى سنة ست وسبعين ومائة ألف، وقد أرخه الشيخ المذكور بقصيدة وهى هذه؛

قيل لى هل مدحت آل على
مَن بهم يكتسى الأديب الشرافه
ال بيت الوفاء من خصصوا
بالمجد والفخر والتقى والأنافه
قلت ماقدر مدحتى لكرام
بهم تأمن الأنام المخافه
غير أنى لفرعهم أحمد المجـ
ـد سأجلو بمنطقى أوصافه

هو بيت الأفضال شمس المعالى
أوحد الفضل جامع للطافه
منه أضحى دست الخلافة من صد
رخليًا ومادروا إسعافه
قال أعلى الجدود فى الحال هاتوا
نجلنا أحمد الذكى العرافه
قدموه فقلت فى الحال أرخ
جده قد أولاه ركن الخلافه

ولما تقلد ذلك نزل عن النقابة للسيد محمد أفندى (ص٧٥٨) الصديقى وقنع بخلافة بيتهم. وكان إنسانًا حسنًا بهيًا ذا تؤدة ووقار وفيه قابلية لإدراك الأمور الدقيقة والأعمال الرياضية، وهو الذى حمل الشيخ مصطفى الخياط الفلكى على حساب حركة الكواكب الثابتة وأطوالها وعروضها ودرجات ممرها ومطالعها لما بعد الرصد الجديد إلى تاريخ وقته، وهى من مآثره مستمرة المنفعة لمدة من السنين، واقتنى كثيراً من الآلات الهندسية والأدوات الرسمية رغب فيها وحصلها بالأثمان الغالية، وهو الذى أنشأ المكان اللطيف المرتفع بدارهم المجاور للقاعة الكبيرة المعروفة بأم الأفراح المطل على الشارع المسلوك ومابه من الرواشن المطلة على حوش المنزل والطريق ومابه من الخزاين والخورنقات والرفارف والشرفات والرفوف الدقيقة الصنعة وغير ذلك، وهو الذى كنى الفقير بأبى العزم، وذلك فى سنة سبع وسبعين وماية وألف، برحاب أجدادهم يوم المولد النبوى المعتاد. وتوفى فى سابع المحرم سنة تاريخه وصلى عليه بالجامع الأزهر بمشهد حافل، ودفن بتربة أجدادهم، نفعنا

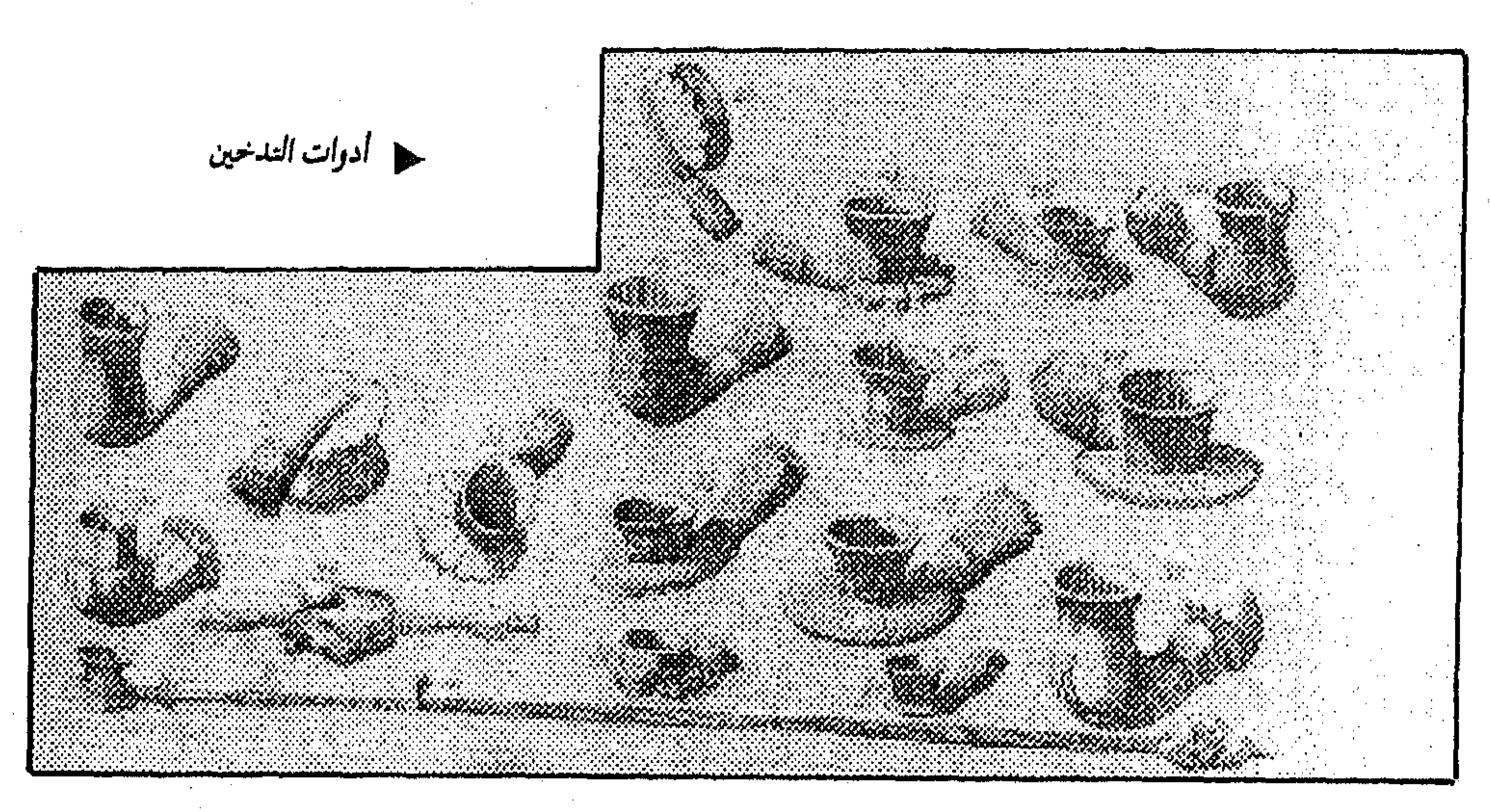
الله بهم وأمدنا من إمدادهم، وتولى الخلافة بعده مسك ختامهم ومهبط وحى أسرارهم، نادرة الدهر، وغرة وجه العصر، الإمام لعلامة، واللوذعى الفهامة، من مصابيح فضله مشارق الأنوار، السيد شمس الدين محمد أبو الأنوار.

بحر من الفضل الغزير خضمه
طامى العباب ومابه من ساحل

نسأل الله لحضرته طول البقا، (ص٧٥٩) ودوام العز والارتقا، آمين.

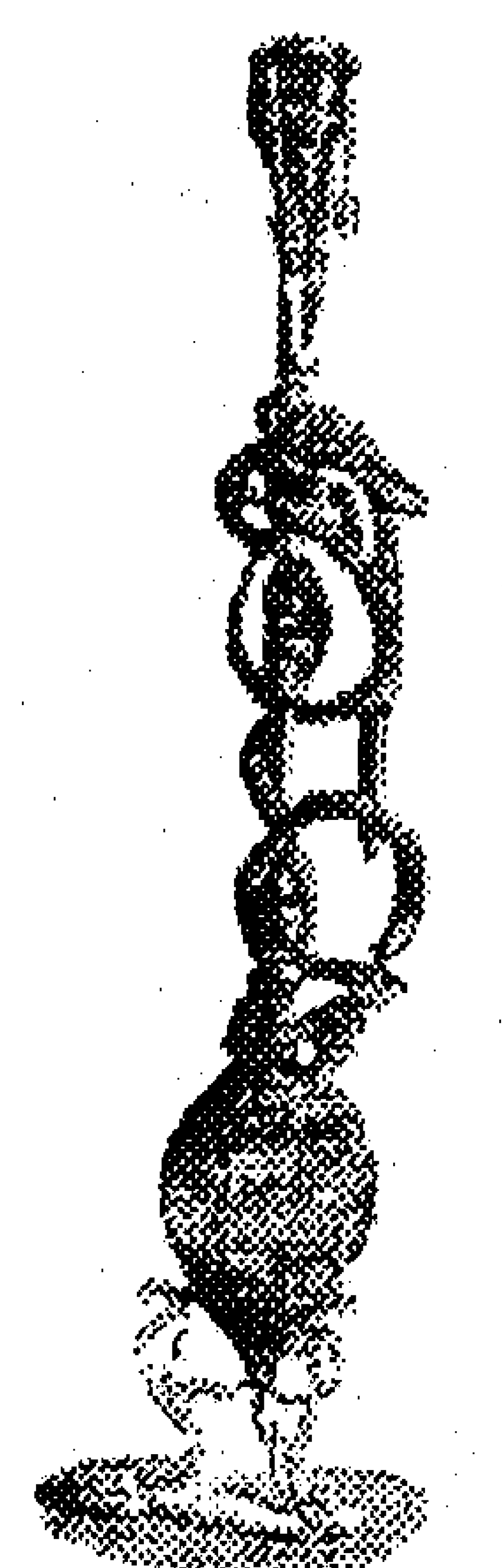
٣١٢ عبد الرءوف بن محمد السجينى شيخ الأزهر.

[مات] الإمام العلامة الفقيه النبيه شيخ الإسلام، وعمدةالأنام، الشيخ عبد الرءوف بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد السجينى الشافعى الأزهرى شيخ الأزهر وكنيته أبو الجود، أخذ عن عمه الشمس السجينى ولازمه وبه تخرج، وبعد وفاته درس فى المنهج موضعه، وتولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ الحفنى وسار فيها بشهامة وصارمة إلا أنه لم تطل مدته، وتوفى رابع عشر شوال وصلى عليه بالأزهر ودفن بجوار عمه بأعلى البستان. واتفق أنه وقعت له حادثة قبل ولايته على مشيخة الجامع بمدة، وهى التى كانت سببا لاشتهار ذكره بمصر، وذلك أن شخصًا من تجار خان الخليلى تشاجر مع رجل خادم فضربه ذلك الخادم وفر من أمامه، فتبعه هو وآخرون من أبناء جنسه فدخل إلى بيت الشيخ المترجم، فدخل خلفه، ضربه برصاصة فأصابت شخصاً من أقارب الشيخ يسمى السيد أحمد فمات، وهرب الضارب فطلبوه فامتنع عليهم، وتعصب معه أهل خطته



أدوات التدخين

وأبناء جنسه، قام الشيخ عبد الرءوف وجمع المشايخ والقاضى وحضر إليهم جماعة من أمراء الوجاقلية وانضم إليهم الكثير من العامة وثارت فتنة أغلق الناس فيها الأسواق والحوانيت واعتصم أهل خان الخليلى بدايرتهم وأحاط الناس بهم من كل جهة، وحضر أهل بولاق وأهل مصر القديمة وقتل بين الفريقين عدة أشخاص، واستمر الحال على ذلك أسبوعا، ثم حضر على بك أيضًا وذلك فى مبادى أمره قبل خروجه منفيا واجتمعوا بالمحكمة الكبرى، وامتلا (ص٧٦٠)حوش القاضى بالغوغاء والعامة وانحط الأمر على الصلح وانفض الجمع ونؤدى فى صبحها بالأمان وفتح الحوانيت والبيع والشراء وسكن الحال.



نارجيله (شيشه)

٣١٣ أحمد بن صلاح الدين الدنجيهى.

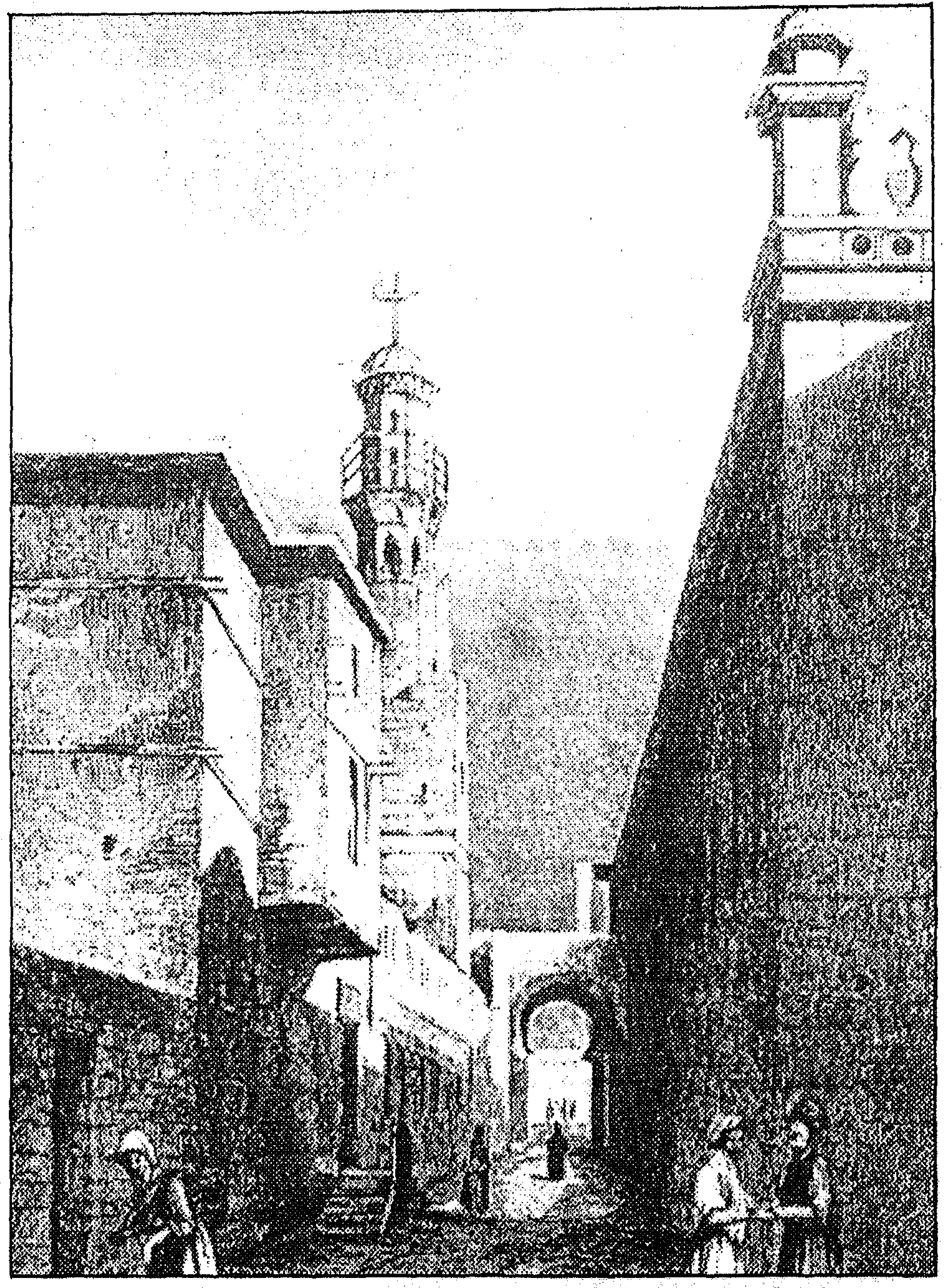
[ومات] الشيخ الصالح الخير الجواد أحمد بن صلاح الدين الدنجيهى الدمياطى شيخ المتبولية والناظر على أوقافها، وكان رجلا ر يسا محتشما صاحب إحسان وبر ومكارم أخلاق، وكان ظلا ظليلا على الثغر يأوى إليه الواردون فيكرمهم ويواجههم بالطلاقة والبشر التام مع الإعانة والإنعام، ومنزلة مجمع للأحباب ومورد لائتناس الأصحاب، توفى يوم السبت ثانى عشر ذى الحجة عن ثمانين سنة تقريباً.

٣١٤ أحمد بن أحمد العطشى.

[ومات] الإمام الفاضل أحد المتصدرين بجامع ابن طولون الشيخ أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عامر العطشى الفيومى الشافعى، كان له معرفة فى الفقه والمعقول والأدب، بلغنى أنه كان يخبر عن نفسه أنه يحفظ اثنى عشر ألف بيت من شواهد العربية وغيرها، وأدرك الأشياخ المتقدمين وأخذ عنهم، وكان إنسانا حسنا منور الوجه والشيبة، ولديه فوايد ونوادر، مات فى سادس جمادى الثانية عن نيف وثمانين سنة تقريبا، غفر الله له.

٣١٥ خليل بك القازدغلى.

[مات] الأمير خليل بك القازدغلى، أصله من مماليك إبراهيم كتخدا القازدغلى، وتقلد الإمارة والصنجقية بعد موت سيده وبعد قتل حسين بك المعروف بالصابونجى، وظهر شأنه فى أيام على بك الغزاوى وتقلد الدفتردارية، ولما سافر على بك أميراً بالحج فى سنة ثلاثة وسبعين جعله وكيلا عنه فى رياسة البلد ومشيختها، وحصل ماحصل (ص٧٦١) من تعصبهم على على بيك وهروبه إلى غزة كما تقدم وتقلبت الأحوال، فلما نفى على بك جن فى المرة الثانية كان هو المتعين



▲ منظر خارجى لجامع بن طولون. ويشاهد أعلى مئذنته المركب (العشارية) التى كان يوضع بها الحبوب للطيور على عادة المعابد الفرعونية القديمة.

للامارة مع مشاركة حسين بك كشكش، فملا وصل على بك وصالح بك على الصورة المتقدمة هرب المترجَم مع حسين بك وباقى جماعتهم إلى جهة الشام ورجعوا فى صورة هايلة، وجرد عليهم على بك وكانت الغلبة لهم على المصريين فلم يجسروا على الهجوم كما فعل على بك وصالح بك، فلو قدر الله لهم ذلك كان هو الرأى، فجهز على بك على الفور تجريدةً عظيمة وعليهم محمد بك أبو الدهب وخشداشينه، فخرجوا إليهم وعدوا خلفهم ولحقوهم إلى طندتا [طنطا الحالية]، فحاصروهم بها وحصل ماحصل من قتل حسين بك ومن معه، والتجأ المترجم إلى ضريح سيدى أحمد البدوى فلم يقتلوه إكراما لصاحب الضريح، وأرسل محمد بك يخبر مخدومه ويستشيره فى أمره، فأرسل إليه بتأمينه وارساله إلى ثغر اسكندرية، ثم أرسل بقتله فقتلوه بالثغر خنقا ودفن هناك، وكان أميراً جليلا ذا عقل ورياسة، وأما الظلم فهو قدر مشترك فى الجميع.

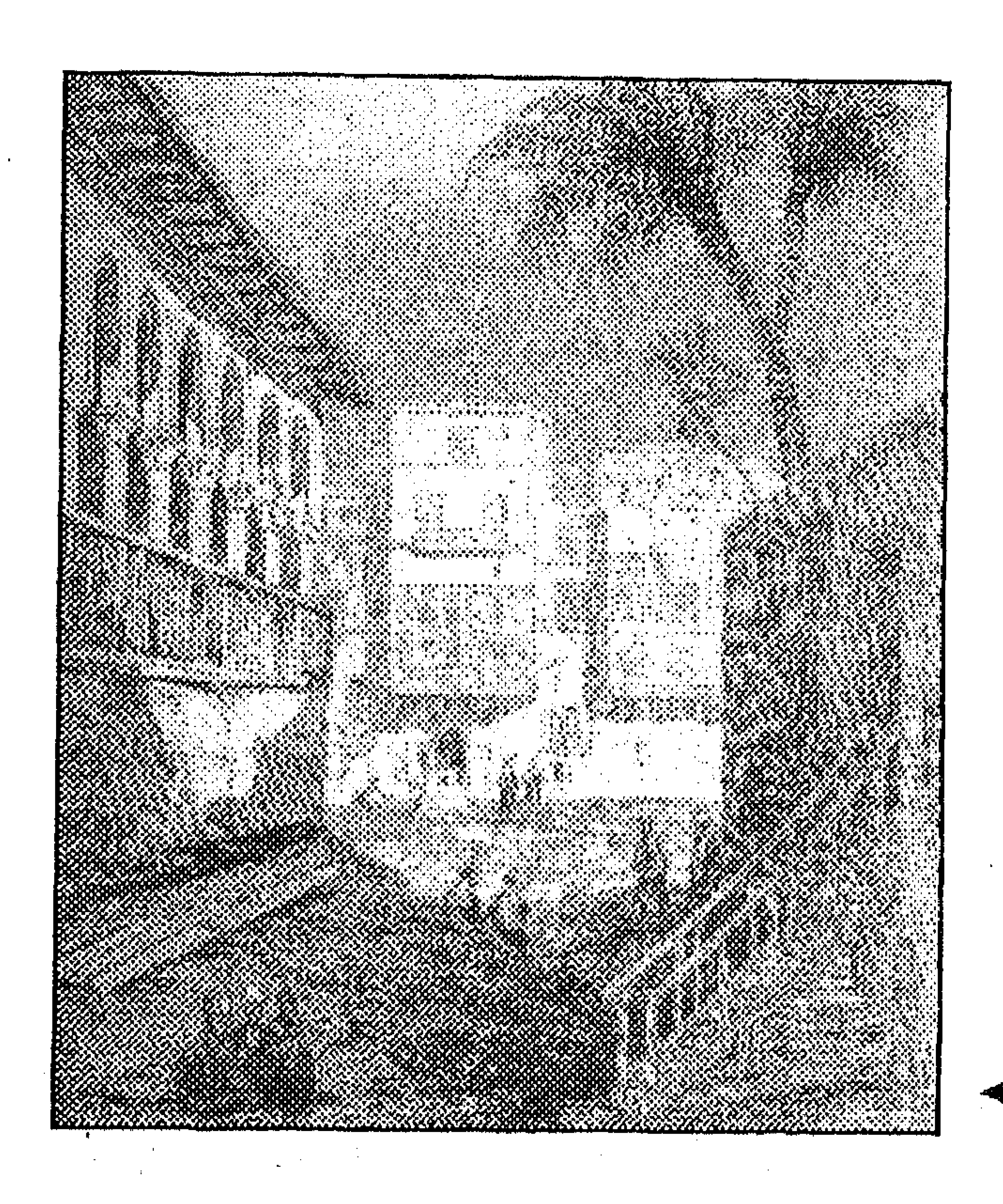
٣١٦ حسين بك كشكش القازدغلى.

[مات] أيضا الأمير حسين بك كشكش القازدغلى وهو أيضاً من مماليك إبراهيم كتخدا وهو أحد من تأمر فى حياة أستاذه، وكان بطلا شجاعاً مقداماً مشهوراً بالفروسية، وتقلد إمارة الحج أربع مرات آخرها سنة ست وسبعين وماية وألف، ورجع أوايل سنة سبع وسبعين، ووقع له مع العرب ماتقدم الإلماع به فى الحوادث السابقة، وأخافهم وهابوه حتى كانوا يخوفون بذكره أطفالهم، وكذلك عربان الأقاليم المصرية، وكان (ص٧٦٢) أسمر جهورى الصوت عظيم اللحية يخالطها الشيب، يميل طبعه إلى الحظ والخلاعة، وإذا لم يجد من يمازحه فى حال ركوبه وسيره مازح سواسه وخدمه

وضاحكهم، وسمعته مرة يقول لبعضهم مثلا سايرا ونحو ذلك، وكان له ابن يسمى فيض الله كريم العين فكان يكنى به ويقولون له أبو فيض الله، مات بعده بمدة. قتل المترجم طندتا وأتى برأسه إلى مصر كما تقدم ودفن هناك وقبره ظاهر مشهور، ودفن أيضا معه مملوكه حسن بك شبكة وخليل بك السكران وكانا أيضا يشبهان سيدهما فى الشجاعة والخلاعة.

[مات] الأمير الكبيرالشهير صالح بك القاسمي وأصله مملوك مصطفى بك المعروف بالقرد، ولما مات سيده تقلد الإمارة عوضه، وجيش عليه خشداشينه واشتهر ذكره، وتقلد إمارة الحج فى سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف كما تقدم فى ولاية على باشا الحكيم، وسار أحسن سير ولبسته الرياسة والإمارة والتزم ببلاد أسياده وإقطاعاتهم القبلية هو وخشداشينه وأتباعهم، وصار لهم نماء عظيم وامتزجوا بهوارة الصعيد وطباعهم ولغتهم، ووكله شيخ العرب همام فى أموره بمصر وأنشأ داره العظيمة المواجهة للكبش [بالمقطم]، ولم يكن لها نظير بمصر، ولما نما أمر على بك ونفى عبد الرحمن كتخدا إلى السويس، كان المترجم هو المتسفر عليه، وأرسل خلفه فرمانا بنفيه إلى غزة، ثم نقل منها إلى رشيد ثم ذهب من هناك إلى الصعيد من ناحية البحيرة، وأقام بالمنية وتحصن بها وجرى ماجرى من توجيه المحاربين (ص٧٦٣) إليه وخروج على بك منفيا وذهابه إلى قبلى وانضمامه إلى المذكور كما تقدم بعد الأيمان والعهود والمواثيق وحضوره معه إلى مصر على الصورة المذكورة آنفا، وقد ركن إليه وصدق مواثيقه

٣١٧ صالح بك القاسمي.



أحد شوارع رشيد.

ولم يخرج عن مزاجه ولامايأمر به مثقال ذرة، وباشر قتال حسين بك كشكش وخليل بك ومن معهما مع محمد بك كما ذكر آنفا، كل ذلك في مرضاة علي بك وحسن ظنه فيه ووفائه بعهده إلى أن غدر به وخانه وقتله كما ذكر، وخرجت عشيرته وأتباعه من مصر على وجوههم، منهم من ذهب إلى الصعيد ومنهم من ذهب إلى جهة بحرى. وكان أميراً جليلا مهيباً لين العريكة يميل بطبعه إلى الخير ويكره الظلم، سليم الصدر ليس فيه حقد، ولايتطلع لما في أيدى الناس والفلاحين، ويغلّق ماعليه وعلى أتباعه وخشداشينه من المال والغلال الميرية كيلا وعينا سنة بسنة، وقوراً محتشما كثير الحيا، وكانت إحدى ثناياه مقلوعة فإذا تكلم مع أحد جعل طرف سبابته على فمه ليسترها حياء

من ظهورها حتى صار ذلك عادة له، ولما بلغ شيخ العرب همام موته اغتم عليه غمًا شديدًا وكان يحبه محبة أكيدة وجعله وكيله في جميع مهماته وتعلقاته بمصر ويسدد له ماعليه من الأموال الميرية والغلال، ولما قتل الأمير صالح بك أقام مرميا تجاه الفرن الذى هناك حصة، ثم أخذوه فى تابوت إلى داره وغلوه وكفنوه ودفنوه بالقرافة، رحمة الله تعالى.

٣١٨ جعفر بن محمد البيتى السقاف باعلوى الحسينى.

[مات] وحيد دهره فى المفاخر، وفريد عصره فى المآثر، نخبة السلالة الهاشمية، طراز العصابة المصطفوية، السيد جعفر بن محمد البيتى السقاف باعلوى الحسينى أديب جزيرة الحجاز، ولد بمكة وبها أخذ عن النخلى (ص٧٦٤) والبصرى وأجيز بالتدريس فدرّس وأفاد واجتمع إذ ذاك بالسيد عبد الرحمن العيدروس وكل منهما أخذ عن صاحبه، وتنقلت به الأحوال فولى كتابة الينبع ثم وزارة المدينة وصار إماما فى الأدب يشار إليه بالبنان، وكلامه العذب يتناقله الركبان، وله ديوان شعرجمعه لنفسه فمن ذلك قوله:

حيى بكاسك لى مع نسمة السحر*
وسلسلى الراح من نحرى إلى سحرى*
حيى براحك ياروُحى على جسدى
فديك بالنفس ياسمعى ويابصرى
هبى بشمسك فى ظل الشباب وفى
ظل الغصون وفى ظل من الشعَر
هبى وشقى قميص الفى من قُبل
فالراح شقت قميص الليل من دبر

* السحر: بفتح السين والحاء هو قبيل الصبح.

* سحرى بفتح السين والحاء أيضًا بمعنى (رئتى). وقوله من نحري إلى سحرى أى من أعلى الصدر إلى الرئة.

ووسطى بيننا فى الشـــرب واسطة
من كـــأس ثغـــرك هذا الطيّب العطر

خـــداك والروض أزهار مـــضـــاعـــفـــة
وذى الدرارى وذى الكاســـات كـــالدرر

ناهيك من جـودة التـجنيس بينهـــمـا
مـــاأطيب الشـــرب بين الزهر والزهر

صُـفى قنانيك حـــول الكاس راكـعـــة
وحــــيـــعلى وأقـــيــــمى الوِتر بالوَتَر

دنيــاك مـعـشـوقـة والخـمـر ريقـتـهـا
ياضـيـيـعـة الـعـمـر بين السكر والسكر*

ردى عــهــودك لى كى أشـتكى حـزنى
إلى ربيـعى مـاكـــابدت فى صـغـرى

ومنها فى التخلص:

والجـــاهليـــة شـــتى فى فـــروعـــهم
وأصـلـهم واحـــــد مـن أول الـفـطـر

كل يميـل إليـــــه مـــايناســـبـــه
وليس ذاك بموقـــوف على البـــشــــر

مَـيْلى لأسـمـاء إسـمـاعـيل أوجـبـه
منه الجناس وأمـــر غـــامض النظر

وألفـــة من ألست* بيننا ســبـقت
ولم ألمهـــا وقـــد جـــاءت على قـــدر

فـحب سلمى وأسـمـــا زايل عـرض
والجـوهر الفـرد إسـمـاعـيل وهوحـرى

وهى طويلة، ومن شـعـره فى المجون مـاأرسل به إلى بعض أصحابه منها:

* السكر: بضم السين وسكون الكاف هو الاسم من سكر. أما السكر بفتح السين والكاف فهو الخمر.

* ألست : فـيـهـا إشارة إلى الآية الكريمة «ألست بربكم» والمقصود هنا هو تذكير المخاطب بما بينهما من مودة سابقة.

يـاابـن ودى وصـــــــديـقـى
حـــال مـــاتقـــرا البطاقـــة
البس العـــمـــة واحـــضـــر
ولايـكـن عـنـدك عـــاقـــة
واركـــب الأدهـــم واركُـــضْ
واغـطـه مـنـك الـطـلاقـــه
واكـــتـم الأمـــر وبـادر
غـــفـلة دون الـرفـــاقـــه
كُـــملَ الـوفـقُ الـثـــلاثـى
ولـنـا نـحـــوك شـــاقـــه
فـلـديـنـا كـــــأس راح
واصـطـبـــاح واغـــتـبـــاقـــه

ومليح أخـــجـل الأغـــصـــان لينا ورشـــاقـــة
ومليح يشـتـهـى للبـوس* إن شـئـت اعـتـناقـه
يبـــخس الآيار بالكيل ويســـتـــثـنى وثاقـــه
كـلمـــا اشـــتـــقـت إلى البـــر
جـــاس حـلـيـت نـطـاقـــه
مـن ورا يـعـطـى وقـــــدا
م مـــحـــبـــا وعـــيـــاقـــه
(ص٧٦٦) ونـديم فـى المـعـــاصـى
خـــارج مـن ألـف طـاقـــة
وهى طويلة (وله من أخرى).
قـــد خـلـيـنـا أمـس لـكـن
بـقـــيـت عـنـدى خـــبـلـه
فـــاســـقـنا واشـــرب إلى أن
نـبـق فـى المجـلـس مُـــثْـلـه

* البوس: بفتح الباء وسكون الواو هو التقبيل.

مـــايلذ السكر حـــتى
يمـضغ الـسكـران نـعلـه
ويـرى البــــغلـة ديـكـا
ويظـن الـفـــيل نملـه
اســمع القــسيس قـدِ دق
لـشـــــرب الراح طـبـلـه
غــفلة الواشى اغــتنمــهــا
لاتـكـن عـندك غـــــفـلـه
إن تـأخـــــرت قـليـــــلا
كـــتــبت ســبـعـون زله
خـل عـنـى قـــــــام زيـد
قــعـــدت هـنـد وعْــــبلـه
ضـــربـت تـضـــرب ضـــربـا
كـل ذاك الـصـــــــرف عـلـه
حــرت فى يعـــقـــوب والرمى مـــتى أعـــرف رمله

(من شعره).
سلم لمن رقـــاه حظ كـــمـــا
يُسَلّم الفـــرزان للبـــيـــدق*
فـطـاوع الـصــــانـع ثم انـطـبـع
بـكـل مـــــاشكـل فـى الـريـزق
(وله).
فـــضلك رزق زايد فـــوق مـــا
ترزقــــه مع ســـاير الخلق
لأنـــه لابـد مـن بـلـغــــة
ثم الحـــجـــا رزق عـلى رزق

* الفرزان بكسر الفاء وسكون الراء من قطع الشطرنج وهو كلمة فارسية معربة.

* البيدق: كلمة فارسية ترسم بالدال، ومعناها أحد جنود المشاة. وتطلق على إحد قطع الشطرنج.

(وله).

تجـــاوز عن مـــرام النطق منى
أرانى مـــايطاوعنى لســـانى
أخـــافك أولا إن قلتُ صـــدقـــا
وإن أكـــذب أخـــاف الله ثانى
فأسكت مطرقا حتى أرجح(ص٧٦٧)
مـقـالا مـعك فيـه صلاح شأنى
فـلا تنكر جـمـودى إنّ رقـصى
على مـقـدار تحـريك الزمـان
يصـدُّ المرء يومـا عن حـديثى
فـتـدخلنى البـلادة والتـوانى
ويقـبل لاسـتـمـاع القـول نحلى
فـأصـدع بالبـراعـة والبـيـان

(وله).

تحـرك لحـفظ الشيء عندك مـرة
فـإن أنت لمن تفـعل تحـركت أربعـًا
ومن تك قـد جـربتـه فـحـمـدته
فـعض عليـه بالنواجـذ أجـمـعـا
ولاتتـحـول عن أخ قـد عـرفـتـه
لآخـر مـاجـربتـه تندمـا مـعـًا
ومـالناس إلا كـالدواء فـبـعـضـه
شـفى وكـفى والبـعض اذى وأوجـعـا
ودار عـدوًا والصـديق لنفـعـه
فـمن لم يدار المشط ضـر وقطعـا

(وله).

كل امرئ شاوره فى صنعته
لاتسأل الخياط عن بحر الخشب
وقلد الحاضر فى الأمر الذى
قد غاب عنك فهو أدرى وأطب

(وله).

جميع أمورك اضبطها بحزم
وقدم ربط أقربها ذهابًا
وباب الشرع لاتتركه تلجأ
إليه أو لأضيق منه بابا
وكل قضية تخشى عليها
فأودعها شهودك والكتابا

(وقال فى سليم بعمل التبديل):

تقول أضنانى الغزال الألعس*
يحفظه رب للسما ويحرس
عواذلى إن بسلوى وسوسوا
لى مركز فى السقم ثوب يلبس

(وقال فى هلال بعمل الاشتراك والقلب وغيره):

واستفهمونى عن مليح ذاته
كالبدر بل صورته مرآته
فالنصف فى استفهامه أداته
ولاتدور آخر آهيناته

(فى ناصح بعمل التأليف والتشبيه وغيره):

ألبسنى هجرانه ثوب السقم
وصد عن عين الكرى فما ألم

* الألعس بفتح العين سواد مستحسن فى الشفة، يقال غزال ألعس أى فيه ملاحة وحسن.

وراح يقــرا فى الضــحى ثم ألم
فــصح ســقــمى بعــد نون والقلم

فى سمسم بعمل الحساب:

قــيــدنى على هواه وربط
ثم نأى عن المزار وشــحط
صحف فى كتاب عهدى ونقط
كان ودادًا فتعالى فهبط

(ص٧٦٩)(فى حصان بعمل القلب وغيره)

أهواه سحار اللحاظ والرنا
أهيفُ يزرى قده على القنا
أفنانى السقم ويانعم الفنا
مذ نهنه الناصح فيه فانثنى

(فى أسماء بعمل التشبيه والترادف):

سألته عن اسمه حين ورد
فقال ذا جميعه لمن قصد
فاستخرج الحية من بطن الأسد
وحطها فى ذيله من غير حد

(فى مسجد بعمل الترادف):

قامته كالسمهرى قامت
على دمى تبيحه ودامت
وعينه راومتها فرامت
كمثل عين قد غفت فنامت

(فى غزال بعمل الإسقاط والكناية والإدخال):

قامته السّرا * وأسياف المقل
غزوان شّنا الحرب فى سرح الأجل

* السرا: هى السراء وهى شجرة طويلة تصنع منها الأقواس فقوله (قامته سرا) أى أنه طويل القامة.

صـــامـــا عن الراحـــة فى نيل الأمل
وانتـــعـــلا من الحـــفـــا خفٌ جـــمـل

(فى إبرة بعمل التحليل):

قـــد واصلت كل المنى مـــضناها
وانهـض الشـــيخ إلى لقـــاها
فـــيالهـــا من ســـجـــدة فى طيـــه
حين أبى قـــدامـــهـــا وراها

(ص٧٧٠)(فى غمام بعمل الكناية والإدخال):

غـــلامك الهـــايم ياذا الرشـــا
أجـــزعـــه الواشى بما عنه وشـــا
عـــسى بما تدركـــه فـــينعـــشـــا
فـــؤاده إن الغـــلام عـطشـــا

(وقال فيما اصطلحوا عليه فى التشبيه):

وكل مـــااســـتـــدار مـــثل الخـــال
وكـــــوكـــب وقـطـرة لآلـى
للنقط مـــثل اللام للعـــذار
وقس بذا مـــاشـــاع باشـــتـــهـــار
كـــحـــيـــة وقـــامـــة وكـــالعـــصـــا
لألف تريدها مـــخـــصـــصـــا
وثم فن اللغـــز والمعـــمـــى
خـــصت من واجـــبـــه الأهمَّـــا

(وقال معارضاً قصيدة فتح الله النحاس):

رأى البق من كل الجـهـات فـراعـه
فـلاتنكروا إعـراضـه وامـتناعـه
ولاتســألونى كــيف بت فــإننى
لقــيت عــذابًا لاأطيق دفــاعــه
نزلنا بمرسى ينبع البــحــر مــرة
على غــيــر رأى مـاعلمنا طبـاعـه
نقـارع من جند البـعـوض كـتـايبًـا
وفـرسـان نامـوس عـدمنا قـراعـه
فلو عـاينت عـيناك مـيدان ركـضـه
رأيت جـرئ القلب فـيـه شـجـاعـة
(ص٧٧١) وجندًا من الفيران فى البيت كمنا
مـتى وجـدوا خـرقـا أحـبـوا اتسـاعـه
ومن حط شـيـئًـا فى جـراب وبطة*
فـمـا رام عند الفـأر إلا ضـيـاعـه
وسُــرْبة قــمل تنبــرى إثر ســربة
خـفـاقـا إلي مص الدمـاء سـراعـه
ينازعـهـا البُـرغـوث لحـمى فليتـه
رضى بتــلافي واكــتـفــينا نزاعــه
فلو يجــد الملســوع من عُظم مــابه
من الصـخـر درعـا لاسـتـخـار ادراعـه
قـرب قـمـيص كـان شـرًا من العـرى
إذا ضـمـه الملتـاع زاد التـيـاعـه
كــأنى وصى للبــراغــيث قــايمًا
أقــيت له أيتــامــه وجــيــاعـه
إذا شــبع الملعــون مج دمــا على
ثيـابى فـلا أحـيـا الإله شـبـاعـه

* بطة: وعـاء الدهن: وهو إناء كـالقـارورة أبطح.

فـــمـــــا رشنا بالدم إلا لـســـانه
ولم ترعـــينى مكره وخـــداعـــه
سلوا عن دمى سارى البعـوض فإننى
علمت يقـــينا أنه قـــد أضـــاعـــه
فلله جلد صـــار بالحك اجـــربا
أخـــاف عليـــه يافـــلان انقـشـــاعـــه
وعظم ســـلاق قـــد تولع بالخـــصـــا
وحـــر أذاب الجـــسم ثم أمـــاعـــه
ونتن كنيف كلمـــا هان عـــرفـــه
(ص٧٧٢)أحاط به واشى الهوى فأذاعه
بخـــار كنيف ربما جلب العـــمى
وســبب للآتى إليـــه الصـــراعـــه
فلو كـان يجـدى المرء تجـديعُ أنفـه
لود الذى يأتى الكنيف اجـتـداعـه
لو كـان قطع الأكل والشـرب نافـعـا
لآثـر بين العـــالمين انقـطاعــــه
وكـم قـــــد أكـلنـا نمـلـة وذبابة
وفـــارا بلعنا أذنه وكـــراعــــه
ومـــاء زلاع صـــار مـــعـــجـــون علة
شـــربناه كـــرها وادخـــرنا زلاعـــه
وباء وســـقم لامـــحـــالة كله
ونرجـــو من الله العظيم ارتفـــاعـــه
فـلا تعـذلوا المسكين إن عـيل صبـره
وأظهـــر من جـــور الزمـــان انفـــجـــاعـــه
فـقـــد مـــارس الأهوال فى أرض ينبع
ووطأ فـــوق الغـــانيـــات اضطجـــاعـــه

ذرعت العنا فـيـــه يمينا ويســرة
وصيرت صبرى والتأسى ذراعه وكشّفَ
فـــأعـــدلنى طول المقــام
عن وجــه اصطبــارى قناعــه
إذا زّنم النامـــوس حـــولى أعلنّى
وصـدع قلبى بالســجــوع وراعــه
وإن مص من دمى وطار تبــعـتــه
إلى فــانت منه أرجى ارتجــاعــه
(ص٧٧٣)عدمت غناء مثل أنغام سجعه
فـمـا كـان أشنى سـجـعـه وابتـداعـه
ضـعـيف قـوى لايسـتـقـر من الأذى
وأضـعف منه من يرجى اصطناعــه
وقـد نفـدت فى دفـعـه كل حـيلة
ولو كنت بالحـسنى طلبت اندفـاعـه
فـيـا لأصـيـحـابى اقـتلونى ومـالكا
فـقـد مـد نحوى مفـسدُ البق ورَعاعه
وأصـبــحـت فى دار المشــقــة والعنا
أخــالطُ أوغــاد الورى ورَعــاعــه
وكلهـا من الأعـراب* يهـوى كـأنه
يريد إذا لاقى الأمين ابتــلاعــه
فلو صـاح فـوق الصـخـر خـر لوقـتـه
وأبصـرت من ذاك الصـياح انصـداعـه
براه إلـه الخلق للنـاس نقــمـــة
وقـــد من الصـــخـــر الأصم طبــاعــه
فـلارحــم الرحـــمن أرضـــا يحلهــا
وباعــد عنا بالسنين العــجــاعــه

* فى ذم الاعراب.

ومن كل جبـار عنيـد يرى الورى
عبـيـدا لديه والبـقـاع بقـاعـه
شـقى عـصى الرحـمن فى كل أمـره
ومـال إلى شـيطانه وأطاعـه
فـقل لرعـاة الوقت إن نعـاجكم
أتاح لهـا ريب الزمـان سـبـاعـه
فـهل لكم فى لم شـمل الذى بقى
(ص٧٧٤)برأى بديع تحسنون ابتداعه؟
وإلا فـإن الأمـر لله كـله
ولا رأى فى خـرق يريد اتساعـه
سلونا عن الدنيـا فكل نعـيـمـهـا
مـتـاع غـرور لايديم مـتـاعـه
وما أعتـعت من كونى أديبا وفـاضـلا
لدى الناس إلا قـوله وسـمـاعـه
ومن كـان يرجـو فى الأمـانة مـغنمـا
فـخلوا له أوضـاعـه وخـراعـه
وقـولوا له هذاك ينبع حـاضـر
لمن رام يملو ضـره وانتـفـاعـه
فكم كـاتب أفنى اليـراع كـتـابة
ومل وألقى فى اليـراع كـتـابه
وكـم بدوى داسـه فـوق بطنه
ومـزق مـابين الأنام رقـاعـه
ومن جـاءكم منا مع الليل شـاردًا
فـذاك لهـول واقع فـيـه راعـه
ومن يمتنع عن خـدمـة مـثل هذه
فـلا تنكروا إعـراضـه وامـتناعـه

فــمـــا يكسب الكيـــال إلا غــبـــاره

ولا الكاتب المسكين إلا صــــداعـــه

(ومن إنشـائه) هذه المراسلة: إن أبدع براعـة يسـتـهل بهـا الوداد، ويدبج محاسنها كمال الاتحاد، وأجلى مذهب تسرع إلى معقله الهمم، وأحلى مشرب يكرع من منهله القلم، عرائس تحيات (ص٧٧٥) تزفها مواشط النسيم، وتحفها أتراب التكريم والتسليم يختام من مسك ومزاج من تسنيم، فتسفر بها أسفار المحبة، مع سفير أكيد الصحبة، محمولة على موضع الأخلاص، تالية لمقدم مزيد الاختصاص، شعر:

* رسالة أدبية من عهد الجبرتى.

قـــرنتـــهن تحـــيـــات يعـــززها

منى الســلام ووتر الحـمـد يشـفـعـهـا

تؤم مـــرتبع الآمـــال منتـــجع الإ

فـضـال بل مـشـرق النعـمى ومطلعـهـا

مـخـتـار رأى العـلا من راقـبـت قـدرا

به العناية حـــتى جل مـــوقـــعـــهـــا

فـــقـــيـل ذلك فـــضل الله من به

ونعـمــة الله يدرى أين مــوضــعــهــا

ولاجرام فقضاياه إلى الحكم موجهات، وأنواع أجناس وضعه مختلطات، وعلى وحدة الصانع تدل المصنوعات، ومولانا المشار إليه أو حدى من انطوى فيه العالم الأكبر، وانتشرت به آية الفضل المطوى المضمر، فهو فى الأسلوب الحكيم إقليم التعاليم. وفى ديوان الأدب لسان العرب، وفى عدل الميزان الحجة والبرهان والسلم إلى الإيقان، ولوجوه الأعيان مرآة الزمان، والقرآن الأوسط وفى الأقران، نكتة العقل

الأول ومشرعه، ونهاية كمال الطبع ومطلعه، (شعر):

يا له من صحيح نعتي حديثا
بحر فضل يرويه إبن معين*
رافع الوضع فهو فاعل فعل (ص٧٧٦)
أظهرته الأقدار في التكوين
معدن حل فيه جوهر علم
ليس في سر غيبه بظنين
مثل ما كانت والاهرام مبنى لكل معنى مصون
يتدلى طوراً وطوراً تراه
يتعالى على اختلاف الشئون
ماجد منطقي يقصر عنه
ليس قدر الميزان كالموزون
وإلى هاهنا وصلنا إلى النعت ومن فوق ذاك علم اليقين
لاخلاه الجميل يبقى ولازا
لت علاه الذرا ليوم الدين

(وبعد) فالموجب من المخلص لهذا التعهد، والمقتضى لمزيد التودد، هو ميل الروحانية إلى المناسب، وتألف الطبيعة بالملازم المتناسب، ولاغرو فإني لمزيد الاشتياق، وطباق بديع الاتفاق، شعر:

خلقتُ ألوفا لو رددت إلى الصبْا
لفارقت شَيْبي موجَع القلب باكيا

ومع ذلك فعلامات الأسباب في منهاج البيان، وتلخيص هذا النظام، تذكرة لتشحيذ الأذهان، وموجز ذلك على

* ابن معين: يقصد به محيى بن معين بفتح الميم وكسر العين وهو من القرن الثالث الهجرى ومن المعاصرين لأحمد بن حنبل.

قانون العادة، للشفاء بثمرة الإفادة، شعر:

نبض اشـتـيـاقى شـاهق مـتـواتر
(ص٧٧٧) عظيم ونبض الإذكار سريعُ
له حـركـات الكيف والأين نحـوكم
وباقى مـقـولات الوداد جـمـيعُ

وتلك نسبة تصديقها إذعان، ولازم نتيجتها برهان، وتلخيص مطولها بيان، ومازلنا نسأل معتل النسيم عن صحة الخبر، ونقنع العين بشـيـاف الأثر ، ونرجـو امع ذلك رفع أداة الانفصال، وحمل قضية الود على موجبة الاتصال، وإن سأل المولى عن القايم بوظيفة الأدعية، ورواتب الأثنية، فمازالت شعاب أكفه تستمطر غيوث الإحسان، ومقاليدُ دعائه تستفتح أبواب الامتنان من المنان، ولاسيما فى أوقات مظنة القبول، وتحقق بلوغ السول فى حضرة الرسول، فهو يُرْسخ ذلك فى سجلات الحسنات، ويؤبده فى تسطير الباقيات الصالحات، شعر:

وهذا دعـاء لو سكتُّ كـفـيـتـهُ
لأنى سـألت الله فـيك وقـد فـعل

فاذا ليس ذلك إلا من جهة واجب الإخاء، وملازمة فرض شروط الوفاء، فها أنا أعقد ألوية الثناء بذات الرقا ع، وأبث طلايع السؤال عن المخلص فى نفسه، لكشف لبسه، مع إخوان زمانه وأبناء جنسه، شعر:

فـعـبـدكْم مـخلص الوداد لكم
يبـات بالـذكـر ثانى اثنين
فنسـخـة الحـال مَـتْنُهـا جـمـل
وشـرحـهـا فى شـواهد العين

وقد سبقتم إلى ذلك بالنظر، وليس كالخُبر الخَبر، إلا أن يكون اللباس، قد أوجب الالتباس، وأضاع القياس، فأطفأ النبراس، وهدم الأساس، وجمعنا مع آحاد الناس، فلا غرو فطالما حاولت الإيقاع، وتوخيت موافقة الأوضاع، ونظرت فى تخت الحسبان لطريقة الاجتماع، شعر:

ولما أبى الإنتاج شكلا مناسبًا
تولده الأقدار فى الخط والرمى
وقفتُ أغنى للأصم مغردًا
وأرقص فى ليل الجهالة للعُمْى

فالمدلى بالطبع لايستغنى عن الجمع، ويعرض عن رسالة البحث إلى علم الوضع، وإذا كان الأدب فى النفوس، فالحقيقة من وراء المحسوس، وعلى اختلاف الشئون، يجمل بى أن أكون. شعر:

يومًا يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمن
وإن لقيت معديًا فعدنانى

فليس الرشيد إلا المتوكل، والاالراضى على القدر إلا الموفق المتجمل، والطائع مأمون العواقب، والمْنصور بالعز ليس له غالب، فلا أعلم من التصريف إلا باب المطاوعة، والانفعال، ولا أجهل هذا الأدب إلا التنازع بين الأفعال، والخوض فى مجمع الأمثال وعقم الأشكال، وماعسى أن أفعل، وإلى أى مرام أتوصل، إذا نازعت فى قول الأول. شعر: (ص٧٧٩).

فاقبلْ من الدهر ما أتاك به
مَنْ قرّ عينآ بعيشه نفعه*

ثم إذا قلبت ظهر المجن على الزمن، فقلت إنَّ حاطب ليل، جامع بين الحشف وسوء الكيل، وقد تشوش ذهنه فى

* هذا البيت للأضبط بن قريع وهو شاعر جاهلى وقد جاء هذا البيت فى قصيدته المشهورة:
لكل ضيق من الأمور سعه
والصبح والليل لابقاء معه

التصريف، وماله عن النكرت من التعيرف، حتى صرف مالاينصرف، وصرف الكامل عن دائرة المؤتلف، وقفا بالمحن سناد الإشباع، وأردف له ذلك مع شهر الامتناع، فقصيته معدولة عن الكرام محصلة للئام، خارج بعضها عن النظام، مولودة لغير تمام، فمن لي بمن أقضى عليه بكتاب الضمانات، وحكومة الكفالات، ومسائل العقل والديات، لاسترجاع مافات، مالا يوماً إليه ولايشار. شعر:

سبحان من وضع الأشياء موضعها
وفرق العزّ والإذلال تفريقا

والعجب شيء ظهر أمره، وخفي سره، فالمعترض حينئذ كالمتأمل المستفيد، وأنّى له التناوش من مكان بعيد، بل أكون كالماء فأتبع السهول، وأراقب القسمة حتى تعول، ولاأتبرم ولا أقول:

إلى الله أشكو أن في النفس حاجة*
تمرُّ بها الأيام وهي كما هيا
ولكنني راضٍ بأن أحمل الهوى
وأخلص منه لا عَلَيَّ ولا ليا*

وربما يقال إني نقضت وضوء الأدب، وتعديت (ص٧٨٠) ميقات النسب، ولم أحرم بالتجريد من دناءة المكتسب، ولاسجدت للسهو عن حقوق الحسب.

من تردى برداء
لم يرثه من أبيه
سوف يأتيه زمان
يتمنى الموت فيه

فعلى ذلك إن ثبتت الجنحة، فالمحنة في تلك المحنة، وشر مايلجئك إلى مخيسة* عرقوب، ولاسيما وقد

لاتحقرن الفقير علك أن
تركع يوما والدهر قد رفعه
وصل حبال البعيد إن وصل الـ
ـحبل واقص القريب إن قطعه
قد يجمع المال غير آكله
ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه
ويلبس الثوب غير من قطعه
فاقبل من الدهر ما أتاك به
من قر عينا بعيشه نفعه

راجع الجزء الأول ص ١٠٣ من كتاب مواسم الأدب وآثار العجم والعرب للسيد جعفر بن السيد محمد البيتي العلوي.

* هذان البيتان لعبد الله بن المعتز راجع الجزء الثاني ص ٣٨ من كتاب مواسم الأدب المذكور.

* مخيسة: هي خلف الوعد.

ضعف الطالب والمطلوب.

مـــامـــحــــوج نفـــســـه إلى ســـبب
إلا لأمـــــــر يئـــــول للســـــــبب
تلجى الضــــرورات في الأمــــور إلى
سلـوك مــــــــالا يليـق بـالأدب

وإن أكن قد خالفت الأكياس، وتخلفت مع الناس، وصبحت الرضا لتهجمي آل العباس، فإن الماء في بابه، مفوض إلى رأى المبتلى به والدخيل في دائه، أعلم بدوائه عند فقد أطبائه، وهل هم في معنانا إلا الكرام، ومساعدة الأيام؟ وهبنى كفلت نتيجة الدهر*، ودمية القصر في أبناء العصر، وقلدتها قلائد العقيان، وعقود الجمان، مفصلة بجواهر النصوص ومعادن الفصوص، وأقطعتها رياض زهر الآداب وغياض آداب الكتاب، وأسكنتها علالى المقامات وعلوم الطبقات، وتهذيب الرياضات وسير الفتوحات، إلى إدراك الممكنات، ثم قلت أين بغية الحفاظ، وابن جلا وخطيب عكاظ (شعر).

لو علم الحى اليـــمــــانون أننى
(ص٧٨١) إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

فمن لى بمن يميز بين الضدين، ويقدم الجمعة على الاثنين، ويميل إلى الكشكول علن كتاب العين، وإن فضل لذلك أرباب، أو كان في الجعبة نشاب*، فالمعاصرة حجاب، والتفاخر سور له باب، فما بقى إلا التشاغل بالسلوان، وبكاء العيون لوفيات الأعيان، ومراقبة المطالع لنصبات الطوالع، وبلوغ المقاصد من تلك المراصد، فقديما قيل من طلب شيئًا قبل الوقت، لم يجن من ثمرات أمانيه إلا المقت، (شعر).

* هذا ومابعده أسماء لكتب معروفة فى فنون مختلفة.

* النشاب: السهم.

دعــهــا ســمــاوية تأتى على قــدر
لاتعــتــرضــهــا برأى منك تنخــرم

فمن الخسران جهل الأوزان، ومساعدة الأبدان قبل معرفة البُحْران*، فربما كان فى أسطرلاب السعادة، مايخالف العادة، ويبلغ الحسنى وزيادة؛ هذا والمطلوب من المولى تعهدنا بالذكر، وحضورنا عند الفكر، فلعلنا نصادف قدرا به ليل الحظ يقمر؛ وفجر الإقبال يسفر، وربما طلعت من مشرقكم شموسه وأقماره، ووضح لذى عينين صبحه ونهاره، فلنا فى الغيب آمال، وفى كنانة الأدعية سهام ونبال، ومن حسن الفال، حاسب ورمال، وبميدان جميل الظن مدار ومجال، وإلى عالم السر جواب وسؤال، وفى فتح القدير مستند ورجال، وعلى ضوء مشكاة المصابيح تقرأ نسخة الحال، فإن فى عياضها (ص٧٨٢) شفاء؛ وفى خلاصتها وفاء، وفى كنز الكافى معادن، وعلى وجوه التفويض تلوح المحاسن، ومن دخل حرمه كان آمن (شعر):

تلك رؤيا قــصــصــتــهــا لك فــانظر
لىَ فــيــهــا التــأويل والتــعــبــيــرا
وعــــرضنا فلزات حظ غــبــيــط
وأفــــضنا لرأيك التــــدبيــــرا
ولك الأمــر فــيــه حــلا وعــقــدا
ربما عــــاد ثابتًــــا إكــســيــــرا
صح قلب العــيــان فــيــه وأضــحى
جــــابر قلبــــه به مكســــورا
ثم قلنا للكيــمــيــا ســـلام
قــد كــفــينا التــصــعــيــد والتــقــطيــرا

* البُحْران: بضم الباء وسكون الحاء، شدة المرض.

وفــــرغنا ننظم الدر من مـــعــ
ـنى مــســاعــيك غُــدوة وبكورا
واشــــتــــغلنا مع المحــبين نتلو
لك فـــرقـــان مـــدحــــة .وزبورا
فنســاقى من تلك كــأســا دهاقــا
كــان فــينا مــزاجــهــا كــافــورا
شِـيــمًــا لو تجــســمت منك كــانت
هى لــلــنــاس جــنــة وحـــــريــرا
مـــعـــدنًا تلقط المســـامع منه
حين تلقــــيـــه لؤلؤا منثــــورا
وبديعـــا من العــــلا مـــانظرنا
(ص٧٨٣) لمراعـــاته هناك نظيـــرا
وإذا مــــــــارأيت ثَــمْ مــن المجـــ
ـــد مــقــامــا رأيت ملكا كــبــيــرا
أبدا فى مــواكب الفــخــر تســتــعــ
ـــبــد كـــســرى الملوك أو ســابورا
غـــفـــر الله ســيــئـــآت زمـــان
ســـاء قـــدمًـــا وعـــاد منك بشـــيـــرا
مـــثل يعـــقـــوب وابنه ثم لما
جـــاءه ارتد بالقـــمـــيص بصـــيـــرا
وتــولــى جـــــــزاءه الــلــه عــنــا
إنه كـــان ســـمـــيــــه مـــشكورا
ياالإنســـان رفـــعــــة أنت فـــينا
يرجــع الطــرف إن رآك حـــبــــرا
بيت حـــبى مـــازال فـــيك مـــدى الد
هر دوامـــا مـــشـــيـــدًا مـــعـــمـــورا

نقــــشــــبندى الولاء فــيك مــلامى
مــــولوى الســـيـــر باطنا وظهـــورا
ووداي أبــو يـزيـد وأقـــــــــــصـى
طـوره طـورا طـور ســــــيـنـاء طـورا
فــتــــقـــبل إليك حـــور مـــعـــان
قـــد سكنّ الألفــاظ منى قـــصـــورا
وكـــمـــيت من القـــريض كـــمـــيت
دونه جـــــر فـى الرهـان جـــــريرا
ملكا فى خـلافـة الشـعـر جـا بالنـ
ـشـر مــعــه مـصــاحــبًـا ووزيرا
(ص٧٨٤) وابق واسلم كما تشاء المعالى
تبق ذكــرى خـــيـــر وتفنى الدهورا
أبدًا كلمــــا خــــصــــصت بمدح
وســعى نحـوك القـريض ســفــيـرا

* رسالة ادبية من عهد الجبرتى.

(وكتب إلى عبد الرحمن السّيورى) أهدى جزيل سلام ألذ من الوصال فى طيف الخيال، وأحلى من الإقبال بالآمال، وأحب من الإتحاف بالإسعاف، وأعذب من الورود على حياض الوعود، وأعشق إلى الطالب، من حصول المآرب، وأكرم من الغمام، بإهداء جزيل السلام، أريجا يكمه الزهر فى أكمامه ويلمه الجيد فى نظامه، ويجعله الرحيق من ختامه، والشغر الشنيب تحت لثامه، نودعه النرجس فى جفونه، ونلقنه الحمام فى سجعه على غصونه، فيحمله النسيم على متونه بجميع فنونه، إلى حضرة إنسان العين بالكامل، ورأس أدب الكاتب فى صدور المحافل، ومن سحب البلاغة على سحبان، وجر على المجرة سرادق العز والإمكان،

وسيط النسب إلى الأدب، وطراز الفخر على جبهة الدهر، المخصوص بخالص الود وأكيد المحبة، على مراد الوفاء بشروط الصحبة، المكرم الأجل عبد الرحمن بن مصطفى السيورى، أطال الله عمر سعادته، وخلّد دولة سيادته (شعر).

وبعد فالشوق إن تسأل فإن له
شواهداً وسؤالى منك أصدقها
(ص ٧٨٥) وإن فى البعد ماينسى الأخوة
والتسآل عنك بلا شك يحققها
فكيف أنت وكيف الحال دمت على
ماكنت من شكر نعمى فيك ترزقها
سوى المودة فيما بيننا فلقد
رأيت منك يد السلوى تمزقها
وذاك مع طول عهد بالإخاء مضى
عمر الصداقة حتى شاب مفرقها

فإن لم يكن إلا الملال، فلاجدال، وإن أوجب ذلك لذة الجديد: فحرمة العتيق لاتبيد، أو كانت القسوة عن شهوة فالاعتراض يرد الإعراض و، إن كان الترك بلا سبب، فهو من العجب (شعر):

وإن أحلت على حظى اعتذارك لى
خرجت عن عهدة التعنيف والعتب

ولكن أين الفضايل؟ وكيف تلاشت الفواضل؟ تحمل التحمل وأجمل عن الإزماع التجمل، وتقاصر الطول والتطول، حتى وكلت غيرك من الأنام، فى إهداء السلام، وجاءنى بشير المواعيد، على بريد، فملت إلى النفس أبشرها، وعلى الفرش أنشرها، وإلى الزلاع أنظفها، وعلى الفقاع*

* الفقاع: بضم الفاء وتشديد القاف ضرب من النبيذ.

أصففها، واشتغلت باللحية أسرحها، وأهل الحارة أفرحها، ثم ذكرت وصول الحبوب فى الغبش، فعبيت الخيش وقلت ربما يصل التمر فى العصر، وياترى (٧٨٦) تلك البضاعة تسعها القاعة؟ أم لابد من توسعة الضيق، لتلك الصناديق، وكيف نعين الزبون، لاقتراض العربون، وتسليم الجماله*، إذا وصلتِ تلك الرسالة، ثم أنشدت وأنا أدور مابين الدور (شعر):

لا بشرى لجيرانى
مع الأصحاب والأهلِ
فقد جاد لناالمولى
محل الجود والفضل
ولابد لأصحابى
من الإنعام والبذل
لهم منى مدى الأيام فضل الزاد والأكل
وكل يكتسى منى
على الهيئة والشكل
من الفرو إلى الجوخة للعمة والنعل
وأيضاً خلعة اعطى
من الرأس إلى الرجل
إلى السرج إلى الرحل
إلى القتب* إلى الجل*
فعجل ياغلام الخير خيراتى على الكل
وناد الأهل والجيرا
ن وابعث نحوهم رسلى
وخاطبهم إذا اجتمعوا
بدق الزير والطبل

* الجمالة: بفتح الجيم وضمها معناها قطيع الإبل.

* القتب: بكسر القاف وسكون التاء البردعة.
* الجل: بضم الجيم وفتحها ماتلبسه الدابة لتصان به، والجمع جلال وأجلال.

وقل هذى مضايفنا
وهذى قدرنا تغلى
من اللحم إلى الرز
إلى السمن إلى البقل
وأنواع من المشوى والمغلى والمقلى
وأجناس من الزريا
ج بالمشمش والخل
ولاتخرج بأضيافى
إلى الشمس من الظل
وأما النقد فالحاضر عامود وفندقلى
ومن يطلب زنجرنا
ه إن شاء بزنجرلى
فدعنى ألبس التا
ج بهذا المجلس الحفل
وإن كنت تنحنحت
انا يا عبد نعم لى
(ص٧٨٧) ترانى مقصد الحاجا
ت لابعدى ولاقبلى
ترانى أقتل الأقرا
ن يوم الحرب من مثلى
وإن كنت تريد الحر
ب هذى الخيل ياخلى
فقل ماشئت فى قولى
وقل ماشئت في فعلى
وإن كنت توضأت
على قصد الثنا صلى

وصف جـــودى وصف عـــودى
وصف ســيــفى وصف نصلى
فــهــذا الحــبس مــلآن
من الأعـــداء كــالنمل
وهذا الخــيــر مطروح
على الطرقــات والسـبل
بصــيــتى سـارت الركـبـا
ن من وعـــر إلى ســهل
هنيــئى اليــوم بالأمــوا
ل قــد أصــبــحت درهم لى

ثم أخذت الإبريق، وملت عن الطريق، واستكت واغتسلت، وتوضأت واكتحلت، وتنحنحت وسعلت، وخرجت ودخلت، ثم ملت إلى الصندوق وألقيت القاووق، ولبست الزربفت*، من فوق التفت، وتدرعت بالسمور، وجلست على تخت التيمور، ثم خلعت على العتالين، وقدمت أجرة المخزنين سبع سنين، ثم إنى كررت المخبرة، وطالعت الورقة بالمنظرة، فإذا السكر المكرر قد تسطر، وإذا البن المحزوم، ولطايف الملبوس والمشموم، وتأملت فى هامش الكتاب، فإذا جراب وفيه الوعد بكل نفيس، وفى ضمن الجميع كيس، وفيه المنة بمفاتيح قارون، ومقاليد القلاع والحصون، والوعد بطلسم الأهرام، وكتاب العهد على اليمن والشام، (ص٧٨٨) ولم أجد العهد على الصين، ولافارس وقزوين، وأرض الدروب وفلسطين، فحصل لى العجب العجاب، وقمت إلى الجراب، بعد إغلاق الباب، وقد أذكيت المصباح، وفتشت إلى الصباح، وإذا كتابان قد كتبا

* الزربفت: كلمة فارسية معناها الثوب المطرز بالذهب.

بالزعفران، وضمخا بالعبير، ولفا فى حرير، فى الأول ملك خرسان، وتقليد الشحر * وُعمَان، إلى إقليم السودان، وماوراء النهر وعبّادان* إلى جزيرة العرب، وغَوطة دمشق وحلب، ولم يزل ينعم وعداً، ويهب، ويجئ بالعجب، وفى ذيل المنشور، وتمام المسطور، تفضل بالأقاليم وأنعم بتاج العز والتكريم، فسجدتُ لكرمه،وشكرته على نعمه (شعر):

ثم رتبت دفـــــتـــــراً للمطايا
وقـــســـمت البـــلاد بين الأخـــلا
قلت ذاك الصـديق أعطيــه صنعــا
فى بنى حـــمـــيـــر الكرام الأجـــلا
وعلى فـــارس صـــديق وأرض الروم
ثان والهند أوليـــــــه خــــــــلا
حـــاصل الأمـــر أن كل مـــحب
لى على قـــدر حظه يتـــولى
وأنا فى الســحـــاب بيــتى وتخــتى
كل يوم إلى الســمـــا يتــعلى
واقـــتــرضنا فى الحـــال ألفين دينار
انقــضى بهـــا هناك شـــغـــلا
واشــترينا خــمــسين عــبـداً خـصـيـا
منهُم نـصـف ذاك إلا أقـــــــلا
واســـتــــعـــرنا لهم ثلاثين قـــاوو
قا على رأسهم وللرِجل نعلا (ص٧٨٩)
ثم ناديتــــهم وقلت هلمـــوا
فـــادخلوا هذه الطوالة قـــبـــلا
كل شـــخصٍ منكم حـــمـــاراً ينقّى
ثم شـــيخ العـــبـــيـــد يركب بغـــلا

* الشحر : بفتح الشين وكسرها مع سكون الحاء هو ساحل البحر بين عمان وعدن.

* عبادان: بفتح العين وتشديد الباء جزيرة أحاط بها شعبتا نهر دجلة عند رأس الخليج الفارسى.

وخـذوا ذا الســلاح سـيــفًـا ورمــحًـا
ودروعًـــا تـســمــو وقـــوسًـــا ونَبــلا
واعـــرضـــوا نفـــسكم عليّ فـــإنى
أشتــهى العـبــد فى الســلاح المحلى
واقـــعــــدوا عند بابنا ثم قـــولوا
يوم الحـــمـــول أهلا وســـهـــلا
ثم إنى فكرت إن أصبح الخيـر علينا مـاذا نقـدم فـعـلا
قلت حط القـــمـــــاش والبن فى
المجلس واجـعل باقى التـفـاريق سـفـلا
ثم هذا المكان يحـــمل حَـــملين
وهـذا المكان يحـــمل حـــمـــلا
هذه صـفـــة نحط عليـــهــا المسك أم هذه بذلك أولى
هـــذه لـــلـــزبـــاد* تحـــمل قـــرنًا
وهـذه يافــــلان تحــــمـل رطلا
ياتري تحـــمل المخـــازن عـــشــرًا
من هذا يافـــضـل الســـيـــورى أم لا ؟
ياترى يغبشون أم تطلع الشمس عليهم أم مايجيئون أصلا ؟
ص(٧٩٠) اضـــربوا مندلا لنا ياثقـــاتى
ربمـا يـحـــــصل المنا ولعــــــلاً
دخـــنـــوا دُخـــنـــة* التــهـــاطيل قــولوا
ياطهـــاطيل طهطهـــيـــلات طهـــلا
ألوحـــــا ألوحـــــا ططاطيل طيطا
طوطيـــــا طوطيــــا طلاطل طلا
هاتْ لى ياغـلام زايرجـة الرمل عـسـانى منه أخـرج شكلا
إن ترى فى الطريق غـــيـــر المطايا
تتـــهـــادى فـــحـــبـــذا الرمل رمـــلا

* الزباد: بفتح الزاى والباء نوع من الطيب والقرن بفتح القاف والراء الجعبة بفتح، الجيم والمقصود هما مايرضع فيهم الطيب.

*الدُخنة: بضم الدال وسكون الخاء نوع من البخور.

ثم ملت بإنسانى، إلى المكتوب الثانى، وإذا علم استخـارج الطلاسم وخبر الملاحم، والتوصل إلى فتح الأهرام، فى ثلاثة أيام، ومعرفة ذات العماد، فى أى البلاد، والإتيان بعرش بلقيس، بتدبير المغناطيس، وفيه استخدام الكواكب،ومعرفة كل غايب، وبيان علم الروحانيات، ودعوات العليات، وضبط الدقايق الفلكيات، وملكوت الأرض والسموات، وأنه يكشف لنا رموز الكيميـاء، ويعلم طرايق الزايرجات والسيمياء، ويدل على بير الملكين ببابل، ويستخرج علوم الأوايل، ويعزم على الوحش فيجلبها، وعلى الجبال فيقلبها، وعلى الغمام فينزله، وعلى الريح فيحوله، وعلى النجوم فينثرها. وعلى القبور فيبعثرها، وإن الجميع يصل على الفور، وفى هذا الدور، وأن ينتف لحية المكذب، قبل أن يجرب، ويقص سبال المنكر*، إن لم يؤمن بما يخبر، (ص٧٩١) فقلت آمنت بما قاله سبحان من أعطاه ذا الاقتدار أستغفر الله السيورى مايعرف ياأخوان قول الفشار، ثم شرعت أعبى الخيل والخول*، وأجيش بجميع الدول، للقاء ذاك الأمل، ولم نزل نبث الطلايع، ونتوقع الطالع، إلى أن أتى الأبد على لبد، ولم يصل أحد، فثارت الفتنة بين الجنود، لتأخر الوعود، ووقعت البسطامية والبسوس، لحصاد النفوس، وتقصفت الأسنة، وتقطعت الأعنة، وتثلمت السيوف، وتماوجت الصفوف، وسال جيحون والفرات، بدم الأموات

ومازالت القتلى تمج دماءها
بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ولم يبق أحد من الجيشين، إلا صلى على وعدك ركعتين، ورجع بخفى حنين، ثم إنا احتلنا فى إطفاء نار الفتنة، بطلب هدنة، إلى أن يصل إليك الكتاب، ويرجع

*السبال بكسر السين جمع سبلة هى الشارب.

*أخول: بفتح الخاء والواو الحشم والعبيد.

الجواب، وقد أمـرنا السفير إذا وقـف بين يديـك أن يقـرأ عليك:

قل للخليل الذى أنهى لحـضـــرته
خــلاصـة الوُد من سـرى ومن علنى
ومن مـدى الدهر أدعــو فى سـلامتــه
من الردى وهى من قصدى ومن شجنى
ياذا الذى وعـــد المعــروف ثم مــضى
لذاك عــمــر الأمــانى والزمـان فنى
ومن على مـذهب الحـسـبــان ملّكنا
كنوز قــارون من مـصــر إلى عـــدن
إن كـان عندك محض الوعـد تحـسبـه
أصــلا من الجــود أو فــرعًـا من المنن
فــعــد بحنطة بولاق وقل مـعــهــا
مع ســاحل البن غــابات من التتن*
وافــرض بأنك قــد قلدتنى عــمــلا
بالهند أجـبى صنوف الخــز والقطن
وولنى ســاحل البــحــرين أجلبــه
بســوق ســعــدك بازارًا بلا ثمـن
وجـد بإيوان كــسـرى والخـورنق والـ
ـقـصـر المشيـد وملك الشـام واليـمـن
واعـقـد لى التـاج رغـمـا منك واجعلنى
على طوايف ذى القــرنين فى المدن
وقل وهبــتك مـــافى الأرض من نعم
باللحم والجلد والأصــواف واللبن
ولاتكن خـشـيــة الإنفـاق مـقــتـصـرًا
مــادام كنزك من وعـــد فــأنت غنى

* التتن بضم التائين وتكتب أيضًا (توتون) وهى كلمة تدل فى اللغتين الفارسية والتركية على التبغ الذى يدخنه الناس ويقال للتاجر الذى يبيعه (توتونجى).

لله وعـــدك منذ عـــامين أنشـــدنى
أنا المعـــيـــدى فـــاســـمع بى ولاترنى
خـــذ منى علومى ولاتركن إلى عـــملى
ولايغــــرنك منى خـــضــــرة الدمن
فـــقلت أجـــرى عند الله أطلبـــه
حـــولين ياوعـــد تسـقـبينى وتطعـــمنى
من العـجـايب أبديت الشـجـاعـة فى
وعـــدى وعـــدتُ أكلت الخـبـــز بالجبن
مـــبـــالغـــات من الأقـــوال تســمـعـــهـــا
لو كن فى البـحـــر ريحـا طرن بالسـفن
(ص٧٩٣) ياذا الذى جادفى الأحلام لى كرما
يهنيك أنى قـــد اســتـــغنيت من أذنى
فـــلا تكن تقطع التـــشـــريف عنى فى
كـــتـــاب ودك لى فى لفظك الحـــسن
حـــتى أفـــوز بملك الأرض منك ولا
أرضى بأنى فى غُـمـــدان* ذى يـــزن
وخـــذ ثوابك وعـــدا مـــثل وعـــدك لى
هـذا بذاك ولاعـــــتـب علـى الزمـن

* غمدان: بضم الغين وسكون الميم من قصور اليمن القديمة.

(وكتب) إلى الشيخ عمر الحلبى على لسان تلميذ له:
أهدى جزيل سلام مازال دايرا بمركزه محيطه، وواقفا على مركَّبه بسيطه، سلاما أنظم به الدرارى والدرر، وأنثر به المنثور والزهر، وأستخدم له بهرام والقمر، سلاما منشورة الويته على عمود الصباح، موعودة سرية همته بظفر الافتتاح، سلاما تشير إليه الثريا بكفها والجوزاء بشَنَفها* والزهرة بطرفها والدقايق بلطفها عند كشفها، سلاما تتلقاه الشعرى

* الشَنَف: القرط.

العبور للعبور ويقوم له زيد الوداد بالمرصاد فيعرض عليه شقيق رمحه، والمعلى قدحه، وابن جلا عمامته، ومرجف لأمته، جامعا بين الجد والهزل، والإرفال* والرمل، مخصوصا به حضرة محيط مركزى بعنايته، وهيكل سرى بحمايته، نكتة الفلك، وروحانية الملك؛ ونفحة القدوس، المشرقة على النفوس، الفايز بفصوص الحقايق، وكنوز الدقايق، والحايز معانى الإشارات، فى أبواب الفتوحات (٧٩٤) الشارب من العين بكشكوله* والملقى عصا السير فى ساحة وصوله، ركن ذا الفضل وإسطقصه* وجنس نوع الكرم ونفسه، شيخى وأستاذى الشيخ عمر، لامعدولا عنا لقاطع، غير منصرف عن المقتضى بالمانع، آمين، وبعد التقرب بنوافل الأدعية، والتحبب برواتب الأثنية، صدورا عن فؤاد قايمة زواياه فى الوداد، مستقيم خط هواه فى كمال الاتحاد، غير منقسم جذره الأصم عن العذال، ولامجتمعة له ضروب اللوزم فى مثال، فهو لاينكسر إلى السواد فيتخصص، ولايختلط فلزه* بالأغيار فيتمحص، من مخلص يطرح الألف، ويأخذ الواحد بالكف، ويستخرج مجهول الأغيار، وينفض التغيير بقلم الغبار، حتى يحصل له بالجبر المقابلة، فى مديح ذوى الإمعان والمحاوله، فيأخذ هناك ارتفاع الشمس، بأسطرلاب* تهذيب النفس، ويترقى فى درج المعانى، باطراح التوانى وطرح الثوالث والثوانى، وماذاك إلا لإضافتى لعلمكم بعلمكم، وشربى من كرمكم بكرمكم، وتمييزى فى هذه الحال، ببدل الاشتمال، ولاسيما بعد وصولى مآأشاء إلى جهتى وصح به أملى عن الخروج من جدولى ولى ولى، فلازال كيدى أهل الفضل واسع البذل بسيط النوال، وافر مديد الكمال، متداركى إلى مداركى،

* الإرفال: الإسراع فى قطع المفازات فى الصحراء.

* الكشكول: هنا بمعنى الفنجان.

* الإسطقس: فى اللغتين الفارسية والتركية بمعنى العنصر أو الأصل.

* فلزه: ويطلق على البرونز والنحاس والمعادن بشكل عام.

* أسطرلاب: بضم الهمزة كلمة فارسية معناها آلة فلكية لتحديد ارتفاع الاجرام السماوية عن الأفق.

وسايرى فى سايرى ومفيقى من سكر تلفيقى إلى توفيقى، ومحررى بضبطى من خبطى فى خلطى، ورفيقى فى تشويقى إلى تحقيقى (ص٧٩٥) يرحل بى إلى المختصر عن المطول، وينزل بى عن المعاهد فى البديع الأول (وقال):

وخمرة من معان
حلت دنان الحروف
جلت كدورات حسى
حتى تلاشى كثيفى
ولاعجيب لصفوى
لأن ذا الروح صُوفى

(وله عفا الله عنه):

لعمرك أنت كتاب الكمال
بآياته يظهر المضمر
وشعرى عنوان ماقد حواه
وفيه انطوى العالم الاكبر

(ومن التحميضات*)

قل لأشياعى الذى صحبونى
ثم راحوا من بعد مُعتزليه
ولأنصارى الذى خذلونى
وابتعاضوا سوى أنصاريّه
عفتمو نصف أمردَ كوسجيا
وانفردتم بمذهب الموصليه
لاتظنوا فى عفتى هى ماهى
أنا قلدت مذهب الباحيه
أى ذنب جنيت حتى استرقتم
نفسكم للمقيل وقت العشيه

* التحميضات: وردت فى بعض النسخ المطبوعة مرسومة «التمحيضات» وهو خطأ والتحميضات هى الانتقال من الجد إلى الهزل.

واحـــد راح من زقـــاق القـــشـــاشى

يتـمـشى فى هيـئـة مـخـفـيـه

ورجـــال من البـــرابيخ جـــاءوا

ورجـــال من تحت جـــدر التكيـــه

واحـــد حـــامل كـــتـــابا يورى

أنه ســـاير إلى الكُتـــبـــيـــه

وأخ قـــال قـــد شـــربت دواء

وأريد الإســـهـــال فى العنبـــريه

وصـــديق ســـألتـــه أين تبـــغى

فلوى رأســـه وقـــال قـــضـــيـــه

قـــد نذرت الصـــيـــام شـــهـــرًا ولاء

وشـــرطت الإفطار بالعـــدســـيـــه

لاتخـــبث نفـــسى بذكـــر الكوازى

واللوازى والـوزة المحـــشـــيـــه

أنا لاأشـــتـــهى الكـبـــاب ولاالرز

ولا زربـــاج ولاالـــلـــبـــنـــيـــــه

قـــد زهدنا فى كل مـــاتشـــتـــهـــيـ

ـــه النفس حـــتى الدجـــاجـــة المقليـــة

عـــفت كل الطعـــام قلت فـــمـــا المو

جب قـــال اللحـــقـــوق بالصـــوفـــيـــه

وأتى آخـــر فـــقلت ســـلام

فـــســـعى مـــســـرعًـــا ورد التـــحـــيـــة

ووراه شـــخص يجـــر خـــروقـــا

حـــامـــلا تحت كـــمـــة مطبـــقـــيـــه

قلت مـــاالحـــال قـــال قـــد شـــرد العـــبـ

ـــد بشـــالى والفـــرو والفـــرجـــيـــه

(ص٧٩٧) قلت قد مر عبدكم بطعام
وشـــراب من قـــبلكم من هنيـــه
قـــال عـــبـــدى ياقـــوت قلت نعم
قـــال لقـــد بعـتبـه نهـار الضـحـيـه
اسم هذا الماس قـبـحـه الله وأيرى فى است أمـه الزنجـيـه
ثم ولى عـــجـــلان قلتُ انتظرنى
أطلب العـــبـــد مـعك للتـــربيـــه
(ص٧٩٩) (فى المطبوخ وعمله)
أنـا أولـى بـالجـــــــرى منـك لأنـى
مـــاطعـــمت الغـــدا وبطنى خليـــه
قـــال أقـــعـــد بالله ربك أقـــعـــد
بالنبى باليـــهـــود بالعـــيـــســـويه
مـــايفـــوت العـــبـــيـــد وهو قـــريب
حـــول نخل الإمـــام والكركـــيـــه
ثم إنى ســـألـت عن واقع الحـــا
ل وتلك القـــضـــيـــة المخـــفـــيـــه
فـــإذا أنتم كـــمـــا قـــد ذكـــرنا
لاوفـــا لاحـــيـــا ولاعـــصـــبـــيـــة
(وقال من أرجوزته الطبية)
ومـــفـــردات من مـــركب اضـــبط
أصـــولهـــا والحب لاتفـــرط
أو مـــعـــدنا والصـــمغ أو مـــامـــثله
فـافـعل بكل مـاافـتـضـاه فـعله
مـــاقـــيـل فى القـــانون من أفـــراده
ولاحـظ الطبـــيـب فى مـــراده

(ص٧٩٨) ثم إذا خص بماء أو شراب
يحل فيه الصمغ نقعًا ويذاب
واحضر لديك عسلا مصفى
مثليه إن كان الدواء صيفا
وفى الشتا ثلاثة أمزج أحسنه
مع ما انقعت فوق نار لينه
وبعد عقد ذرّ فوقه الدوا
فى الأرض واضربه لمزج واستوا
وارفعه فى الفضة أو صينيا
ولايكون ظرفها بليا
فى غير منحل هناك يعرف
إلا الزجاج طبعه يجفف

(فى عمل الأقراص)

وإن يكن أقراص أو حب أضف
مسحوقها فى الصمغ محلولا وصف
إلا إذا كان بها الصبر فلا
حاجة فى الصمغ فخذه بدلا
وحب أو قرص مع المسح من ال
أدهان من دهن مناسب حصل
ثم تجفف بالغا فى الظل
مخافة التعفين بعد البل
فإن ذى الرطوبة الغريبه
تعفن الشيء ولاعجيبه
قوة الأقراص تبقى أربعا
سنين لاغير بها قد قطعا

(ص٧٩٩) (فى المطبوخ وعمله)

وإن يكن مطبـــوخ عـــدل وزنه
ولين النار لتـــبـــدى حـــسنه
واطبـــخـــه حـــتى يتـــهـــرا واحـــذر
من فـــيـــتـــمـــونهم أو الا يكثـــر
كـــمـــثل ذا الطل غـــدا فى وصـــفـــه
ضف الدوا عليـــه ثم صـــفـّـــه
ونق أخـــشـــابا لكل واغـــسـل
بما طبـــيـــخ أذخـــر واســـتـــأصل

(فى السفوف):

وفى الســفــوف المزج بعــد الســحق
وراع مـــــــايعطى لـه مـن حـق

(فى التحميص):

وحــــمـص القـــــابض من بزر ولا
تـدق بزر قطنة فـــيـــقـــتـــلا
واحم لذاك خـــزفـــا أو حـــجـــرا
وانـزل وقلب فـــيـــه ذاك البـــزرا

(فى الدق والسحق):

وإن جـــمـعت أهليلجـات اسـقـهـا
سـمنا وحــمـصـهـا وثم دقــهـا
وجـــود الغـــسل لكحل وانقـــه
وســقـــه بالماء حـــال ســحـــقـــه
وروقـنـه بـعـــــــــد ذا وبـدل
مـــاء وجـــفـف فى تمام العـــمـل

إلى آخر ماقال، وله غير ذلك مدايح وقصايد (ص٨٠٠) وغزليات وتخميسات ومراسلات كلها غرر محشوة بالبلاغة، تدل على غزارة علمه وسعة إطلاعه، توفى بهذه السنة بالمدينة المنورة رحمه الله تعالى.

علاقة الهوارة بالعثمانيين

عقد العثمانيون بعد غزوهم لمصر مع القبائل العربية اتفاقات أقروا فيها سيادة شيوخ تلك القبائل على المناطق التى كانت لهم السيادة فيها من قبل فى العصر المملوكى، وذلك مقابل تعهد هؤلاء الشيوخ بحفظ الأمن وتنمية الزراعة وجمع الضرائب، وفى مقابل ذلك اعترف العثمانيون بمراكز تلك القبائل وتركوا له حرية التصرف فى مناطق نفوذهم ومن هذه القبائل كانت قبيلة الهوارة وقد أشار ابن زنبل الى ذلك بقوله:

(خلع السلطان سليم بعد دخوله القاهرة على شيخ العرب حماد شيخ عرب غزالة باقليم الجيزة وجا اليه الأمير على بن عمر شيخ هوارة فخلع عليه بأمرية الصعيد بمدينة جرجا وخلع على علم الدين شيخ بنى عدى وكتب لهم التواقيع بذلك وخلع عليهم وانصرفوا).

وقد كانت علاقة الهوارة بالعثمانيين ودية للغاية فى عهد السلطان سليم وابنه سليمان.

بلغ من طيب العلاقات بين الطرفين ان الأمير على بن عمر شيخ الهوارة وحاكم الصعيدى، أرسل هدية حافلة للسلطان سليم سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م بلغ من أهميتها انها قدمت للسلطان بعد تقديم هدية خاير بك وصاحب اليمن.

وكانت هدية حافلة حوت مائتى قنطار سكر، ورقيقا ما بين عبيد وجوار، وخيل وجمال وغيرذلك.

وقد أرسل الأمير على بن عمر هذه الهدية مع رسول خاص من طرفه.

وقد سر السلطان سليم من هذه الهدية واعاد الرسول محملا بهدية حافلة منه للأمير على بن عمر وكانت هدية السلطان تشتمل على ملابس فخمة (قفاطين) مع مرسوم باستمرار الأمير على فى حكم الصعيد فعظم شأن الأمير على بهذه الهدية وهذا االمرسوم.

وفى عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م أرسل الأمير على بن عمر أيضا هدية حافلة للسلطان سليم قيل انها قومت بستين ألف دينار.

وقد أقر السلطان سليمان بدوره الأمير على بن عمر على جكم الصعيد فأرسل له سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢١م قفطان حرير ومرسوم شريف باقراره على مركزه واستمراره فيه.

ولكن العلاقات ساءت بعد ذلك بين الهوارة والعثمانيين فعزل العثمانيون الهوارة من حكم الصعيد سنة ٩٨٣هـ/ ١٥٧٦م وعهدوا بالحكم فى الصعيد الى أحد بكوات المماليك وهو سليمان جنبلاط.

وقد ذكر على مبارك فى خططه أنه رأى المرسوم الذى تضمن ذلك فى كتاب لم يستطع الوقوف على اسمه ولا اسم مؤلفه.

وقد ذكر المرسوم: ما كان للهوارة من سيطرة على الصعيد مقابل تعهدهم بجمع المال والغلال المقررة للدولة وتقديمها اليها وكيف أهمل الهوارة فى أداء تلك المهمة، وقصروا فى تحصيل الخراج اللازم وظلموا أهل الصعيد ونهبوا أموالهم ولم يهتموا بعمارة الجسور ولا بشئون الزراعة. لذا غضبت عليهم الدولة وأمرت بمنعهم من حكم الصعيد وعهدت به لأمرا المماليك.

وهكذا فقد الهوارة ما كان لهم من سيطرة ونفوذ فى الصعيد نتيجة لعودتهم لسياسة التمرد وقطع الأموال والغلال المطلوبة منهم تلك السياسة التى مارسوها من قبل فى العصر المملوكى والتى كانت الطابع المميز لجميع العرب فى مصر.

وعند ادخال نظام الالتزام الى الصعيد فى الربع الأول من القرن السابع عشر سيطر الهوارة على مساحات واسعة من أراضى الصعيد عن طريق شيوخهم على مناصب الملتزمين في الصعيد، فلم يكن في الصعيد حينذاك من هم أغنى من الهوارة ولا من هم أكثر عصبية قبلية منهم، لذا كان من الطبيعى أن يسيطر الهوارة على أراضى الصعيد بالالتزام، وقد كان الهوارة من الفئات التى سمح لها بأخذ التزام الأراضى الزراعية منذ بداية ادخال هذا النظام الى مصر.

وبسيطرة الهوارة على معظم أراضى الصعيد بالالتزام عادت اليهم السلطة والسيطرة على الصعيد ولكن فى ظل الادارة المملوكة العثمانية وتابع الهوارة سياستهم فى التمرد على السلطات الحاكمة ومحاولة الامتناع عن تقديم المطلوب منهم من أموال وغلال.

ففى عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م تمرد الهوارة على حاكم جرجا عبد الرحمن بك وعصوه وامتنعوا عن دفع الأموال والغلال المطلوبة منهم.

فأصدر الباشا أمره بمحاربتهم وأرسل لهم حملة ضمت عددا من البكوات المماليك مثل ابراهيم بك الصغير، وحسن أغا بلفيا ومصطفى كتخدا القازدوغلى، انضمت تلك الحملة الى قوات عبدالرحمن بك الذى تولى القيادة وقد صحب تلك الحملة هوارة بحرى ورجال الأمير حسن الاخميمى حاكم اخميم ومنافس الهوارة على السيطرة على الصعيد.

وقد انتهت الحملة بهزيمة الهوارة ونهب عبدالرحمن بك لاموالهم وقتله لرجالهم، وهرب الهوارة الى الجبل ودخل عبدالرحمن بك الى فرشوط مقر الهوارة ومعقلهم الرئيسى ووضع يده على ما فيها من مخازن غلال، وحاول بالاتفاق مع مجموعة من امراء مصر حرمان الهوارة من أراضيهم بتحويلها بالالتزام الى حيازته هو مع هؤلاء الأمراء شركة وكتبوا للدولة يطلبون ذلك.

ولكن هذا الامر لم يتم لعزل عبد الرحمن بك من ولاية جرجا حيث انتقم منه الهوارة بمطالبته بما خسروه أثناء حملته عليهم واثاروا ضده زملاءه المنافسين له حتى قتلوه.

ولما ضعف سلطان العثمانيين بمصر وسيطرا المماليك على مقاليد الأمور أخذ بك جرجا وحاكمها يتجه ببصره الى القاهرة ويهتم بحوادثها السياسية أكثر من اهتمامه بأمور الصعيد، وأصبح الوجه القبلى حيث ديار الهوارة منفى وملجأ لكل الأمراء المماليك المهزومين أو المنفيين واتباعهم، وكان هؤلاء فى حاجة لسواعد الهوارة وأموالهم ليستعينوا بهم على هزيمة منافسيهم بالقاهرة فبدأ النفوذ يعود الى الهوارة وبدأ الهوارة يتدخلون فى جديد من الاحداث السياسية الجارية وفقا لما تمليه عليهم مصالحهم كما كانوا فى العصر المملوكى فأثناء وقوع الصراع بين الفقارية والقاسمية سنة ١١٣٧هـ/ ١٧٢٤م هرب محمد بك جركس القاسمى الى جرجا ليعيد تنظيم صفوفه فأرسل له منافسه الأمير ذو الفقار بك حملة لمحاربته فاستعان جركس بالهوارة وباقى عربان الصعيد وهزم حملة القاهرة عند البهنسا.

وفى تلك الفترة ايضا هرب أحمد بك الأعسر الى الهوارة محتميا بهم.وبقى عندهم ليعيد تنظيم صفوفه وعندما هزمت فرقة القاسمية سنة ١١٤٢هـ/١٧٢٩م التجأ الكثيرون من رجالها الى اكابر الهوارة ببلاد الصعيد ليستعينوا بهم على استعادة ما كان لهم من نفوذ.

وفى عام ١١٤٩هـ/١٧٣٦م فر عثمان بك الفقارى الى الصعيد بعد صراعه مع ابراهيم جاويش بسبب تنافسهما على رياسة مصر وعندما تنكر على بك الكبير لصديقه صالح بك القاسمى فر الأخير الى الصعيد واستعان بالهوارة وعلى رأسهم شيخ العرب همام بن يوسف الذى قدم اليه كل ما كان يحتاج اليه من ذخيرة ومؤن وتقدم بها واستولى على المنيا وطرد منها اتباع على بك.

وعلى بك الكبير نفسه عندما اخرجه زملاؤه منفيا من القاهرة الى النوسات بالوجه البحرى هرب الى الصعيدحيث لجأ الى حمى الشيخ همام طالبا منه ان يصلح بينه وبين زميله صالح بك القاسمى حتى يقبل العودة معه الى القاهرة لمساعدته فى اقصاء منافسيه عنها وفعلا قام الشيخ همام بالوساطة بينهما واستطاع اقناع صالح بك القاسمى ـ (الذى كان على بك قد غدر به قبل ذلك بقليل) ـ بالانضمام الى صفوف على بك وقدم لهما همام الهدايا والاموال والرجال لمساعدتهما على استخلاص القاهرة من اعداء على بك.

وعندما غضب محمد بك ابوالدهب من سيده على بك الكبير فر الى الصعيد وذهب الى الهوارة واسترضاهم ـ (لأنه سبق أن حاربهم فى عهد الشيخ همام) ليتمكن من ضمهم الى صفوفه وقبل الهوارة ذلك لانهم رأوا فى هذا الانضمام لصفوف محمد بك أبى الدهب فرصة لاستعادة ماكان لهم من نفوذ خبا بعد وفاة همام فانضموا الى صفوف محمد بك وساعدوه فى نضاله ضد على بك.

هكذا وجد الهوارة فى مساندة الأمراء المماليك اللاجئين الى الصعيد فرارا من وجه منافسيهم، فرصة لاستعادة نفوذهم فاهتموا بالأحداث السياسية التى تجرى فى القاهرة وغدوا بذلك قوة كبيرة ترجح الكفة التى تنضم اليها وبدأ هذا واضحا فى عهد الشيخ همام بن يوسف الذى انتهت اليه زعامة الصعيد فى النصف الأول من القرن الثامن عشر وحوالى العشرين عاما من النصف الثانى وقد ظل الهوارة يشتركون فى الحياة السياسية بتأييدهم فريقا من الحكام ضد آخرحتى عهد مراد بك وابراهيم بك ولكن بصورة أضعف وأقل تأثيرا عما كان لهم فى عهد همام.

وهكذا نجد أن الهوارة تابعوا فى العهد العثمانى نفس السياسة التى كانوا يتبعونها فى العهد المملوكى من تدخلهم فى الأحداث السياسية وفقا لما تمليه عليهم مصالحهم، وتابعوا أيضا سياسة التمرد والامتناع عن تقديم الأموال والغلال المطلوبة منهم للسلطات الحاكم. وبدأ ذلك واضحا من الهوارة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حيث كان سلطان العثمانيين بمصر قد ضعف.

شيخ العرب همام بن يوسف

فى قرية فرشوط[1] بمحافظة قنا كان مولد شيخ العرب همام بن يوسف فى تاريخ لا نعرف تحديده بالضبط، ولكننا اذا أخذنا برواية الرحالة فانه يقع حوالى ١٧٠٩م/ سنة ١١٢١هـ[2] أما وفاة

(١) زار الرحالة بروس فرشوط فى يناير ١٧٦٩ وذكر عنها أنها مدينة تقع فى سهل زراعى على ارتفاع ٩ اميال سفل الجبل، وتشتهر بزراعة القمح وقصب السكر وأنه كان بها دير للرهبان الايطاليين يتبع دير أخميم، وان هذه الأيرة قد أنشات لتزويد المسافرين بين مصر واليوبيا بالمساعدات وتقديم التسهيلات الممكنة لهم، ولكنه أضاف ان كرم مشايخ العرب الأغنياء فى مصر العليا، والسانيتهم ومعاملتهم الكريمة للغرباء جعلت وجود هذه الأديرة عديمة الفائدة.

Bruce; travels to discover the Source of the Nile Vol. 2, p. 22.

وفرشوط الآن قرية كبيرة من محافظة قنا وتقع غر النيل تتبع مركز نجع حمادى.

(٢) زار بروس فرشوط وقابل شيخ العرب همام فى يناير سنة ١٧٦٩م وذكر أنه يقدر سن همام حينئذ بما لا يزيد عن ستين عاما.

Bruce: travels to discover the Source of the Nile Vol. 2, p. 22.

الشيخ همام فتاريخها محدد فقد حددها الجبرتى[1] باليوم الثامن من شهر شعبان سنة ١١٨٣هـ نوفمبر سنة ١٧٦٩م وتؤيد دفاتر الالتزامات بالقلعة وقوع وفاة همام فى هذا العام أيضا، فقد ورد بدفتر رقم ٥٥ لسنة ١١٨٣هـ عين ٨ مخزن تركى أن أولاد الشيخ همام وهم درويش وشاهين وعبدالكريم قد حلوا فى بعض التزامات والدهم المرحوم الشيخ همام بناء على بيورلدى صدر من على بك قائمقام مصر فى ذلك الوقت وكان ذلك ٢١ رمضان سنة ١١٨٣هـ/ ديسمبر سنة ١٧٦٩م أى فى الشهر التالى لشهر شعبان الذى توفى فيه الشيخ همام كما ورد فى رواية الجبرتى.

وقد نشأ همام فى بيت ورث الثراء والمكانة أبا عن جد فقد كان همام ابنا للشيخ يوسف بن الشيخ أحمد محمد همام الذى آلت اليه زعامة قبائل الهوارة فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى.

وقد تمتع الهوارة عامة بثراء واسع، وكان معظم شيوخهم على جانب كبير من الثراء، فمنذ نزل الهوارة الى الصعيد واستقروا فى جرجا امتدت سطوتهم فيها، واتسع ثراؤهم، وكان كبيرهم الذى يتولى رياستهم يقيم فى فرشوط، وله نفوذ فى الصعيد كله، وقد ظلت لشيوخ الهوارة رئاسة الصعيد والسيطرة على الحكم فيه حتى عام ٨٩٣هـ/ سنة ١٥٧٥م.

وقد كانت علاقة أسرة همام بالحكام فى العصر المملوكى علاقة يغلب عليها طابع العداء شأن كل العرب القاطنين فى مصر للكراهية العنصرية بين العرب والمماليك.

وفى العصر العثمانى المملوكى تابع الهوارة سياسة العداء ضد السلطات الحاكمة فى صورة تمرد وامتناع عن تقديم الأموال والغلال المطلوبة منهم، ولاشك ان إسرة همام وخاصة جده الشيخ محمد أحمد همام كان من الهوارة الذين تمردوا على السلطات الحاكمة ورفضوا تقديم الأموال والغلال المطلوبة منهم للدولة سنة ١١٠٧هـ/ سنة ١٦٩٥م عندما قاد عبدالرحمن بك حاكم جرجا الحملة التى سيرتها الحكومة ضدهم، فقضت على تمردهم، واعادتهم الى حظيرة الطاعة، وأعيدت اليهم التزاماتهم التى رفعتها عنهم الدولة أثناء هذا التمرد، وكان أبرز الملتزمين من الهوارة حينئذ الشيخ يوسف بن أحمد محمد همام والد الشيخ همام بن يوسف، الشيخ أحمد محمد همام جد الشيخ همام بن يوسف.

وقد ساعدت نشأة همام فى بيت ورث الثراء والمكانة أبا عن جد على ظهوره كشخصية هامة تولت زعامة الصعيد بالاضافة لضعف السلطة الحكومية فى عصره، اذ كانت سلطات الحكم العثمانى فى مصر قد وصلت الى درجة كبيرة من التدهور، وحفل العصر بمنازعات العصبيات المملوكية، وتنازعها على السلطة مما أدى الى تدهور قوتها أيضا، وترك الباب مفتوحا أمام ذوى العصبيات القبلية ليظهروا على مسرح الاحداث السياسية، ويبسطوا نفوذهم ويسيطروا على مناطقهم.

وقد ورث همام عن أبيه الشيخ يوسف التزامات واسعة شملت معظم أراضى الصعيد من المنيا الى اسوان، وقد آلت هذه الالتزامات الى الشيخ يوسف وراثة عن أبيه الشيخ أحمد بن محمد همام الذى كانت التزاماته تمتد من المنيا الى أسوان فقد أخذ

(١) انظر ترجمته رقم ٣٢٣ فى هذا الجزء.

شركة مع اقاربه التزامات أراضى:

حرجه الحرازة، بخانس وقصير بخانس، عرب قصاص، هو، بهجورة، فرشوط، الكوم الأحمر، قوص، سنابة، أولاد ما من، الخارفة، الروافع، كوم بدار، أولاد شلول، جرف أبوعميرة، أرض وقف ملك أشرف برسباى، العسيرات، أولاد جامع، جزيرة الموارنة، أرض طبطبا، شيخيه، خلجان، قراى وريفه بأسيوط، ادفا وبنى مزار، تصيرية وصعايدة، وأبنوب.

وقد ورث الشيخ يوسف عن أبية زعامة قبائل الهوارة لانه كان أكبر ابنائه وأبرزهم، وكذلك كان الحال بالنسبة للشيخ همام فقد كان أكبر أبناء الشيخ يوسف فآلت اليه وراثة عن أبيه كل تلك الأراضى الشاسعة، وزعامة قبائل الهوارة فى الصعيد.

وقد توفرت للشيخ همام شخصية ساحرة استطاعت ان تنمى ما ورث من ثراء وأن تحتفظ بزعامة الهوارة، بل وأن تمد تأثير تلك الزعامة الى آفاق أوسع وأعظم مما كان لها فى عهد أبيه وجده.

وبتولى الشيخ همام وظيفة الملتزم وحسن استغلاله لها ولما ورثه من ثراء ومن عصبية قبلية، وصفات شخصية كالذكاء والكرم والطموح استطاع أن يتزعم عرب الصعيد، وان ينشئ الصلات الواسعة المتعددة الجونب مع حكام مصر وعلمائها ومع الدولة العثمانية نفسها فقد ذكر الرحالة BRUCE الذى زار همام سنة ١٧٦٩م/ سنة ١١٨٣هـ أن الشيخ همام كان على صلة طيبة بالدولة العثمانية نفسها وكان يطلب منها ما يريد مباشرة مما أثار عليه غيرة بكوات القاهرة، مجددا ما كان من طيب العلاقات بين أجداده وبين الدولة العثمانية.

وقد لعب الشيخ همام دورا هاما فى حياة الصعيد بل وحياة مصر كلها فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ونحو عشرين عاما من النصف الثانى منه.

وكان من أهم العوامل التى ساندت همام وساعدته على القيام بدوره ثراؤه الطائل الذى هيأته له التزاماته لمعظم أراضى الصعيد، وقد هيأ نظام الالتزام للهوارة عامة فرصة عظيمة لاستعادة نفوذهم وسلطاتهم اللذين تمتعا بهما فى العصر السابق للعصر العثمانى.

وقد بدأت سيطرة الهمامية على أراضى الصعيد تبرز ابتداء من عام ١١٠٥هـ سنة ١٦٩٣م، وكان أبرز الملتزمين منهم كما قدمنا الشيخ أحمد بن محمد همام جد الشيخ همام بن يوسف الذى سيطر على أراضى واسعة امتدت من المنيا الى اسوان أى سيطر على معظم أراضى الصعيد بالاضافة لعدد من الملتزمين الآخرين من أقاربة ومن المماليك ومن العرب الآخرين.

وقد شارك الشيخ يوسف والده أحمد بن محمد همام فى تولى التزام أراضى الصعيد.

وابتداء من عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م ظهر أسم الشيخ همام يوسف كملتزم لأول مرة وأشير اليه فى دفاتر الالتزام باسم: همام ولد الشيخ يوسف أحمد حيث اشترك مع والده وأقاربه فى التزام أراضى: هو، بهجورة، والكوم الأحمر وتوابعها.

وكانت السيطرة على أراضى الصعيد قبل ظهور الشيخ همام بن يوسف للهوارة يليهم المماليك يليهم العرب الآخرون وتركزت أراضى المماليك والعرب الآخرين فى:

اسيوط، طهطا، أخميم، مدينة جرجا نفسها.

وتركزت أراضى الهوارة فى:

قنا والأقصر، واسوان.

حيث كانت تتركز القوة الفعلية للهوارة، وحيث كانت تنتشر منازلهم فمعظم فروع قبيلة الهوارة وأكثرهم فاعلية وقوة كانت ومازالت حتى الآن تقطن محافظة قنا.

فقد سيطر على عشر مقاطعات من مقطاعات ولاية جرجا الاحدى والعشرون.

أما المقاطعات التى كانت تقع جنوب ذلك وعددها احدى عشرة مقاطعة وهى مقاطعات خوجان، بخانس، عرب قصاص، الأقصر، بياضية، برديس، فرشوط، هو وبهجورة وتوابعها، حراجية قنا، قوص.

فقد سيطر الهوارة على معظم مقاطعات وفئات الملتزمين فى ولاية جرجا قبل ظهور الشيخ همام.

ومنذ ظهور الشيخ همام بن يوسف كملتزم بصورة رسمية فى سنة ١١٣٤هـ/ سنة ١٧٢١م وهو يواصل زحفه على أراضى الملتزمين الآخرين فى الصعيد من هوارة ومماليك وغيرهم وقد اختفى اسم الشيخ يوسف والد همام من دفاتر الالتزام منذ عام ١١٥٠هـ/ سنة ١٧٣٧م واستقل همام بأراضيه وبدأ يزحف على معظم أراضى الملتزمين الآخرين ويحصل على أراضيهم باشراف الدولة ورضائها.

وقد بدأت سيطرة الهوارة على أراضى الصعيد بالالتزام منذ عام ١١٤٢هـ/ سنة ١٧٢٩م فقد ضم اليه فى هذا العام التزامات معظم أراضى بلصفورة وأخميم.

وفى عام ١١٤٥هـ/ سنة ١٧٣٢م ضم معظم أراضى طهطا واسنا وفى عام ١١٤٦هـ/ عام ١٧٣٣م زحف على أراضى المنيا فى بنى مزار وأخذ عدة قرى من مقاطعة أسيوط.

وما أن أتى عام ١١٦٣هـ/ عام ١٧٤٩م حتى وجدنا أن الشيخ همام وأقاربه من الهورة وشركاء (من وكلائه مثل الحاج عبدالرحمن، الحاج ابراهيم الخضرى). قد سيطروا على معظم مقاطعات ولاية جرجا فأخذوا التزامات مقاطعات:

برديس، فرشوط، هو وبهجورة، عرب قصاص، الأقصر قوص، قنا وتوابعها، بخانس، خوجان، بياضية.

اى سيطروا على عشر مقاطعات كاملة من أصل احدى وعشرين مقاطعة كانت تتكون منها ولاية جرجا وهى:

١ـ مقاطعة اسيوط وتوابعها.
٢ـ مقاطعة أبو تيج.
٣ـ مقاطعة أبو مقروفة.
٤ـ مقاطعة نخيلة وتوابعها.
٥ـ مقاطعة فاو الكبرى.
٦ـ مقاطعة طهطا وتوابعها.
٧ـ مقاطعة شندويل.
٨ـ مقاطعة شرق أخميم.
٩ـ مقاطعة منشأة أخميم.
١٠ـ مقاطعة برديس.
١١ـ مقاطعة فرشوط وتوابعها.
١٢ـ مقاطعة هووبهجورة وتوابعها.
١٣ـ مقاطعة خوجان.
١٤ـ مقاطعة قنا.
١٥ـ مقاطعة طما وتوابعها.
١٦ـ مقاطعة قوص.
١٧ـ مقاطعة بخانس.
١٨ـ مقاطعة عرب قصاص وتوابعها.
١٩ـ مقاطعة الاقصر.
٢٠ـ مقاطعة بياضية.
٢١ـ مقاطعة حراجيه.

وذلك بالاضافة الى أجزاء من المقاطعات الاخرى مثل أراضي:

القبيبة والبنارس، بني جميلة، سمهود، شرق المرج القبلي، البحرى، بنى وركان، بياضة، أرض المنقذية، طوخ، النقاوة، أبنوب، جرف أبوعميرة، إولاد شلول، خارفة، أولاد طوق، جزيرة العنبرية، أولاد مامن، جراجوس، بلاص، سنابسة، ادفو.

ثم بدأ الشيخ همام بعد ذلك ينفرد بمعظم أراضي الصعيد، وينحى عنها ملتزميها من المماليك ومن أقاربه أيضا ومن العرب الآخرين.

وما ان أتى عام ١١٧٤هـ/ عام ١٧٦٠م حتى لم يبق في ولاية جرجا ملتزمون سوى الشيخ همام وعدد قليل جدا من اقاربه الذين يكملون أسمه في مقاطعاته، وعدد قليل جدا من المماليك بالتزامات ضئيلة.

وقد استولى همام على أراضي أسرة الاخميمي أقوى الاسر العربية المنافسة للهوارة في الصعيد فاختفى اسم آخر رجالها وهو الأمير عيسى كمالي الاخميمي من دفاتر الالتزام الخاص بولاية جرجا سنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م، وقد زال نفوذ هذه الاسرة وتلاشت مكانتها من حياة ولاية جرجا بعد ذلك.

وما أن أتى عام ١١٨١هـ/ عم ١٧٦٧م حتى تمت للشيخ همام السيطرة على معظم اراضي الصعيد من المنيا الى اسوان.

فقد كان في التزام الشيخ همام في ذلك العام التزام المقاطعات الآتية كاملة وهي:

مقاطعات برديس، قنا، الأقصر، بياضية، شرق خميم، هووبهجورة وتوابعها، عرب قصاص، خولجان وسمهود، طهطا، حراجية، شندويل، منشأة أخميم، فرشوط، طما، قوص، بخانس.

وقد انفرد الشيخ همام بهذه الالتزامات وسيطرة على التزامات ١٦ مقاطعة كاملة من ٢١ مقاطعة كانت تتكون منها ولاية جرجا أما المقاطعات الخمس الباقية وهي ـ

اسيوط، ابوتيج، ابومقروفة، نخيلة وتوابعها، فاو الكبرى.

فقد كانت لهمام أجزاء كبيرة في بعضها ولامراء المماليك وللعرب الآخرين باقي أجزائها.

فكان للشيخ همام في مقاطعة أسيوط التزام.شرق بويط بقدر ١٢ط، بنى وركان ١٢ط ادفا وبنى مزار ٢٤ط. قراى وريفة ١٢ط.

وكان له في منطقة أسوان.

منطقة ادفو بقدر ٢١ط، نصيرية وصعايدة ١٨ط وقد بقيت هذه الالتزامات للشيخ همام حتى وفاته في سنة ١١٨٣هـ/ سنة ١٧٦٩م بل لقد وصلت قوة همام وقبل بدأ النزاع الأخير بينه وبين على بك الى حصوله على جزء كبير من أراضي على بك نفسه في ناحية بنى نصر بمنفلوط بمقاطعة ابى تيج.

ثراؤه.. حكومته.. نفوذه

قدمت سلطة الملتزم للشيخ همام ثراء طائلا ونفوذا واسعا فقد ادى تدهور السلطة المركزية في القرن ١٨ الى اتساع نفوذ الملتزم وحلوله محل الادارة الحكومية في الاقليم الذى يتولى التزام أراضيه قائما فيه بحفظ الأمن وتحصيل الأموال الأميرية من الفلاحين وفض المنازعات بينهم سواء أكانت تلك المنازعات مدنية أو متعلقة بزراعة الأرض أو جنائية.

وبسيطرة الشيخ همام على معظم أراضي الصعيد توفرت له ثروة طائلة أفاض الجبرتي في وصفها فذكر أنه كان لهمام:

(برسم زراعة قصب السكر اثنا عشر ألف ثور وهذا بخلاف المعد للحرث ودراس الغلال والسواقي والطواحين والجواميس والابقار الحلابة).

(وأما شون الغلال وحواصل السكر والتمر بأنواعه، فشئ لا يعد ولا يحد).

وانه كان لدى همام الكثير من الأرقاء وأنه كان ينعم بالجوارى والعبيد والسكر والغلال.

بسيطرة الشيخ همام على معظم أراضى الصعيد وبحيازته لتلك الأراضى الواسعة الممتدة من المنيا الى اسوان بالالتزام كان عليه أن ينظم ادارة دقيقة لتلك الأراضي [illegible] تضم من فلاحين وعمال وموظفين.

لذا أقام همام حكما اداريا دقيقا لتنظيم شئون اراضيه والعاملين فيها.

فكان لديه دواوين (مجالس ادارة) تضم جيشا من الكتبة ومعظمهم من الأقباط (لمهارتهم فى الشئون الحسابية).

وكان هؤلاء يعملون فى دأب متواصل آناء النهار وأطراف الليل لانجاز حسابات همام الواسعة والمتعلقة بمعاملاته مع فلاحية وشركائه.

وكانت تلك الحسابات تتعلق بأموال الخراج التى يقدمها الفلاحون للشيخ همام ما يقدمونه له منها وما يعتذرون عن تأخيره، وما يعجزون عن سداده. ثم طلبات الفلاحين من طلب قروض لمساعدتهم على زراعة أراضيهم مقابل تقديم جزء منها كرهينة للشيخ همام حتى تسديد القرض في العام القادم.

وكان ذلك يتم بتقديم اقرار شخصى من الفلاح المقترض أمام الشيخ همام وموظفيه. أو أمام قضاة الاقليم وبحضور موظفى همام الذين كان عليهم ايضا تسلم الغلال والأموال التى يقدمها الفلاحون لهمام وعمل الحساب الخاص بها أى توزيعها حسب تعليمات الشيخ همام ماهو مخصص منها للدولة وما هو مخصص للشيخ نفسه وحساب نفقات وايرادات ومصروفات ادارة همام الواسعة.

وكان الشيخ همام يباشر كل اعمال موظفيه يراجع حساباتهم ويمليهم أوامره وتعليماته ومكاتباته.. ومن تلك الأوامر ما يتعلق بمنازعات أبناء المنطقة سواء أكانت مدنية أو جنائية أو متعلقة بشئون الزراعة.

فقد اعتاد همام عقد مجالس عامة جريا على عادة شيوخ القبائل المعروفة وفى تلك المجالس كان الشيخ يستمع بنفسه الى الشكوى وبعد دراستها والتحقيق فيها كان يصدر حكمه عليها ويمليه لأحد كتابه ليسجل أمر الشيخ بما يراه فى الشكوى.

وكانت تلك الأوامر تصدر على أوراق صغيرة بحجم كف اليد وتحمل فى نهايتها ختم همام وتوقيعه.

وفى أحد تلك الأوامر نجد الشيخ همام يأمر شخصا يدعى حسن الأمير من أهالى فرشوط بأن يسلم شخصا آخر اسمه على عبدالرحيم ما يخصه من مساحة فى منزل تحت يده.

فهمام هنا يفض نزاعا (مدنيا) بملكيه منزل وطلب من حسن الأمير تنفيذ ذلك الأمر الذى (يقتضيه حكم الشرع).

ومن الأمثلة الأخرى الخاصة بالمنازعات (المدنية) أمر آخر من الشيخ همام لمحمد على اسماعيل يأمره فيه بمنع رجاله من التعرض للأمير محمد اسماعيل الذى يريد بناء مسكن لخفير عنده بجوار جامع مهدم خاص بأسرة الأول ولكن البناء سيكون فى أرض الشاكى ولذا يأمر الشيخ همام محمد على اسماعيل بمنع رجاله من التعرض له وتركه يقيم البناء الذى يريده.

ومن المنازعات الخاصة بالزراعة والتي كان

الشيخ همام يتولى أمرها أيضا ويصدر أوامره لتنظيمها.

الأمر الذى أصدره لعبدالرحمن اسماعيل الأمير يأمره فيه بسداد مقدار خمسين تليسا من الغلال ثلثها قمح وثلثاها فول ايجار الرزقة التى يستأجرها من الحاج عمر والتى هى موروثة له عن والده وأن على عبدالرحمن اسماعيل الأمير ان يدفع له وللمستحقين الآخرين ذلك القدر من الغلال سنويا لاستحقاقهم له.

وفى أحد الأوامر الاخرى من هذا القبيل يأمر الشيخ همام احد اقاربه هو الشيخ أبوبكر أحمد بمنع رجاله من التعرض لشخص اسمه غزالى الأمير (من اسرة الأمير) اشترى من همام ثلاثة قراريط ونصف وسدد له ثمنها كاملا، ولكنه أى الشيخ أبوبكر احمد حرض عليه رجاله لمضايقته وحجز قطعة من هذه الأرض.

ويذكره همام فى هذا الأمر بأن هذه الارض من أرضه شخصيا (الغفارة من أصلها لنا).

وقد ضمت ادارة الشيخ همام بالاضافة للعديد من الكتبة عددا من المباشرين الأقباط الذين كانوا يمثلون الصرافين ويعرفون فى الصعيد بالعمال ويختصون بتوزيع الضرائب على الفلاحين وتحصيلها منهم.

وكان أشهر هؤلاء المعلمين فى عهد همام المعلم بولص بن منقريوس الذى كان يقوم بتسديد الأموال والغلال المطلوبة من الشيخ همام لحكومة القاهرة.

وقد أوردت دفاتر الالتزام بالقلعة أمثلة كثيرة لهذا منها ما كان من قيام المعلم بولص نيابة عن الشيخ همام بتسديد العوايد (الضرائب الخاصة ببعض قرى همام وهى :

أولاد جاد الغربى	٥٣
أولاد جاد الشرقى	٥٣
بنى وركان	٥٣
قباله شربه	٥٣
قرية حراجية	١٦
كوم بدار	٨
	٢٣٦ بارة

وكان هؤلاء المعلمون ينوبون عن الشيخ همام أحيانا فى حضور عمليات تنازل الأمراء المماليك له عن أراضيهم بولاية جرجا، ويسلمونهم الثمن الذى يدفعه الشيخ همام مقابل ذلك أمام محاكم القاهرة.

مثال ذلك ما كان فى قيام المعلم بولص بن منقريوس بحضور عملية تنازل الأمير محمد جاويش مستحفظان القازوغلى فى ١٩ ذى القعدة سنة ١١٧٣هـ/ سنة ١٧٥٨م (أول يولية) عن حصته بناحية طهطا بولاية جرجا للشيخ همام.

وقام المعلم المذكور بتقديم الثمن الذى دفعه همام مقابل حصوله على هذه الأرض.

جيش همام

ولكى يحمى همام أراضيه الواسعة ويدفع عنها شر هجمات الاعراب وأطماع الأمراء المماليك كون جيشا كبيرا من الهوارة أقاربه ومن المماليك الفارين الى الصعيد هربا من وجوه منافسيهم وكان أكثر هؤلاء من بقايا فرقة القاسمية التى شهد عام ١١٤٢هـ/ سنة ١٧٢٩م هزيمتها وتشتت معظم رجالها الى الصعيد حيث التحق الكثيرون منهم بخدمة الشيخ همام وانضموا الى صفوف جيشه.

وقد قدر جيرار عدد رجال جيش همام ألف مقاتل.

ومما لاشك فيه أن هذا الجيش لم يكن له من حسن الاستعداد والتدريب والمهارة الحربية ما يماثل الجيوش المملوكية وهذا ما يفسر الانهيار السريع لقوات همام أمام قوات على بك الكبير أثناء لقائهما فى معركة أسيوط.

وقد اهتم الشيخ همام بالعلماء واشتهر بتقريبه لهم واكرامهم ومقابلتهم بما يستحقون من احترام وتقديم الهدايا العظيمة لهم اذا ما قصدوه فى موطنه.

ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين زاروا الشيخ همام فى موطنه الشيخ مرتضى الزبيدى المشهور بمرتضى الحسينى الزبيدى الذى نشأ باليمن (ولد بها سنة ١١٤٥هـ/ سنة ١٧٣٢م وارتحل فى طلب العلم وحج مرارا. واجتمع باشهر علماء عصره الذين أجازوه ثم حضر الى مصر سنة ١١٦٧هـ/ سنة ١٧٥٣م وسكن بحى الصاغة وبدأ التأليف واتشهر أمره وأخذ عنه كثير من شيوخ ذلك العصر كالجوهرى، والحنفى.

وسافر الى الصعيد ثلاث مرات واجتمع بأعيانه وعلمائه وزار الشيخ همام الذى أكرمه اكراما كبيرا وقدم له هدايا كثيرة.

ومن اشهر العلماء الذين كانوا يعيشون فى أرض الشيخ همام الشيخ على بن صالح الشاورى المالكى مفتى فرشوط والذى تلقى علومه بالازهر ثم عاد الى فرشوط وتولى افتاء المالكية بها.

وقد اهتم به الشيخ همام اهتماما كبيرا وأكرمه اكراما كبيرا وكان يقبل وساطته فى أى أمر مما أدى الى اشتهار أمره ولما زار الشيخ مرتضى الزبيدى فرشوط قدمه الشيخ الشاورى لهمام.

وبعد وفاة همام غادر الشاورى فرشوط وحضر الى القاهرة وظل بها حتى وفاته سنة ١١٨٥هـ/ سنة ١٧٧١م.

وقد أوقف الشيخ همام كعادة الامراء المماليك أوقافا كثيرة على المساجد فى الصعيد وقام بكثير من الاصلاحات فيها مثل ما قام به من اصلاح فى مسجد سيدى عبدالرحيم القنائى أشهر اولياء الصعيد. المقام فوق معبد الاقصر على الضفة الشرقية للنيل. فقد جدد همام المسجد والمقام. وأنشأ خلفه مخزنا ودورة مياه وأوقف عليه أوقافا كثيرة.

وقد أنشأ همام مسجدا خاصا فى موطنه فرشوط فى الجانب الشرقى منها عام ١١٧١هـ/ سنة ١٧٥٧م وهو مسجد فخم.

ومازال هذا المسجد قائما فى فرشوط فى حالة جيدة وتقام به شعائر الصلاة وقد كتب على واجهته:

لجـامع همـام بن يوسف رونق.
به لاذت العبـاد من كل وجهـة.
عليه علامات القبـول لوايح.
وقـد طاب من أرجـائه كل بقـعـة.
فـيـا داخـلا بالبـاب ادع لمنشئ.
وارخ يسـد اللـه سـر المنيـة.

وعلى جدران المسجد كتبت قصيدة نهج البرده.

وقد أوقف الشيخ همام تسعة عشر فدانا بفرشوط للانفاق منها على هذا المسجد.

نفوذه

رأينا فيما سبق كيف تمتع الشيخ همام بثراء طائل وحكومة منظمة دقيقة وقد اتسع نفوذ همام اتساعا كبيرا فقد تمكن الشيخ بثرائه الطائل

وشخصيته القوية وسيطرته على معظم أراضى الصعيد من الدخول فى علاقات قوية مع كبار الامراء المماليك وكبار الموظفين العثمانيين فقد كان همام على صلة وثيقة بالأمير عثمان أغا وكيل دار السعادة بالقاهرة وقد كان هذا الأمير يقوم بعقد جميع الاتفاقات الخاصة بالشيخ همام مع أمراء المماليك بالقاهرة والخاصة بتنازل هؤلاء الأمراء من أراضيهم للشيخ همام وكان الأمير عثمان أغا هو الذى يقدم نيابة عن همام الثمن اللازم لذلك ويقبل التنازل أمام محاكم القاهرة نيابة عن همام الذى كان قد أعطاه توكيلا رسميا بذلك.

ولنفوذ همام الواسع تمكن من مصادقة بعض كبار الأمراء المماليك مثل الأمير عثمان بك الفقارى، صالح بك القاسمى حاكم جرجا وتحدى بعض مثل الأمير ابراهيم جاويش.

وتمكن أيضا من ارغام الكثيرين من كبار الأمراء المماليك على التخلى عن أراضيهم فى الصعيد والتنازل له عنها، فقد رأى هؤلاء الأمراء أنه من المصلحة أن يتنازلوا عن تلك الأراضى لشيخ الصعيد الذى كانت الدلائل كلها تشير الى أنه ستكون له وحده السيطرة على معظم أراضى الصعيد.

أثر سيطرة همام في ولاية جرجا علي الحياة الاقتصادية والسياسية فيها

تمكن الشيخ همام من حفظ الأمن فى الصعيد بكسبه ود القبائل العربية الأخرى المقيمة فيه مثل قبائل العليقات الذين ناط بهم الشيخ همام حراسة طريق القصير.

ومثل قبائل العبابدة التى كانت تسكن منطقة كوم أمبو فى أسوان والتى كانت دائما وقبل عهد همام مثيرة للشغب، وكانت تهاجم مزارع الفلاحين فى الصعيد وتسلبهم محاصيلهم، فاستطاع الشيخ همام أن يستميل هذه القبائل وأن يجعلها تستقر بجوار نهر النيل ـ لأول مرة فى حياتها ـ وأن تكف عن أعمال السلب والنهب التى كانت تمارسها من قبل.

هكذا أدت سيطرة همام على الصعيد الى سلب سائر القبائل المقيمة به النفوذ الذى كان لها على الفلاحين فى ارجاء مصر الاخرى.

وبفضل النظام الذى وضعه الشيخ همام للأمن أثناء سيطرته على الصعيد تمكن البكوات البعيدون عنه والذين لهم التزامات فيه من الحصول على ايرادات أراضيهم كاملة بعكس الاقاليم الاخرى التى لم يتمكنوا من الحصول على ايراداتهم فيها لما كان يسودها من فوضى واضطراب لم يرهما الصعيد فى عهد الشيخ همام.

وقد استراحت الدولة عامة الى تولى الشيخ همام ادارة أراضى الصعيد، فقد كفاها همام متاعب كثيرة فى الحصول الأموال بتسديده الدائم لما عليه من خراج.

فما أن انتهت ايام همام حتى غدا الصعيد نهبا لبكوات القاهرة المنتفعين.. الذين لم ينل الصعيد على أيديهم أدنى تقدم اذ لم يكن لهم هم الا استعادة سلطاتهم مسخرين أرض الصعيد وثرواته وفلاحيه لخدمة مآربهم الشخصية وقد بدأت تلك الفترة بعد وفاة همام بقليل فى عهد على بك نفسه الذى طرد قائده محمد أبا الذهب فلجأ الى الصعيد محاولا استغلال أهله لاستعادة مركزه.

ثم كان النزاع بين مراد بك وابراهيم بك وبين زميلهما اسماعيل بك على رئاسة مصر، وما كان من لجوء كل فريق تلحقه الهزيمة من الفريقين الى

الصعيد يستولى عليه ويسوم أهله سوء العذاب مما أدى الى: تدهور الزراعة واضطراب الأمن فى الصعيد.

وان كانت سيطرة همام قد أدت الى ضعف وتلاشى السلطة الحكومية المركزية فى الصعيد، وقضت على كل نفوذ فعلى لحاكم جرجا.

فان تلك السيطرة وفرت للصعيد وأهله أمنا واستقرارا وازدهارا للزراعة لم ينعم بهم الصعيد وأهله قبل همام أو بعده.

علاقة الشيخ همام بالأمراء المماليك

تمتعت قبيلة الهوارة التى ينتمى اليها الشيخ همام بسيطرة واسعة على الصعيد وقد ظلت لشيوخ هذه القبيلة رئاسة الصعيد والسيطرة على الحكم فيه حتى عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م حيث عزل العثمانيون الهوارة عن الحكم فى الصعيد كما قدمنا. ولكن السيطرة والنفوذ عادا ثانية الى الهوارة حينما ادخل نظام الالتزام الى مصر فى الربع الأول من القرن ١٧م وقام نفوذ الهوارة حينئذ على اساس الاعتراف الرسمى بهم كملتزمين.

وقد ساعد على تدعيم نفوذ الهوارة ما كان لهم من هيبة موروثة وعصبية قبلية، وثراء طائل وصلات متعددة بالحكام وتدخل مستمر فيما كان يجرى من احداث بين أمراء مصر وفقا لما تمليه عليهم مصالحهم وقد استمر الهوارة فى تدعيم نفوذهم ومد سيطرتهم على أراضى الصعيد بحيازتها بالالتزام وقد شهد القرن الثامن عشر أقصى مراحل نمو ونفوذ الهوارة وسيطرتهم على الصعيد، وقد غدا الهوارة من القوة بحيث أمكنهم تحدى عبدالرحمن بك حاكم ولاية جرجا فى عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م.

حيث تمردوا عليه ورفضوا ان يقدموا له ما عليهم من أموال وغلال للدولة ولم يستطع عبدالرحمن بك أن يرجعهم عن تمردهم الا بعد أن إرسلت له الحكومة بالقاهرة حملة قام بقيادتها ضد الهوارة الذين منوا بالهزيمة أمامه وفروا هاربين الى الجبل ثم عادوا الى طاعة الدولة.

وقد لعب الهوارة دورا كبيرا فى المنازعات التى كانت تدور بين أمراء المماليك بالقاهرة وحاولوا استغلال هذه المنازعات لصالحهم وكانوا عاملا هاما فى اذكاء حدة الصراع بين كثير من كبار الأمراء المماليك.

فبعد عزل عبدالرحمن بك من ولاية جرجاب بسعى منافسيه ذهب الى القاهرة وأثار عليه غضب زملائه لخروجه من فرقة الفقارية فرقته الأصلية وانضمامه الى الفرقة المنافسة لها وهى فرقة الفقارية، وقد تحمل عبدالرحمن بك بسبب تصرفه هذا عداء زملائه بالاضافة لعداء الباشا الذى كان يضمر فى نفسه الكراهية لعبدالرحمن بك لاشتراكه فى عزل الباشا السابق له والذى كان هو كتخداه.

وقد انتهز الهوارة هذه الفرصة واستغلوا الصراع الدائر بين عبدالرحمن بك وزملائه للانتقام منه لمحاربته السابقة لهم فكتبوا للباشا قوائم بما ذهب لهم من (خيول، وجمال، وعبيد، وجوار، وغلال، وأخشاب وفرش ونحاس) وثمنوها بثلثمائة كيس واتهموا عبدالرحمن بك بأخذ هذه الأشياء وأنابوا عنهم وجاق الانكشارية فى خلاص ذلك منه فرفع هؤلاء الأمر الى الباشا فأمر باحضار عبدالرحمن بك فرفض الحضور وانتهز اعداؤه هذه الفرصة واتفقوا على محاربته ان اصر على عدم تسليم الهوارة ما أخذه منهم خلال حملته عليهم، ولما استمر عبدالرحمن بك على موقفه من عدم الاعتراف بما

اتهمه به الهوارة حاربه منافسوه حيث كان متحصنا فى منزله ومعه اتباعه وانتهى الأمر بمقتله سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م ونجح الهوارة فى الانتقام من عبدالرحمن بك مستغلين فرصة النزاع بينه وبين زملائه وكان تدخل الهوارة هو الذى زاد من اشتعال حدة ذلك النزاع ووصل به الى اخطر مدى له.

وعندما اندلعت احداث فتنة افرنج أحمد بالقاهرة سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م اشترك الهوارة فيها اشتراكا فعليا بحضورهم الى القاهرة بصحبة محمد بك حاكم ولاية جرجا حينئذ.

فعندما ارسلت الدولة حملة بقيادة محمد بك قطامش سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م لمعاقبة الهوارة لاشتراكهم فى أحداث فتنة افرنج أحمد وما قاموا به من أعمال تخريب خلالها سواء فى القاهرة أو فى انحاء الصعيد التى كانت تحت سيطرة منافسيهم، ولم ينقذ الهوارة من غضب الدولة ـ (بعد هزيمتهم أمام هذه الحملة واعتصامهم بالجبل) ـ الا صديق لهم من أكبر الأمراء المماليك بالقاهرة حينذاك وهو الأمير ابراهيم أبوشنب الذى لجأ اليه الهوارة طالبين منه التوسط لهم لدى الباشا وأخذ أمر منه بالعفو عنهم وتأمينهم فى ديارهم وفعلا تم لهم ذلك عن طريق هذا الصديق.

وأثناء الصراع بين فرقتى القاسمية استعان القاسمية بالهوارة فى صراعهم ضد الفقارية.

ففى أثناء اشتداد الصراع بين هاتين الفرقتين هرب محمد بك جركس أكبر زعماء فرقة القاسمية الى الصعيد حيث أعاد تنظيم صفوفه واستعان بمن كان لاجئا هناك من افراد فرقة القاسمية واستعان بالهوارة الذين صحبوه فى طريقه للتقدم الى القاهرة ولكنه قتل على ايدى منافسيه بالجيزة.

وبموته انتهى الصراع بين الفقارية والقاسمية الذين هزموا وتشتتوا فى البلاد سنة ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م.

وقد لجأ الكثيرون من افراد هذه الفرقة الى الهوارة حيث عملوا عندهم كجنود واختلطوا بهم وعاشوا فى بلادهم.

وخاصة فى عهد الشيخ همام فقد انضم اليه الكثيرون من هؤلاء الرجال وعملوا بين صفوف جيشه.

وقد وصل الهوارة الى ذروة القوة والسيطرة على الصعيد فى عهد الشيخ همام بن يوسف الذى وصل الى حد من القوة والنفوذ مكنه من مصادقة الكثيرين من كبار الأمراء المماليك بالقاهرة يلجأ اليهم لمساعدته على تحقيق أغراضه، ومكنته تلك القوة ايضا من الوقوف موقف التحدى من بعض كبار الأمراء المماليك مثل الأمير ابراهيم جاويش.

وعن طريق سيطرة الشيخ همام على معظم أراضى الصعيد من المنيا الى اسوان بالالتزام توفرت له سلطة واسعة ونفوذ كبير.

وقد بدأ اسم الشيخ همام يظهر كملتزم لبعض أراضى الصعيد كما قدمنا ابتداء من سنة ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م.

ومنذ هذا العام والشيخ همام يواصل زحفه على أراضى الصعيد فقد شهدت الأعوام التالية لهذا العام نموا سريعا للأراضى التى أخذها همام بالالتزام واستمر فى تنفيذ سياسته بتوسيع أراضيه وتنحية الملتزمين الآخرين لاراضى الصعيد من المماليك ومن اقاربه الهوارة ومن العرب الآخرين.

وقد ادى هذا التوسع الى اصطدام الشيخ همام ببعض كبار الأمراء المماليك الذين كانت لهم أراض أخذوها بالالتزام فى ولاية

جرجا والتى كان بعضها يجاور أراضى همام مباشرة.

وقد اضطر بعض هؤلاء الأمراء للتنازل للشيخ همام وشركائه (من اقاربه) عن معظم أراضيهم فى الصعيد فلم يكن أمام هؤلاء الأمراء مجال للاختيار أمام قوة شيخ الصعيد ونمو نفوذه المطرد، وكانت الدلائل كلها تشير الى انه ستكون له السيطرة على معظم أراضى الصعيد.

ومن هنا اضطر الكثيرون منهم للتخلى عن اراضيهم للشيخ همام بل وصل الامر ببعضهم الى حد الحضور بنفسه الى فرشوط مقر الشيخ همام لتسجيل تنازله عن أرضه لهمام امام محكمة فرشوط مثال ذلك ما كان من: تنازل الأمير عثمان جلبى بن أخى حسن قهوجى عن حصته فى ناحية بلصفورة بولاية جرجا للشيخ همام وشريكه (عمه عيسى احمد محمد همام) نظير ثمن معين وقدره اثنا عشر كيسا وذلك بتاريخ ١٢ ربيع أول سنة ١١٤٦هـ/ سنة ١٧٣٣م.

وقد كان الأمير ابراهيم جاويش أهم الأمراء الذين اصطدم بهم الشيخ همام فى محاولته لمد سيطرته على أراضى الصعيد وأخذ معظمها بالالتزام.

فقد كان للأمير ابراهيم أراض واسعة اخذها بالالتزام فى منطقة قنا من ولاية جرجا حيث كانت تلك المنطقة المعقل الاساسى لهمام ولقبيلته.

وما كان الشيخ همام ـ وهو بصدد تنمية أراضيه ومحاولة توسيع نطاقها ـ ليرضى عن بقاء أراضى الامير ابراهيم جاويش وكان للأمير ابراهيم من قوة الشكيمة ومن عظم النفوذ ما جعله يخوض معركة تحد ضد نفوذ همام وضد محاولاته للتوسع وضم أراضيه فى الصعيد.

وفى رواية الجبرتى ان الصراع بين الشيخ همام وبين الأمير ابراهيم جاويش بدأ يأخذ صورة واضحة ابتداءاً من سنة ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م. ففى هذا العام رهن الشيخ همام للأمير ابراهيم ناحية برديس مقابل قرض مالى على ان يكون من حق الأمير ابراهيم التصرف فى تلك الناحية لو تأخر الشيخ همام عن سداد المبلغ المقترض فى الموعد المحدد للسداد.

وقد رفض الشيخ همام تسديد المبلغ فى موعده ومنع ابراهيم جاويش من تسلم ناحية برديس والتصرف فيها واستعان بصديق له من كبار الأمراء المماليك بالقاهرة حينذاك وهو الأمير عثمان بك الفقارى الذى ايد موقف همام.

وقد لعب همام دورا كبيرا فى تصعيد حدة الصراع بين الأمير عثمان ذى الفقار والأمير ابراهيم جاويش فقد كان الصراع شديدا بين هذين الأميرين بسبب تنافسهما على رياسة مصر. فأدت استعانة الشيخ همام بالامير عثمان لمساندته فى موقفه ضد الامير ابراهم جاويش الى استياء الامير ابراهيم من الامير عثمان وسعى بكل قواه لجمع كلمة زملائه وتحريضهم على مهاجمة عثمان بك وهو فى طريقه الى القلعة وتم لهم ذلك وهرب عثمان بك أمامهم وفر الى الصعيد عند تابعه على بك حاكم ولاية جرجا حيث معقل الشيخ همام ومهد قوته ونفوذه.

وهكذا كان همام سببا فى احتدام الصراع بين أكبر أميرين فى هذا الوقت وهما عثمان بك الفقارى وابراهيم جاويش وبالرغم من انتهاء هذه الجولة بخروج الأمير عثمان من مصر الى استانبول.

وبالرغم من وصول الأمير ابراهيم جاويش الى مركز السيطرة على مصر فانه لم يتمكن من ارغام الشيخ همام على تسليمه ناحية برديس.

فقد بقيت تلك الناحية فى أراضى همام التى

احرزها بالالتزام حتى وقت وفاته سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م وكانت هي الدار الذى سيبدأ منه على بك. التحرش بهمام كما سنرى.

رفض همام تسليم الأمير ابراهيم ناحية برديس كما نص على ذلك في الاتفاق الذى كان بينهما كان ذلك الرفض بهدف دفع الأمير ابراهيم للتنازل عن أراضيه في ولاية جرجا للشيخ همام مادام ليس في امكانه وضع يده على الأرض التى له الحق فيها مثل ناحية برديس وهذا ما حدث فعلا في السنوات التالية فقد شهد عام ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م تنازل الأمير ابراهيم جاويش عن حصته وقدرها ١٢ط من اصل ٢٤ط في ناحيتى سمهود وخوجان تنازل عن الحصة السابقة لشريك همام الشيخ عيس أحمد محمد همام الذى قام بدوره بالتنازل عن هذه الحصة للشيخ همام الذى ذكرت عنه الحجة.

انه بضم الجزء السابق صار له التزام ناحية سمهود وخوجان بالكامل لأنه كان له من قبل نصف تلك الناحية.

وفى عام ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م ضم الشيخ همام أراضى ابراهيم جاويش التى كانت له في قوص، الحراجية.

وفى عام ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م ضم الشيخ همام لأراضيه ما كان لابراهيم جاويش من أراضى في نواحى الشطب، الحرجة، الباسكية، الشيخية، بيج القهرمون.

وهذا يوضح الى أى مدى وصلت قوة همام وسيطرته على الصعيد بالرغم من ان ابراهيم جاويش كان وقتها في قمة نفوذه وسيطرته على الحكم.

فانه اضطر امام قوة شيخ الصعيد (نزولا على حكم الواقع الى التنازل عن اراضيه في الصعيد والابتعاد عن منطقة نفوذ همام).

وقد استمر الشيخ همام في تدعيم نفوذه وبناء قوته بدفع كبار الأمراء المماليك واحدا تلو للتنازل له عن أراضيهم في الصعيد.

ففى عام ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م، وأمام محكمة الباب العالى بالقاهرة تنازل الأمير محمد جاويش مستحفظان القازدغلى عن حصته وقدرها ٢ط بناحية طهطا وتوابعها للشيخ همام نظير ثمن معين وقدره عشرون كيسا قدمها نيابة عن همام وكيله المعلم بولص.

وواصل الشيخ همام اجلاء امراء المماليك الآخرين الذين كانت لهم أراضى في ولاية جرجا وخاصة من كانت أراضيهم تتداخل مع أراضيه.

ففى عام ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م تنازل الأمير خليل بك القازدغلى الدفتردار عن نفسه وعن وكيله وشريكه حمزة بك القازد على عن ١٨ط من اصل ٢٤ في كامل أراضى ناحية منشأة اخميم (الحرزات والزوك والكوامل وأولاد مامن وتوابعها من ولاية جرجا). وتم التنازل أمام محكمة الباب العالى بالقاهرة نظير ثمن دفعه همام وقدره مائتا كيس.

وفى عام ١١٨١هـ/ ١٧٦٧م اضطر امير آخر هو عثمان بك ابويوسف صارى عسكر الخزينة العامرة وقتها الى التنازل من نفسه وعن موكليه من ٢ط حصتهم في ناحية نفس اخميم، قيراط في أراضى شرق اخميم وتوابعها ساقلته، سفلاق صوامعه طوايل بولاية نظير مبلغ ٢٧ كيسا. وتم التنازل أيضا أمام محكمة الباب العالى بالقاهرة في ١٢ رجب سنة ١١٨١هـ ديسمبر سنة ١٧٦٨م.

وكان متوسط ما يدفعه همام من نقود ثمنا للتنازل عن القيراط أحد عشر كيسا مصرية (ولم يكن القيراط في ذلك الحين يعنى ١/٢٤ من الفدان وانما كان يعنى ١/٢٤ من أرض المقاطعة الزراعية فقد كانت كل مقاطعة تقسم الى ٢٤ قيراطا أى جزء

ولم يكن الشيخ همام يغادر الصعيد الى القاهرة لحضور عمليات التنازل هذه بل كان ينيب عنه وكلاء للقيام بذلك وتسلم الأرض المتنازل عنها ودفع الثمن اللازم لعملية التنازل، وكان منهم المعلمون الاقباط الذين يعملون بأراضى همام فى الصعيد بمثابة مباشرين عنده ومنهم الأمير عثمان اغا العثمانى وكيل دار السعادة بالقاهرة هو ناظر الاوقاف السلطانية العامة بالقاهرة والذى كان الشيخ همام قد اعطاه توكيلا شرعيا للقيام عنه بمثل هذه الأمور.

بل لقد وصلت سطوة همام ونفوذه وقوته الى حد أنه استطاع ان يرغم على بك الكبير اعظم الأمراء المماليك حينئذ وشيخ البلد والمسيطر على مقاليد الحكم فى مصر على التنازل له عن مساحات واسعة من أراضيه التى كان يحرزها بالالتزام فى الصعيد من ذلك.. ما كان من تنازل الأمير على بك الكبير للشيخ همام عن ٢٢ قيراطا من اصل ٢٤ قيراطا أى معظم ناحية بنى نصر بمنفلوط وكان ذلك أمام محكمة الباب العالى بالقاهرة فى أول رجب سنة ١١٨٢هـ/ ١١ نوفمبر سنة ١٧٨٦م نظير مبلغ ٢٥٢ كيسا قدمها وكيل همام الأمير عثمان أغا.

ولعل على بك امتلأت نفسه حقدا على همام بعد وقوع تنازله هذا عن أراضيه لهمام ولعل هذا التنازل هو أقصى ما وصل اليه همام من قوة ونفوذ حينئذ.

ففى منتصف هذا الشهر نفسه ١٥ رجب سنة ١١٨٢/ ٢٦ نوفمبر سنة ١٧٦٨ بدأ تحرشه بالشيخ همام بارساله حملة بقيادة محمد بك ابى الذهب لمطالبة همام بالتخلى عن جميع أراضيه شمال برديس .

هكذا رأينا كيف تمكن همام بما اتيح له من قوة وثراء ونفوذ وسيطرة على معظم أراضى الصعيد من الدخول فى علاقات قوية مع امراء المماليك فتحدى بعضهم واضطره للتخلى عن أراضيه فى الصعيد وصادق بعضهم صداقة قوية ربطت حياته بحياتهم ومصيره بمصيرهم مثل صداقته للأمير صالح بك القاسمى الذى بلغ من صداقته له انه كان ينيبه عنه فى جميع مصالحه بالقاهرة والذى أيده الشيخ همام بكل ما يحتاج اليه من مال عندما حاول على بك نفيه من مصر ليخلو له الجو لفرض سيطرته على مصر.

وقد بدأت صداقة همام مع صالح بك منذ عام ١١٦٨هـ ١٧٥٤م حينما عين صالح بك.حاكما لولاية جرجاء فقد قبل هذا الأمير صداقة الشيخ همام ربما لأنه من القاسمية، وهم الرجال الذين غمرهم الهوارة عامة والشيخ همام خاصة بكرمهم، وأفسحوا لهم ديارهم. وقدموا لهم المأوى والأمان عندما انتهت دولتهم سنة ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م وتعرضوا للتشتيت والنفى.

وربما أدرك صالح بك بثاقب بصره أنه من الخير له أن يكسب ود وصداقة شيخ الصعيد المسيطر على معظم آراضيه ان أراد ان يضمن لنفسه حكم ولاية جرجا فقد وصل الشيخ همام فى تلك السنوات الى حد من القوة والسيطرة والنفوذ ما كان يجعله فى مركز يستطيع منه تحدى أى حاكم لولاية جرجا لا يكون على وفاق معه.

الصراع بين الشيخ همام وعلى بك الكبير

اتجه على بك من أجل توطيد نفوذه الى الايقاع بين حسين بك كشكش وصالح بك القاسمى بتعيين الأول حاكما لجرجا ثم أصدار أمرا بنفى صالح بك الى رشيد ثم الى دمياط ولكن صالح بك لم يستسلم بل فر الى المنيا أى الى الصعيد موطن صديقه وحليفه الشيخ همام وجمع حوله (المنفيين) من فرقة القاسمية.

وقد اهتم الشيخ همام بمساندة صديقه صالح بك ومساعدته مساعدة فعالة، عملا بما تقتضيه واجبات الصداقة من جهة وادراكا لسوء نوايا على بك من جهة أخرى فلاشك ان مساعدة الشيخ همام لصالح بك كانت تحمل فى ثناياها ادراكا من همام لنزعة على بك وميله للقضاء على كل ذوى السلطان والنفوذ الذين يخشى منهم على نفوذه وسيادته ومن هؤلاء كان صالح بك الذى كان يستمد قوته من صداقته وارتباطه بالشيخ همام، وقد أمد الشيخ همام صديقه صالح بك بكل ما يحتاج اليه من ذخيرة ومؤن ورجال لمقاومة الحملة التى وجهها اليه على بك بقيادة حسين بك كشكش.

وقد تمكن صالح بك بمعاونة الشيخ همام من قطع الاتصال بين الصعيد والقاهرة، ومنع ارسال الغلال والأموال الأميرية.

وقد كان الشيخ همام يقف بكل قوته وراء صالح بك، وبحسن سياسة الشيخ همام وبعد نظره فشلت حملة على بك ضد صالح بك، فلا شك ان الشيخ همام بمساندته القوية لصالح بك نبهه الى حقيقة نوايا على بك ضده واهدافه من ارسال حملة اليه بقيادة زميله حسين بك بهدف ايقاع الشقق بينهما.

وفعلا حدث عكس ما توقع على بك وسرعان ما تفق صالح بك وحسين بك كشكش ضد على بك الذى سارع باصدار أمر بنفى حسين بك الذى لم يمتثل للأمر وأسرع بدخول القاهرة عنوة فحاول على بك دس السم له فاكتشف هذه الخديعة فاضطر على بك الى الهرب الى الشام سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م وسيطر حسين بك على القاهرة واستعاد صالح بك حكم ولاية جرجا، ولكن على بك لم يلبث أن عاد من الشام ودخل القاهرة مظهرا الندم والتوبة فانخدع زملاءه بمظهره وأعطوه حكم نوسا الغيط لابعاده عن القاهرة ولكنه ما أن وصل الى هناك حتى دبر مؤامرة للقضاء على زملائه الذين اكتشفوا هذه المؤامرة وقرروا نفيه هذه المرة الى اسيوط وكانت جزءا من ولاية جرجا التى يحكمها خصمه صالح بك.

هكذا وجد على بك نفسه مضطرا للجوء لأقوى منافسيه صالح بك ـ حليف شيخ العرب همام ـ للاستعانة به فى محاولة العودة الى القاهرة والقضاء على منافسيه بها، وقد كانت أهمية صالح بك فى ذلك الوقت تأتى من مخالفته وصداقته لشيخ مصر العليا وسيدها المطاع الشيخ همام الذى كان له النفوذ الفعلى فى الصعيد حينئذ، فقد كان همام وقتها يسيطر على معظم أراضى الصعيد من المنيا الى اسوان ويملك ثروة هائلة وقوة عسكرية ضخمة واسلحة وذخيرة هائلة. وقدر على بك بثاقب بصره ان فى تحالفه مع صالح بك ما يضمن له الحصول على قدر هائل من القوة التى يتمتع بها الشيخ همام والتى كان لا يضن بتقديم الكثير منها لصديقه صالح بك.

ولكن صالح بك رفض كل محاولات على بك للصلح معه متأثرا بما كان من سوء العلاقات بينهما ومحاولة على بك ابعاده الدائم من القاهرة تارة بنفيه الى رشيد، وتارة أخرى بنفيه الى دمياط.

ولجأ على بك الى الاتصال مباشرة بالشيخ همام عله يقنع صديقه وحليفه صالح بك بالتحالف معه، وارسل اليه رسلا بذلك واستخدم الرسل فى ذلك كل سبل الخديعة والقول المعسول والوعود البراقة ملوحين للشيخ همام بعزم على بك تأييد سلطته ونفوذه من الصعيد لو تم له النصر وكذا تثبيت مركز صالح بك كحاكم لولاية جرجا فى ظل سيطرة همام. واستمروا فى ذلك حتى قبل الشيخ همام ان يتم الاتفاق بينه وصالح بك من جهة وبين على بك من جهة أخرى.

ويبدو ان الشيخ همام لم يقبل مساندة على بك الا أنه ادرك خفايا شخصية على بك، وأنه يملك من العزيمة ما سيمكنه من هزيمة زملائه واحراز السيطرة على مصر كلها، ورأى همام فى مساندة على بك ما قد يعود عليه، وعلى صديقه صالح بك بالنفع لو تم النصر لعلى بك وفاز بالسيادة ثانية.

وفعلا تم الاتفاق بينهم، وقبل صالح بك الانضمام الى صفوف على بك الذى سر كثيرا بهذا الاتفاق الذى سيكفل له الحصول على أكبر قدر من الأموال والرجال والعتاد من الشيخ همام.

وقد وعدهم على بك بأنه اذا ما تم له النصر ثبت صالح بك فى حكم ولاية جرجا مدى الحياة أى ثبت نفوذ همام وسلطته فى الصعيد مدى الحياة أيضا فصالح بك كان هو الحاكم لجرجا شكلا ولكن النفوذ الحقيقى فيها كان لشيخ العرب همام، وبمصاحبة صالح بك وبمعونة همام تقدم على بك فى طريقه الى القاهرة بجيش جرار حيث التقى بمنافسيه شمالى بنى سويف فى جمادى سنة ١١٨١هـ اكتوبر سنة ١٧٦٧م حيث دارت المعركة الفاصلة التى انتصر فيها على بك نصرا تاما ودخل القاهرة حيث ثبتت أقدامه هذه المرة فى امارة مصر ورياستها وحيث بدأ فى تنفيذ سياسته التى كانت ترمى الى:

(قتل المتمردين وقطع المعاندين وتشتيت شمل المنافقين) وقد بدأها بالقضاء على حسين بك كشكش وزميله خليل بك سنة ١١٨٢هـ سنة ١٧٦٨م ثم التفت الى صالح بك حليفه الذى سانده فى صراعه الهام ضد منافسيه والذى كانت له بمساعدة صديقه همام اليد الطولى فى حصول على بك على نصره المؤزر على زملائه.

ولكن على بك فى سبيل التخلص من زملائه الذين يخشى من منافستهم له غدر بصالح بك بأن أغرى به بعض أتباعه فاغتالوه ليلا أثناء سيرهم معه قرب سويقة عصفور ببولاق بعد خروجهم من اجتماع ضمهم وعلى بك فى منزله فى ١٨ ربيع الثانى سنة ١١٨٢هـ/ ١١ سبتمبر سنة ١٧٦٨م وبذلك تخلص على بك من آخر صنجق قوى كان يمكن ان ينافسه على مشيخة البلد، ولعل من أهم الأسباب التى جعلت على بك يعجل بالقضاء على صالح بك خوفه من خطورة صالح بك لاستناده الى حليفه القوى المسيطر على الصعيد شيخ العرب همام.

وبذا استقرت الأمور لعلى بك الذى غدا سيد مصر الفعلى، وتطلعت نفسه الى الانفراد بشئون الحكم فى مصر كلها وكان لابد له لتثبيت مركزه

من تعبيد الطريق، ازالة ما به من عقبات كان أهمها كسب ثقة الباب العالى باطاعة أوامر السلطان والتقرب الى ممثلة فى مصر واستصدار فرمانات من الباشا لتنفيذ ما يتخذ من قرارات ونجح على بك فى ذلك نجاحا تاما.

وكان عليه ايضا ان يقضى على ما بقى من قوة الحامية العثمانية فى مصر، فهى وان كانت قد ضعفت واصبح معظم رجالها من أرباب الحرف، الملتزمين ولم تعد هيئات قوية منظمة، الا أنها كانت موجودة وللانفراد بالسلطة فى مصر كان على على بك ان يقضى على كل قوة لها، ولذا اتبع سياسة التخلص منها باهلاك رجالها فى الحروب الداخلية ومنع العناصر غير المرغوب فيها من بين ضباطها من التزام الأراضى ومصادرة أموال البارزين من قادتها أو اعدامهم.

وبعد ان أمن على بك جانب السلطان وقضى على المتمردين والمنافسين له من البكوات المماليك وبعد أن شل نفوذ الحامية العثمانية وركز السلطتين الادارية والحربية فى يده اصبح فى مركز يسمح له بالقضاء على آخر القوى الخطيرة التى يمكن ان تهدد سلطاته ونفوذه وهى:

القبائل العربية المنتشرة فى الوجهين البحرى والقبلى.

وقد أظهر على بك أنه بمحاولته القضاء على سلطة تلك القبائل انما يهدف الى اقرار الأمن الداخلى.

ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك فقد كان على بك يهدف من تحطيم سلطة القبائل العربية فى مصر الى دعم مركزه وفرض سيطرته الخالصة على مصر كلها.

ومحاولة على بك للقضاء على القبائل العربية فى الوجه البحرى قد تكون محاولة صادقة منه لاقرار الأمن فقد كثر عبث الحبايبة بشرق الدلتا واصبحوا أخطر العرب الموجودين بالوجه البحرى وأكثرهم نفوذا وسيطرة وهم ينتسبون الى حبيب بن سعد أعظم مشايخ العرب قدرا بالقليوبية خاصة والوجه البحرى عامة.

وقد وفد الحبايبة أصلا من الحجاز واستقروا فى شطب بأسيوط ثم نزحوا الى الدلتا، وكان ظهور جدهم حبيب فى أوائل القرن الثامن عشر وقد تولى رياستهم فى عهد على بك سويلم ابن حبيب الذى ورث عن أبيه حبيب وعن شقيقه سالم شهرة تردد صداها فى انحاء الوجه البحرى وقد انتهت الى سويلم زعامة جميع القبائل العربية هناك وهابه الجميع لجرأته وشد بأسه.

وقد احيطت اعماله بهالة من الخيال حتى لقد (قوموه وفرسه بألف خيال).

وقد انتهت اليه خفارة (حراسة) الملاحة النيلية بين بولاق وكل من دمياط ورشيد، غير أنه رغم ثروته الطائلة وضياعه الواسعة تجبر وطغى واصبح لا يفترق فى شئ عن قطاع الطرق فزاول القرصنة النيلية وأعد مراكب خاصة لذلك تخرج الى النيل وعليها رجال غلاظ ومزودة بالسلاح فاذا مرت بهم سفينة صاعدة الى الوجه القبلى أو حادرة الى الوجه البحرى أوقفوها فان خضعت لهم اخذوا منها ما يشاءون وان عصتهم او حاولت الهرب منهم تتبعوها وضيقوا عليها الخناق حتى تقع بين أيديهم وحينئذ يأخذون منها أضعاف ما كانوا سيأخذونه منها لو سلمت لهم من أول الأمر.

ورغم تكرر الشكاوى من سويلم فان حكام مصر لم يكونوا يحركون نحوه ساكنا فقد كانت هداياه الفخمة الدائمة لهم تلجم السنتهم وكان له

من امراء المماليك واتباعهم اصدقاء كثيرون يحمون ظهره.

وقد وصل نفوذ الحبابية اقصى اتساع له فى عهد على بك فقد اصبحت معظم بلاد القليوبية والشرقية تحت حماية سويلم بن حبيب وحماية أقاربه وأولاده واصبح الملتزمون فى تلك النواحى تحت رحمته يتدخل فى كل أعمالهم بالاضافة لتحكمه فى الطريق بين القاهرة وموانى القطر الشمالية.

وما كان على بك يسمح لتلك الفوضى بالبقاء فى عهده وما كان يستطيع ان يغمض عينيه عن خطورة سلطة ابن حبيب على نفوذه فى مصر، لذا وجه اليه حملة بقيادة محمد بك أبى الذهب، وأيوب بك للقضاء عليه وفى رواية الجبرتى ان على بك احتج فى ارسال الحملة بما كان من اكرام ابن حبيب لمنافسة حسين بك كشكش وتستره عليه اثناء مطاردة على بك له.

وعندما وصلت الحملة الى دجوه ـ (قرية صغيرة بالقليوبية تقع على الضفة الشرقية لفرع دمياط) ـ لم يكن سويلم موجودا بها وعندما علم بحضورها أسرع الى البحيرة والتجأ الى عرب الهنادى، فاكتفى محمد بك بنهب دياره وأمواله وعاد الى القاهرة سنة ١١٨٢ هـ/ سنة ١٧٦٨م.

ولكن على بك لم يكتف بذلك بل جرد عليهم حملة أخرى بقيادة اسماعيل بك استطاعت هذه الحملة ان تهزم الحبابية والهنادى ايضا فانكسروا شر كسرة، وقضى على سويلم واتباعه وزال خطر هذه القبائل العربية نهائيا ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

وبعد ان تخلص على بك من أخطار عرب الوجه البحرى اتجه للقضاء على عرب الهوارة بالصعيد واستخلاصه من أعظم مشايخ العرب قدرا ونفوذا واتباعا وهو شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى.

وفى محاولة على بك القضاء على الشيخ همام ونفوذه بالصعيد تبدو رغبته فى دعم مركزه بالقضاء على كل ذى نفوذ يمكن ان يهدد نفوذه وسيطرته على مصر.

وترجع اسباب النزاع بين الشيخ همام وعلى بك الى سنوات بعيدة الى عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م حين تحدى همام الامير ابراهيم كتخدا (جاويش) استاذ على بك وسيده ذلك التحدى والعداء الذى لم ينته الا بنهاية الشيخ همام وقد أشار الجبرتى الى هذا المعنى بقوله:

(وأما النفرة التى لم يندمل جرحها فهى دعوة برديس وفرشوط فقد رهن الشيخ همام لابراهيم جاويش ناحية برديس نظير اقتراضه منه مبلغ من المال بشرط أن يتصرف ابراهيم جاويش كيفما يشا فى ناحية برديس ان لم يسدد له الشيخ همام المبلغ الذى اقترضه منه فى الوقت المحدد لسداده.

ولكن همام رفض تسديد هذا المبلغ فى آوانه وتكرر رفضه حتى اضطر ابراهيم جاويش لآن يشكوه لعثمان بك الفقارى صديق الهوارة وزعيم المماليك فى مصر حينئذ ولكن عثمان بك أيد الشيخ همام ورفض اجباره على تنفيذ الشروط التى اتفق عليها مع ابراهيم جاويش الذى غضب لذلك أشد الغضب وتآمر ضد عثمان بك الذى خسر الموقف وفر هاربا الى استانبول، وفقد همام بخروج عثمان بك عن مصر أعظم صديق له من بين الامراء المماليك الكبار ورغم ذلك فقد عجز ابراهيم جاويش عن ان يستخلص ناحية برديس من الشيخ همام الذى كان قد بدأ فى السيطرة على الصعيد

والاستحواذ على أراضيه الواسعة.

جـرى هذا الصـراع بين الشـيـخ همـام وابراهيم جاويش على مرأى ومسمع من على بك الذى كـان تابعـا لابراهيم جـاويش وأحـد مماليكه المخلصين.

ولابد ان موقف همام من ابراهيم جاويش أستاذ على بك قد ترك اثرا سيئا فى نفس على بك ولابد ان هذا التحدى من همام ـ لأحد كبار الأمراء المماليك اصحاب النفوذ فى مصر حينئذ ـ قد نبه على بك الى ما يتمتع به همام من قوة ونفوذ يخشى خطرهما على من تكون له السيطرة على مصر.

ولعل على بك قد اسر فى نفسه حينئذ انه متى سيطر على مقاليد الأمور لابد وان يقضى على الشيخ همام وعلى نفوذه فى الصعيد حتى لا يتطلع الى فصله عن الوجه البحرى متحديا اياه تحدى استاذه من قبل.

ثم أدت الصداقة المتينة التى ربطت بين صالح بك القاسى ـ حاكم جرجا ومنافس على بك ـ وبين الشيخ همام الى زيادة الشكوك فى نفس على بك ضد همام وضد ما قد يحاوله من تحد له ولحكمه وسيطرته على مصر.

وأدرك على بك بعد قضائه على صالح بك انه لابد وأن يزيل من الصعيد نفوذ همام وسيطرته الواسعة حتى لا يفكر همام فى القيام بعمل ضده انتقاما منه لغدره بصديقه صالح بك ونقضه ما كان بينهما من عهود وتحالف تم على يد همام وبرأيه ووساطته بينهما.

وقد كان طبيعيا ان يستنكر الشيخ همام غدر على بك بصديقه وحليفه صالح بك، وأن يفطن الى أنه لم يعد هناك مطلب لعلى بك سوى القضاء عليه هو الآخر بعد ان قضى على جميع منافسيه وعلى القوى التى كانت تهدد نفوذه فى مصر.

وقد سارع على بك ببدء النزال ضد همام عقب التخلص من صالح بك فوجه على همام حملة بقيادة محمد بك أبى الذهب سارت الى الصعيد فى ١٥ رجب سنة ١١٨٢ هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٧٦٨م لفرض شروط على بك على الشيخ همام وهى الشروط التى كانت تقضى بأن يقصر الشيخ همام منطقة نفوذه وسيطرته على أراضى الصعيد ابتداء من برديس (قرية بجوار مدينة جرجا تقع بحرى فرشوط مقر همام) وهى القرية التى سبق النزاع بشأنها بين همام، وابراهيم جاويش أستاذ على بك.

اى ان تلك الشروط كانت تقضى بأن يقصر همام نفوذه على المنطقة التى كان يتركز فيها الهوارة فى قنا واسوان وليس على الصعيد كله.

وقد كان على بك وقتها فى مركز يسمح له بتحدى شيخ الصعيد واملاء أوامره عليه فقد اصبح على بك شيخا للبلد وسيد مصر الفعلى، وكانت الدلائل كلها تشير الى انه سيكون الحاكم المطلق لمصر كلها.

لذا آثر الشيخ همام الخروج من الجولة الأولى بدون اشتباك كان يدرك مقدما أنه سيخسره، وقبل همام شروط على بك بتحديد منطقة نفوذه ابتداء من برديس، وترك الأراضى الواقعة شمالها الى المنيا ـ والتى كانت من قبل تحت سيطرة همام ـ لعلى بك يتصرف فيها كما يشاء.

ولا شك ان الشيخ همام قد قبل هذه الشروط بدون مقاومة وانسحب مؤقتا حتى يجد له منفذا آخر ولكن كلا من الطرفين لم يكن ينوى حقيقة تنفيذ هذا الاتفاق فقد بقيت تلك الأراضى فى التزامات الشيخ همام وكان قبول همام للاتفاق ماهو الا تقدير منه لخطورة الموقف فقط وقوة الخصم الذى يقف امامه فآثر الانسحاب ريثما يعيد النظر فى موقفه. ولكى يغرى محمد بك أبا الذهب بالعودة وربما ليستميله ويجعله يثنى على بك عن نية القضاء عليه تنازل له عن التزام ناحية برديس هدية منه له ـ أى بدون ان يقبض ثمنها لهذا التنازل بمناسبة مولد ولد لمحمد بك.

وقد كانت تلك هى الجولة الأولى بين همام، وعلى بك تلك الجولة التى أكدت لهمام أن:

على بك قد عقد العزم تماما على القضاء عليه وعلى سيطرته الواسعة على الصعيد

ولم ينخدع على بك بالانسحاب الهادئ الذى قدمه الشيخ همام بتنازله الظاهرى عن أراضيه، ولم ينس على بك الشكوك التى كانت ما تزال تؤرقه من ناحية الشيخ همام وما يربطه أى همام من صلات الود بالدولة العثمانية نفسها التى سمحت له بمد نفوذه على أراضى الصعيد من المنيا الى اسوان باذنها فقد كان همام كما قدمنا يحصل على كل أراضيه بالالتزام بأذن الدولة ورضائها.

وعاد التحرش من جديد واستأنف على بك الصراع حتى لا يترك لهمام فرصة للتفكير أو العمل فأرسل اليه يطلب منه طرد الأمراء المماليك المعادين له والمقيمين بأراضيه عربونا لاقراره لشروط الاتفاق التى جرت بينه وبين محمد بك أبى الذهب.

وهنا تأكد لهمام بما لا يدع مجالا للشك رغبة على بك فى القضاء عليه وأنه لن يتركه يهنأ بما كان له من سيطرة ونفوذ فى الصعيد لذا قرر همام فى هذه المرة ان يقوم بعمل ايجابى لمقاومة محاولة على بك للقضاء عليه، ولكنه لم يعلن عداءه صراحة لعلى بك ولم يقاومة وجها لوجه بل لجأ الى الأمراء المماليك خصوم على بك والموجودين فى أراضيه مثل:

اتباع صالح بك القاسمى وباقى القاسمية وأتباع كثير من البيوت المملوكية التى قضى عليها على بك مثل بيوت:

الخشاب. الفلاح، الجلفى، مناو، السكرى، أتباع كشكش بك.

وكان هؤلاء يمثلون عددا كبير من الأمراء والأتباع فحرضهم همام واتفق معهم على ان يتقدموا للاستيلاء على اسيوط وانتزاعها من اتباع على بك تمهيدا لتقدمهم الى القاهرة لاجلاء على بك عنها والقضاء على حكمه لمصر واسترجاع ما كان لهم من نفوذ وسطوة على أن تبقى له سيطرته على الصعيد، وفعلا وافقه الأمراء على ذلك، فأمدهم همام بالرجال من كبار الهوارة ومن أهالى الصعيد فتكون لهم جيش كبير قدم له همام كل ما يحتاج اليه من أموال وذخائر ومؤن.

وانتهى الأمر باستيلاء الأمراء حلفاء همام على اسيوط ووصل الخبر الى على بك الذى كان قد أرسل حاكما جديدا لجرجا من خاصة صناجقه وهو أيوب بك فى محرم سنة ١١٨٣هـ/ مايو سنة ١٧٦٩م وأمره بالتوجه الى جرجا لتولى منصبه، وخرج أيوب الى الصعيد متوجها الى جرجا ومعه عدد كبير من الجند والأتباع، ولكنه وجد ان الصعيد فى قبضه همام وحلفائه فأرسل يطلب مددا من على بك لمواجهة الموقف.

وقد ادرك على بك اهمية المعركة القادمة وأنه لتثبيت سيادته على مصر لابد وأن ينتصر فى هذه المعركة ولابد وان يقضى قضاء نهائيا على الشيخ همام الذى اصبح منبعا للخطر الداهم يتهدد به نفوذه وبقاؤه فى الحكم.

لذا جهز على بك وبسرعة فائقة جيشا ضخما حشد فيه الى جانب جنده المماليك مجموعة كبيرة من رجال الفرق العسكرية كلها وعلى رأسهم اثنان من بكواته الذين يثق فيهم وهم:

خليل بك القاسمى وابراهيم بك.

وأرسل هذا الجيش بسرعة للانضمام لجيش ايوب بك حاكم جرجا لمحاربة همام وحلفائه.

وقد حشد على بك لهذه المعركة كل قواه فلم يكتف بما أرسله بل ارسل حملة ضخمة بقيادة قائده المظفر محمد بك ابى الذهب ومعه رضوان بك ومجموعة من الأمراء والصناجق اتباع على بك وضمت هذه الحملة اعدادا ضخمة من:

المماليك والمرتزقة من الدلاء والدروز والمتاولة والشوام.

وانضم الجميع الى جيش ايوب بك الذى كان معسكرا خارج اسيوط التى كانت مازالت فى أيدى حلفاء همام.

وتقديرا من على بك لأهمية هذا الصراع وخطورة المعركة القادمة استمر فى ارسال الامدادات والذاخئر المتوالية الى رجاله الذين اصبحوا يضمون جيشا ضخما مكونا من ثلاثة جيوش وهم جيش أيوب بك وجيش خليل بك وجيش محمد بك أبو الذهب الذى تزعم الجميع.

وأمام أسيوط دارت المعركة الحاسمة التى كتب النصر فيها لقوات على بك بعد قتال عنيف قتل فيه الكثيرون من أعداء على بك من الأمراء المماليك وفرت فلول المهزومين الى فرشوط مقر الشيخ همام.

وقد كان من الطبيعى أن ينتصر رجال على بك على حلفاء همام فقد كان رجاله يمثلون قوة الدولة وقد هيأ لهم على بك الوسائل التى تضمن تفوقهم من تزويدهم بالأعداد الهائلة من الرجال والأموال والمؤن والأسلحة.

بينما كانت قوة همام أقل عددا وأضعف استعداد لأن حلفاءه من المماليك لم يكونوا أكثر من جماعة من الأمراء اللاجئين الى الصعيد بعد فقدهم كل قوتهم وثرواتهم التى جردهم منها على بك،وما قدمه لهم الشيخ همام من رجال لم يكن لهم من المهارة الحربية ومن التدريب والتسليح وحسن الاستعداد ما يضمن لهم التغلب على الجند المماليك والطوائف العسكرية الأخرى التى كانت تتألف منها قوات على بك. وبعد انتصار على بك الساحق على حلفاء همام ورجاله فى معركة أسيوط أمر قائده محمد بك أبى الذهب بالزحف فورا الى فرشوط لمحاربة الشيخ همام والقضاء عليه.

وقبل أن يجد همام مخرجا من هذا الموقف، وقبل أن يتقدم برجاله لمواجهة جيش محمد بك لجأ محمد بك الى سلاح العصر وهو سلاح الخيانة والخديعة فأغرى أبن عم همام الشيخ اسماعيل أبوعبد الله بخيانة همام وأخذ يستميله واعدا اياه برئاسة الصعيد بدلا من همام اذا ما تقاعس عن القتال فى صفوف همام ونشر فكرة التخاذل بين جنده.

وبهذه الوعود البراقة استثار محمد بك جوانب الضعف الانسانى والأنانية الشخصية التى جعلت الشيخ اسماعيل ينخدع بحيلة أبى الذهب ويخون أبن عمه الشيخ همام ويتراجع عن

القتال معه بل ويضم الى صفوفه الكثيرين من رجال همام.

ويبدو أن الشيخ همام كان يعقد أهمية كبيرة على وجود ابن عمه هذا بين صفوفه، لذا قصمت هذه الخيانة ظهره وفتت فى عضده اذ أدرك أنه لن يبقى له شيء بعد أن خانته عشيرته وتخلى عنه أقرب الناس اليه، لهذا أدركه حزن قاتل واضطر الى التقهقر وخرج من مسقط رأسه وموطنه وعاصمة نفوذه ومجده فرشوط ومات (مكمودا مقهورا قرب اسنا فى قرية قمولة). فى ٨ شعبان سنة ١١٨٣هـ/ أول نوفمبر سنة ١٧٦٩م وكان فى نحو الستين من عمره.

وبوفاة همام انتهت حياة تلك الشخصية الفريدة فى عصرها وتقرر النصر النهائى لعلى بك الذى تخلص من آخر قوة كانت تؤرق مضجعه، وتقف عقبة فى سبيل فرض سيادته الخالصة على الصعيد فغدا على بك بموت همام سيد مصر كلها وصاحب النفوذ المطلق فيها.

بعد خروج الشيخ همام من فرشوط دخلها محمد بك أبو الذهب ورجاله ونهب ما بها من أموال همام وأخذ ما كان بدياره وديار أقاربه وأتباعه من ذخائر وغلال ثم رجع الى القاهرة وبصحبته درويش أكبر أبناء همام الذى قدمه الهوارة وأشاروا عليه بمقابلة محمد بك ففعل.

وقد تفرق الأمراء حلفاء همام بعد وفاته لفقدهم الأمل فى مقاومة على بك فمنهم من ذهب الى درنه ومنهم من ذهب الى تركيا ومنهم من ذهب الى الشام.

وأما درويش فبعد أن قابل محمد بك طلب منه أن يحصل له على العفو من على بك فرحب محمد بك بذلك وأخذه معه الى القاهرة وأسكنه بجوار منزله ولعله قصد بذلك تحديد اقامته حتى تهدأ الأمور وبقى الشيخ درويش بمصر فترة كان يقوم فيها بالتجول فى القاهرة لرؤية معالمها وزيارة أوليائها والتنزه فيها وكان الناس يعدون خلفه لمشاهدته والنظر اليه لجماله ووجاهته ولما سمعوه عن أخبار أبيه الشيخ همام.

وبشفاعة محمد بك منح على بك درويشا التزام أراضى فرشوط.

كيف ادار علي بك الصعيد بعد وفاة همام

استولى على بك وقائده محمد ابوالذهب على معظم الالتزامات الهامة والتى كانت للشيخ همام من قبل واصبح اسمهما هو الذى يرد أمام هذه النواحى وسجلت دفاتر الالتزام اسمهما بدلا من اسم همام.

ففى دفتر رقم ٥٣٩ لسنة ١١٨٤هـ عين ٨.

ورد أن على بك أخذ أراضى طهطا، شندويل، شرق بويط، منشأة أخميم، وشرق أخميم، برديس، قنا.... شركة مع محمد بك ابى الذهب.

وترك على بك لأبناء همام، درويش وشاهين وعبدالكريم أراضى محدودة فى محافظة قنا.

ووزع باقى أراضى همام بين لأمراء المماليك مثل:

اسماعيل بك أمير الحج، ومصطفى بك حاكم جرجا وايوب بك وقيطاس بك، ومراد بك، وابراهيم

بك، ومجموعة اخرى من البكوات المماليك.

ومجموعة من أقارب همام مثل:

الشيخ اسماعيل عبدالله عيسى.

ابراهيم عيس أحمد همام.

صالحة زوجة همام، وابنته شريفة.

وقد تولى درويش بن همام مشيخة الهوارة بعد وفاة والده وبعد ان توسط له محمد بك ابوالذهب لدى على بك الذى وافق على عودته الى فرشوط واعطاه التزامها.

ولكن درويشا لم يحسن ادارتها وجعل كل همه مضايقة من كانوا يعملوا فى خدمة أبيه بمصادرة أموالهم وانتهى أمره بالفشل وعاد ثانية الى القاهرة لاجئا الى محمد بك ابوالذهب الذى احسن استقباله واكرامه وأنزله بمنزل مجاور لمنزله أيضا.

ويبدو ان محمد بك كان يحسن معاملة الشيخ درويش لاكتساب ود الهوارة استعدادا للجولة القادمة ضد سيدة وولى نعمته على بك وهو ما وقع فعلا فعندما تمرد محمد بك على سيده خرج الى الصعيد ولحق به درويش بن همام وساندة الهوارة ضد على بك.

اثر القضاء على سلطة همام في حياة الصعيد

بعد القضاء على سيطرة همام على الصعيد واجهت اسرته متاعب كثيرة فقد فشل ابنه درويش كما قدمنا فى تولى رئاسة الهوارة لضعف شخصيته وسوء سياسته.

وأما ابناه الآخران شاهين وعبدالكريم فقد استمرا يشتغلان بالزراعة حتى قتل شاهين على يد مراد بك سنة ١٢١٤هـ (١٧٩٩م) لأمور نقمها منه ايام الفرنسيين ومات عبدالكريم قريبا من هذا التاريخ.

ولما تولى ابراهيم بن محمد على حكم الصعيد سام هذه الاسرة اقسى انواع العذاب اذ جردها من كل مابقى لها من التزامات وأوقاف سنة ١٢٢٣هـ/ ١٨١٣م مما أدى الى تدهور حالتها، ولجوء أفرادها وعلى رأسهم زوجة عبدالكريم بن همام الى القاهرة لرفع شكواهم الى محمد على عله يرفق بهم ولكن محمد على تجاهلهم ولم يستمع لشكواهم فعادوا الى بلادهم فى أسوأ حال.

وكان ذلك لحرص محمد على على القضاء على العصبيات العربية وعلى كل ما كان لها من نفوذ.

وقد تابع الهوارة بعد همام التدخل فيما كان يجرى من احداث سياسية بين أمراء المماليك ولكنهم فقدوا الأهمية التى كانت لهم فى عهد همام واستهان بهم أمراء المماليك واصبح رؤساؤهم من المهانة بحيث يروحون ويجيئون فى ركب الأمراء المماليك المتنازعين مع زملائهم بالقاهرة واللاجئين الى الصعيد.

وفقد الهوارة ما كان لهم من مكانة يحترمها الجميع وغدا شيوخهم يتنقلون بين أطراف النزاع تارة ينضمون الى مراد بك وتارة ينضمون الى خصمه اسماعيل بك مما أدى الى استهانة مراد بك بشيخهم اسماعيل ابوعلى فأمر بقتله ومصادرة أمواله سنة ١١٩١هـ/ ١٧٧٧م.

وبنهاية همام اصبح الصعيد ملجأ للأمراء المماليك الذين نفوا واحدا تلو الآخر وظل هدفهم دائما ان يعودوا ليحكموا القاهرة.

فلما طرد على بك محمد ابا الذهب لجأ الى الصعيد وجمع حوله الهوارة والأمراء المنفيين واستغلهم في تدعيم موقفه. وزحفه على القاهرة لملاقاة سيده على بك.

وبعد وفاة محمد بك وقيام الصراع بين افراد بيته الذين انقسموا الى فريقين:

١ـ فريق يتزعمه حسن بك واسماعيل بك.

٢ـ فريق يتزعمه مراد بك وابراهيم بك.

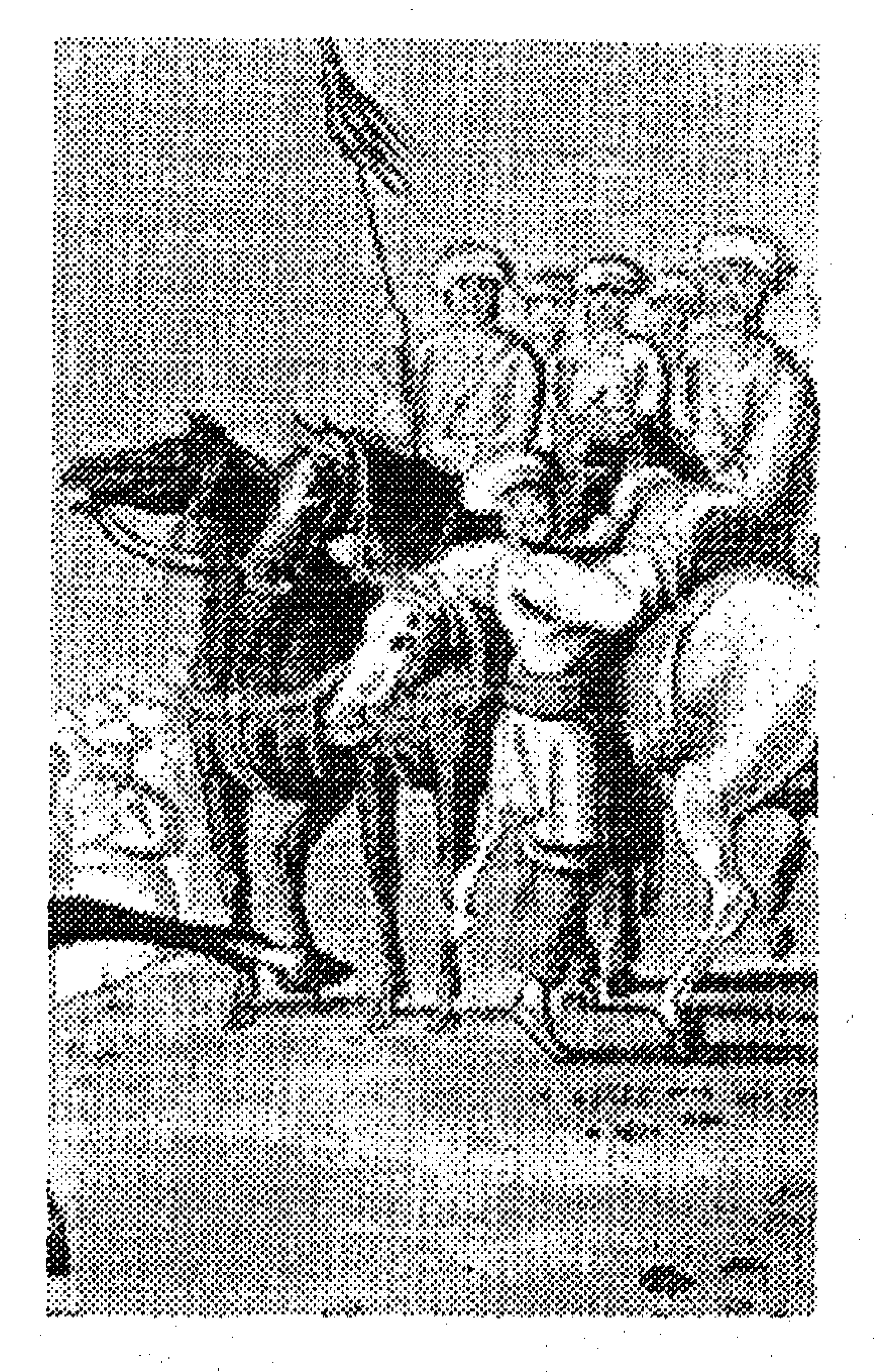
وسقط الفريق الأخير في البداية في الصراع فانسحب رئيساه الى الصعيد سنة ١١٩١هـ/ ١٧٧٥م واستمرا يعودان الى القاهرة ثم يخرجان الى الصعيد حتى انتهى الأمر باستقرارهما بالصعيد ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م: ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م وقد أذاقا أهل الصعيد في هذه المدة سوء العذاب واثقلوهم بضرائب فادحة فقد استولى مراد بك وزميله ابراهيم على ارض الصعيد واصبحا يأخذان الأموال الأميرية بدلا من الحكومة ومنعا وصول الغلال الى القاهرة واشتطا في نهب اموال الفلاحين وأبقارهم واغنامهم.

حتى انه عندما عادا الى القاهرة صحبا معهما اشياء كثيرة من هذا القبيل.

وقد اثرت سيطرة هؤلاء الأمراء على الصعيد اسوأ الأثر. فقد فرضت اثناء هذه السيطرة على اهل الصعيد ضرائب لم يكونوا يخضعون لها قبل مثل رسوم رفع المظالم وهى ضريبة أنشأها محمد بك ابوالدهب وصرح للحكام بتقاضيها بدلا من زياداتهم المستمرة لضرائب الكشوفية.

وتعرض أهالي الصعيد ايضا لدفع رسم جديد عرف بأسم فرده التحرير. وهو رسم فرضه مراد بك وابراهيم بك وهذه الرسوم كان الهمامية لا يدفعوها.

واثناء منازعات هؤلاء الأمراء تعرض الصعيد لهجمات الأعراب القاسية ينهبون المسافرين ويوقعون بهم اقسى انواع الاهانة*.



* عن كتاب «الصعيد في عهد شيخ العرب همام للدكتورة ليلى عبد اللطيف. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٧

حجة اسقاط شيخ العرب همام أول رجب سنة ١١٨٢هـ الأمر حسبما حرر فيه /ختم رب وفق أمور احمد

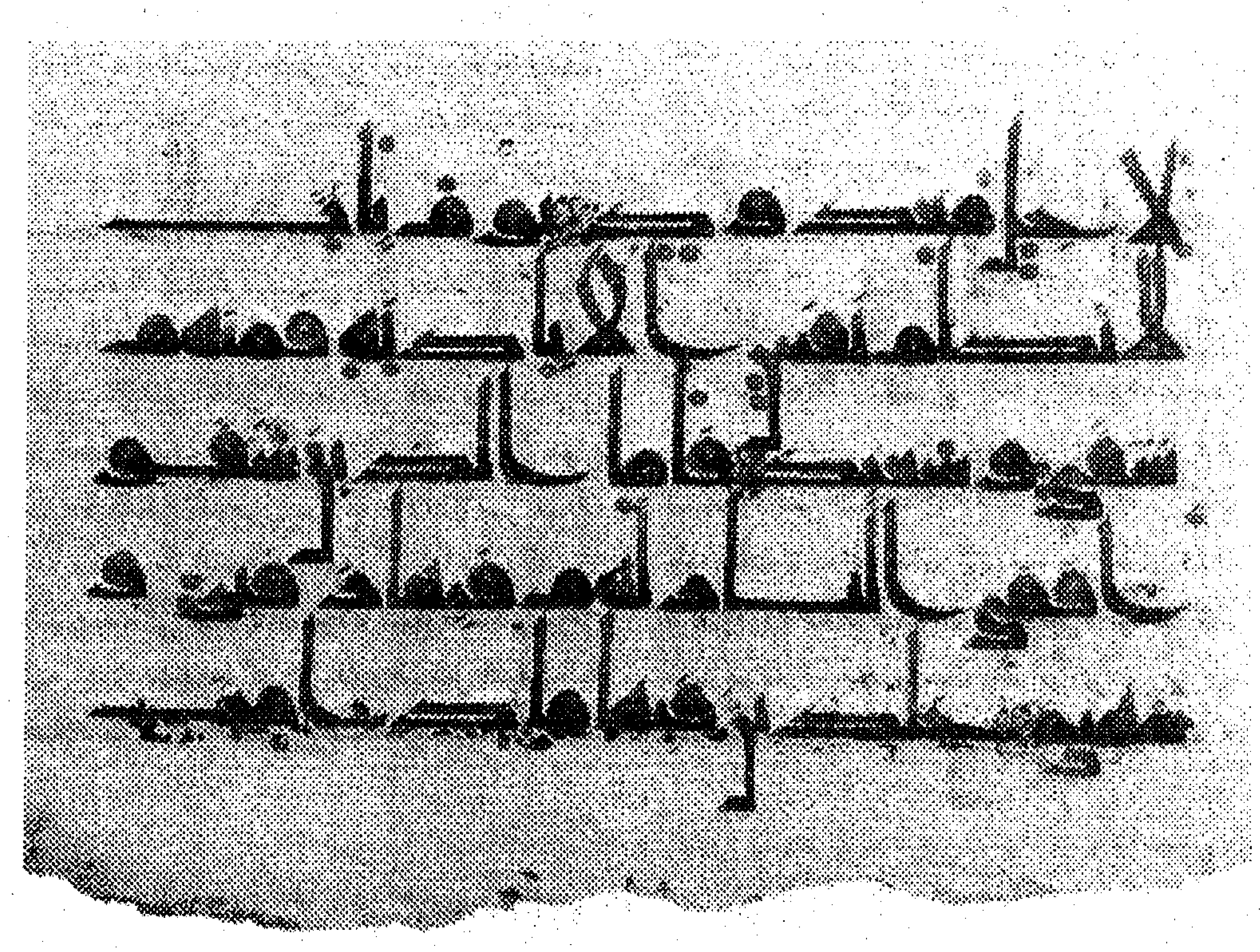
نمقة الفقير اليه جل شأنه الحاج احمد القاضى بمصر المحروسة بالباب العالى أعلاه الله تعالى وشرفه بمصر المحروسة لدى سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاسلام ملك العلماء الاعلام قاموس البلاغة ونبراس الافهام الناظر فى الاحكام الشرعية قاضى القضاة يومئذ بمصر المحمية الموقع خطة الكريم أعلاه دام علاه آمين أشهد على نفسه قدره الأمراء الكرام كبير الكبر الفخام صاحب القدور والمجد والاحتشام المقر الكريم العالى والكوكب المنير المتلألئ وصاحب العلم المنيف الخاقانى مولانا الأمير على بك امير الحجاج المصرى سابقا وشيخ البلد حالا دام عزه آمين بخط يده كل من قدره الأكابر وعمده الأعيان أولى الشأن الفخام الجناب العالى حايز رتب المفاخر والمعالى، مولانا الامير عثمان اغا وكيل دار السعادة العظمى بمصر حالا وقدوة الاعيان العظام عين أولى الشان الفخام الجناب العالى الأمير سليمان باش جاويش طايفة مستحفظات قلعة مصر المحروسة سابقا دام مجدهم شهوده الأشهاد الشرعى وهو بكامل الاوصاف المعتبره شرعا اذ فرغ وترك وأسقط حقه لفخر ذوى المحامد العظام المجلس العالى شى العرب همام بن المرحوم يوسف أحمد همام شيخ عربان هواره بالوجه القبلى المشمول بوكالة مولانا الأمير عثمان اغا وكيل دار السعاده المومى اليه اعلاه الثابت تاكيله عنه فى ذلك لدى مولانا شيخ الاسلام المومى اليه اعلاه بشهادة كل من تابع الوكيل المومى اليه اعلاه هو قدوة الأماثل وعمدة الاعيان الجناب العالى الأمير حسن اغا من اعيان امراء الجاويشيه وفخر الكتاب المعتبرين عمدة الحساب والمحررين نتيجة الاصلا المفخمين القاضى سراج الدين عمر بن المرحوم الشيخ احمد الكاين هو بمنزل مولانا الأمير عثمان اغا المومى اليه اعلاه ثبوتا شرعيا من التصرف والتحدث والالتزام والتقسيط بجميع الحصة التى قدرها اثنان وعشرون قيراطا من اصل اربعة وعشرين قيراطا شايعا ذلك فى كامل أراضى ناحية بنى نصر وغيره تابع ولاية المنفلوطية المعلوم ذلك عندها شرعا والجارى كامل اراضى الناحية المسقط منها الاثنان وعشرون قيراطا المذكورة فى تصرف وتحدث والتزام وتقسيط مولانا الأمير على بك المسقط المشار اليه اعلاه يشهد له بذلك التقسيط الديوانى المكمل بالختم والعلامة والصح على العادة فى ذلك المركب على اسمه المتضمن لكامل ناحية بنى نصر المسقط منها الاثنان وعشرون قيراطا المذكورة المؤرخ فى ثالث شهر ذى القعدة الحرام سنة أحد وثمانين ومائة وألف ولمولانا الأمير على بك المسقط المومى اليه اعلاه ولاية فراغ ذلك وسقاطه عن نفسه بدلالة ما شرح اعلاه وبالتصادق على ذلك فراغا ونزول واسقاطا شرعيا ثابتا ذلك خاليا عن رهن ووعد ووفا من غرة شهر توت القبطى افتتاح سنة اثنين وثمانين ومائة وألف الخراجية العقد بينهما فى ذلك يوم تاريخه بايجاد وقبول شرعيين عن طيب وانشراح صدر لما علم السقط المومى اليه اعلاه لنفسه فى ذلك من الحظ والمصلحة باعترافه بذلك لشهوده ومن سمى اعلاه فى يوم تاريخه الاعتراف الشرعى وصدقه على ذلك مولانا الأمير عثمان اغا الوكيل المومى اليه اعلاه تصديقا وقبولا شرعيين وذلك فى نظير ما

قبضه مولانا الأمير على المسقط المشار اليه اعلاه لنفسه من مولانا الأمير عثمان اغا الوكيل المشار الى اعلاه من مال موكله شيخ العرب الشيخ همام يوسف المومى اليه اعلاه عن حلوان ذلك وقدره من الأكياس المصرية الديوانية اثنى عشرة كل كيس منهم خمسة وعشرون ألف نصف فضة ديوانى مايتا كيس واثنتان وخمسون كيسا مصرية ديوانية). قبضا شرعيا بتمام ذلك وكما له باعترافه بذلك لشهوده ومن سمى اعلاه فى يوم تاريخه الاعتراف الشرعى ولم يتأخر لمولانا المسقط المشار اليه اعلاه قبل الوكيل المومى إليه أعلاه ولا قبل شيخ العرب همام المسقط له المرقوم من كامل ذلك ولا من بعضه مطالبة ولا شى قل ولا وبمقتضى ذلك وبما شرح أعلاه صار الشيخ همام يوسف الموكل المسقط له المرقوم مستحق التصرف والتحدث والتقسيط والالتزام بجميع الحصة التى قدرها

اثنان وعشرون قيراطا المسقطة المرقومة من ناحية بنى نصر وغيره المذكورة من ابتداء السنة المذكورة بطريق البت الشرعى الخالى عن الرهن والوعد والوفا فى نظير مبلغ الحلوان المقبوض منه اعلاه دون مولانا الأمير على المسقط المومى اليه ودون كل احد الاستحقاق والتصرف الشرعى بالطريق الشرعى المشروح أعلاه وتصادقا على ذلك وثبت الأشهاد بذلك لدى مولانا شيخ الاسلام المومى اليه بشهادة شهوده ثبوتا شرعيا تاما مرعيا وشهد وحرر فى غرة شهر رجب الأصم الأحب من شهور سنة اثنين وثمانين ومائة وألف خراجية.

شهود

امضاء امضاء امضاء امضاء امضاء امضاء



أمر رقم (١) من الشيخ همام لحسن الأمير

المحترم حسن الأمير

بعدالسلام وعليه لم يخفاه ان حضر لنا على عبد الرحيم وعرفنا أن له معاك حصة فى بيتين وانت له معاه حصة فى بيت طالب وتأخد مخصصك الذى عنده والمذكور طالب يأخد مخصصة الذى فى بيوتكم وانك تندفع معاه للشرع والذى يقتضيه (الحكم) الشرعى تمشوا عليه.

الفقير همام يوسف

***

أمر رقم (٢)

القدر الأجل المحترم الشيخ أبو بكر أحمد

بعد السلام عليه وكثرة الأشواق اليه لم يخفاه قضيت الثلاثة قراريط ونصف الذين اشتراهم غزالى الأمير ودفع لنا ثمنهم بالكامل فأنه عرفنا ان احمد غريب وأبو فتحى حاجزين منه قطع من ضمن الثلاثة قراريط ونصف وانك تحرضهم عليه ولم تعرفهم لم لك دعوة تمسك لأنه دفع ثمنهم وبقوا اليه والغفارة من أصلها لنا وشركة مع الأمير اسماعيل

الفقير همام يوسف

تقسيط رقم (١)

ختم/ بمحمد يرجو الأمان محمد فما يخاف وفى نوالك رغب

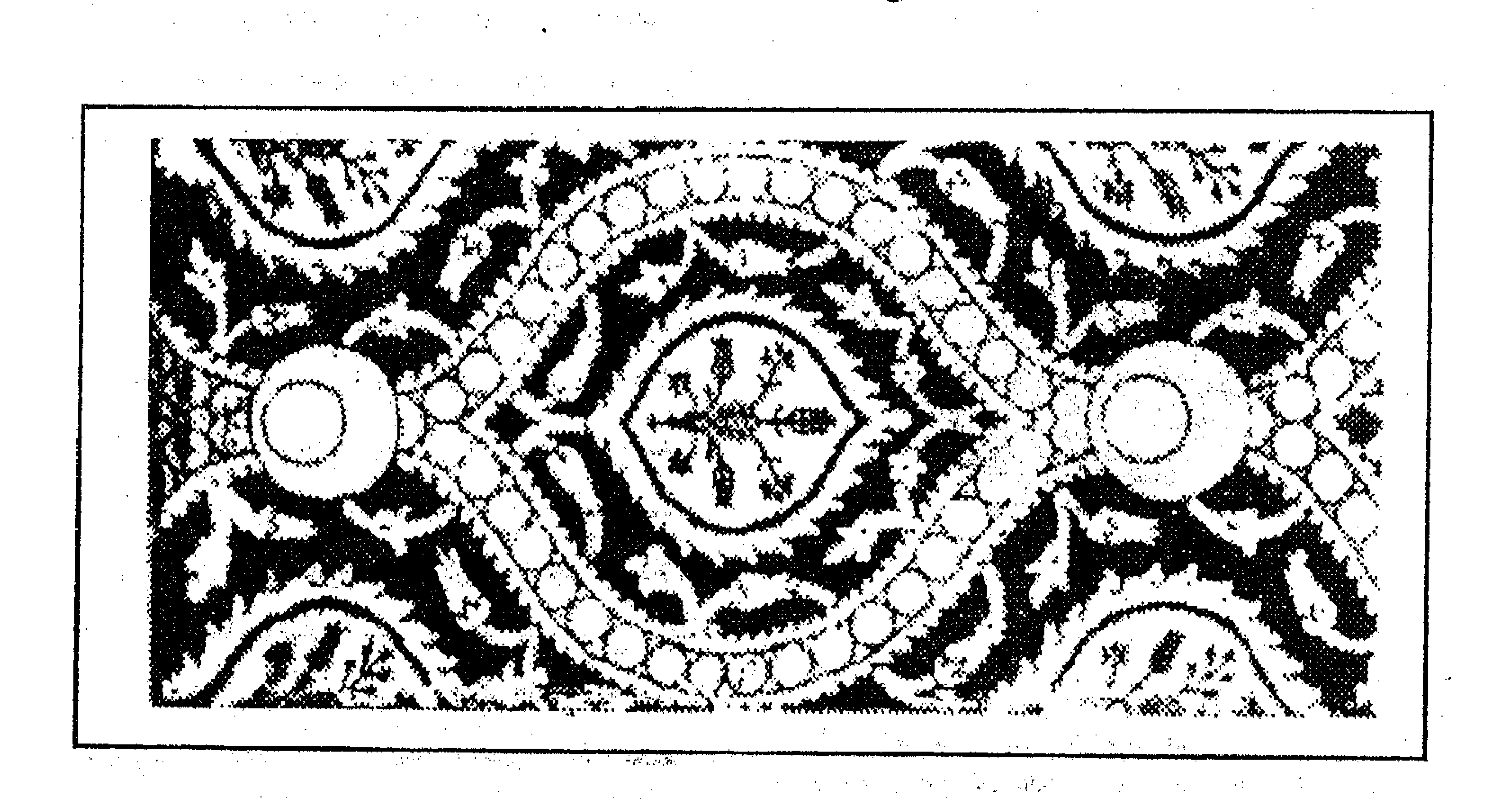
مقاطعة

حماية قرية حراجيه تابع قوصية ١٢ط تابع ولاية جرجا در عهده شيخ العرب همام يوسف بقدر ١٢ قيراط وجه التزام قيد شده أول توت الواقع فى ٥ ذى القعدة سنة ١١٦٠ من اسم اسماعيل عبدالله تابع محمد احمد مستحفظان خربوطلى ملتزم بوجه ١٢ط يضم قراى مذكور كبيره وقيدشدة بموجب بيورلدى شريف حضره وزير ضمير روش محمد راغب باشا محافظ مصر آدام الله اجلاله الواقع فى ١١ جمادى الأولى سنة ١١٦١.

توقيع

الدفتردار

محمد مصطفى



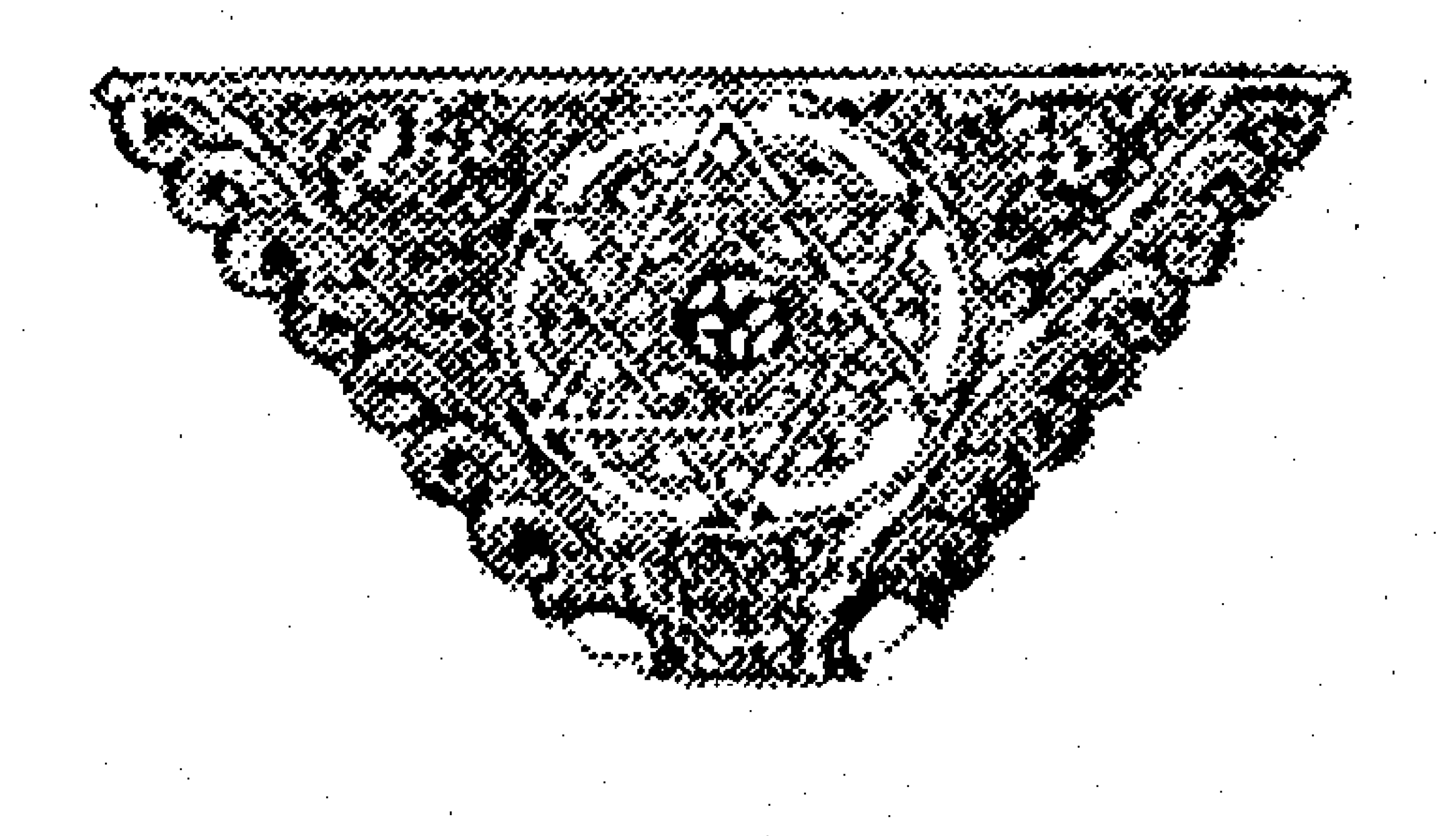
حجة رقم (٢) ١٠ رجب سنة ١١٥٦هـ

المنسوب الى فيه صحيح الفقير عيسى أحمد همام ختم الفقير عيسى أحمد همام.

الحمد الله رب العالمين ما نمقه وشرح فيه صدره الفقير على عثمان عقيق الدين القرشي المولى بفرشوط حالا عفى الله عنه.

سبب تحرير الحروف وباعث تسطيرها بين يدى الحاكم الشرعى الراقم خطه ومهره باسم الكريمين منه أعلاه نزل وفرغ وتخلى واسقط حقه حضرة الجناب العالى الصدر الأجل المحترم شيخ العرب الشيخ عيسى الواضع اسمه وختمه فيه ابن شيخ العرب الحاج احمد محمد همام لحضره الجناب العالى الصدر الأجل المحترم شيخ العرب الشيخ همام يوسف احمد محمد همام الجد المشار اليه المسقط الجارى ذلك فى تحدث وتصرف والتزام وتقسيط الشيخ عيسى المشار اليه البعض بموجب تقسط ديوانى والبعض آل اليه بالفراغ والاسقاط سنة تاريخه من الأمير ابراهيم جاويش مستحفظان قزدغلى بموجب حجة من هذه المحكمة مشمولة بعلامة الحاكم الشرعى المشار إليه وله ولاية اسقاط ذلك وذلك عن جميع الحصة التى قدرها النصف اثنى عشر قيراطا شايعا من اصل أربعة وعشرين قيراطا فى ناحيتى سمهود والخولجان تابع ولاية جرجا وذلك فى غرة توت القبطى سنة ١١٥٦ (ستة وخمسين ومائة وألف) وما بعدها من السنين نزولا وفراغا واسقاطا بتا وذلك فى نظير مبلغ الحلوان عن ذلك قدره من الاكياس الديوانية ثلاثة عشر كيسا ونصف كيس عبوة كل كيس منها خمسة وعشرين ألف نصف فضة ديوانى بحساب الشريف الفندقلى ماية وستة وأربعين نصف نصف فضة واعترف الشيخ عيسى المسقط المشار اليه بوصول ذلك اليه من الشيخ همام المسقط له المشار اليه بتمام ذلك وكماله بالاعتراف وبالتصادق على ذلك بموجب ذلك صارت ناحيتى سمهود والخولجان بالكامل فى تصرف وتحدث والتزام وتقسيط الشيخ همام المشار اليه من ابتداء سنة تاريخه وما بعدها من السنين النصف له أصلا والنصف الآيل اليه بالفراغ من عمه الشيخ عيسى المشار اليه واذنه اليه الشيخ عيسى فى وضع يده وتعاطى الناحيتين مال وغلال فى سنة تاريخة وما بعدها من السنين وان يقوم بما عليها لجانب الديوان وان تقسيطه ذلك باسمه واسم من يختار على العادة وحرر فى عاشر شهر رجب سنة ١١٥٦ ستة وخمسين وماية وألف.

شهد بذلك	شهد بذلك
محمد على	ابراهيم عثمان



عن كتاب «الصعيد فى عهد شيخ العرب همام
د. ليلى عبداللطيف. الهيئة العامة للكتاب/ القاهرة/ ١٩٨٧.

وثيقة عن نسب الهوارة الى اسرة الرسول ﷺ في عام ١١٠٢هـ / ١٦٩٥م. مصدر الوثيقة: دار الوثائق القومية بالقلعة بالقاهرة، سجلات محكمة قنا محفظة رقم (١).

بالمحكمة الشرعية المطهرة المرضية ببندرالقصير الشامي حرره اليه سبحانه ابو بكر عمره الله تعالى بذكره بين يدى الواضع خطه وختمه فيه باسمه اعلاه لطف الله تعالى به وتولاه واجرى الخيرات على يداه لجاه سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم خير انبياه وحضر الى المجلس المشار اليه الصدر الجليل مولانا وسيدنا سلالة ال طاه وياسين فرع الشجرة الذكية وطراز العصابة الهاشمية الامير يوسف بيك احمد همام وابنه الشاب القاصر عن درجة البلوغ الامير همام وشقيقه الامير عيسى وبنى عمه الامير على سليمان محمد وشقيقه الامير دشناوى القاطنين بفرشوط حضر لحضورهم مولاى الامام الشريف محمد بن احمد حسن قسم الحسينى لبقية امراء ومولاى الامام اسماعيل بن على بن محمد الحسينى حامى حمى المغرب الاقصى والشريف محمد احمد ابراهيم الادريسى الحسينى المغربى والشريف عبدالكريم محمد محمد شرف الدين الحسينى نقيب الاشراف بدمشق الشام والشريف صالح حسن على الحسينى حامى بهوت وشيخ الاسلام الشريف محمد والشريف عبدالله احمد سيف الاسلام بكار همام سر عسكر والامير حمد ابن الامير خلف ابو حزوف ابن الامير ابوبكر بكار همام محتسب الصعيد ثم بعد حضورهم طلبوا من حضرة قاضى الديوان المشار اليه اعلاه ان يلحقهم بسلسلة نسب ابائهم واجدادهم وابرزوا فرمانات شاهانية سلطانية وحججا وانسابا واحكاما قاطعة بصحة نسب السدة الهمامية وانهم من خلاصة العترة الطاهرة النبوية المحمدية فوجدنا ذلك كله صحيحا بالتطبيق معهم بغاية الدقة والتحرير وعلى هذا حكمنا فى كمال هذا النسب المتفق عليه والمقطوع بصحته من المستندات المذكورة واتصاله بالملاذ الاحمى حكما مرعيا بالحاق لنسب السادة المتقدم ذكرهم بسلسلة لنسب ابائهم واجدادهم كما جاء فى المستندات المذكورة ان الشاب الامير همام ابن الصدر الجليل مولانا وسيدنا يوسف بيك وشقيق مولانا وسيدنا الامير عيسى ولدا مولانا امير الصعيد احمد همام ابن مولانا وسيدنا امير الصعيد صبيح ابن مولانا وسيدنا امير الصعيد وبرقة همام سيبيك والامير على وشقيقه الامير دشناوى بيك ولدا مولانا سليمان الهوارى والى دشنا والبلينا واخميم وسوهاى وما يتبعهم ابن مولانا وسيدنا شيخ العرب والسادة وشيخ مشايخ الهوارة وسر عسكر امير الصعيد محمد ابن ذى القضاء والصدارة بالصعيد مولانا وسيدنا بكار ابن شيخ العرب والسادة وشيخ مشايخ الهوارة امير صعيد مصر وبرقة مولاى همام سيبيك المغربى ابن مولاى ماضى ابن مولاى احمد ابن مولاى عياشى ابن مولاى بحير ابن مولاى حمد الهميم ابن مولاى محمد الفاسى ابن مولاى يوسف ابن مولاى ابراهيم ابن مولاى عبدالمحسن ابن مولاى محمد ابو يمن ابن مولاى موسى الخوين ابن مولاى يحيى ابن مولاى عيسى ابن مولاى على الفقى ابن مولاى محمد نزيل بلاد المغرب ابن الامام حسن ابن مولاى على الهنادى ابن مولاى محمد الجواد ابن مولاى على الرضى ابن الامام موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق ابن الامام محمد الباقر ابن الامام على زين العابدين ابن سيدنا ومولانا الامام الحسينى السبط ابن على كرم الله وجهه كملت هذه السلسلة العلوية والشجرة القرشية التى اصلها ثابت وفرعها فى السماء وعنانها ثابت وفخرها قد سما لتضمن ساداتنا الهمامية الحسينين الاشراف سلالة عبدالمطلب ابن عبدمناف الذى شاع فضلهم

في ساير البرايا رضوان الله عليهم اجمعين وثبت مضمون ذلك لدى مولانا قاضي الديوان المشار اليه اعلاه ثبوتا شرعيا معتبرا مرعيا مستوفيا للشرايط الشرعية والواجبات المحررة المرعية وحكم بصحته حكما صحيحا شرعيا ايد الله تعالى احكامه تحريرا في عاشر ذى القعدة الحرام شهور عام سنة تسعة وماية والف.

مضبطة سلمت للجناب العالي الامير يوسف بيك بحضور الامير احمد ابن الامير اسماعيل سيف الاسلام بكار همام والامير عمر احمد محمد بكار همام.

السيد جمال الدين علي
نائب الشرع الشريف
بقنا سابقا والصعيد

* انظر: الصعيد في عهد شيخ العرب همام. د. ليلى عبد اللطيف. الهيئة العامة للكتاب: القاهرة ١٩٨٧.

وثيقة عن وقف الهمامية وتقدر الكمية ٢٤٢ الف فدان من الاراضي الزراعية / مصدر الوثيقة: دار الوثائق القومية بالقلعة. سجلات محكمة اسنا، محفظة رقم (٣).

الامر كما ذكر فيه
شهد بذلك الامير الشريف
احمد ريان احمد محمد ابن
عمر ريان وهمام سيبيك الحسيني

شهد بذلك الشيخ سليمان
غزالي
نقيب الاشراف

بمحكمة قنا العامرة حضر بين سيدنا مولانا الحكم الشرعي كلا من سيدنا ومولانا علي بيك الصادر الجليل امير الصعيد اسماعيل باشا بن علي احمد محمد بكار همام سيبيك وسيدنا ابو الرضا بن بكار دشناوى سليمان الهوارى محمد بكار همام سيبيك وعبدالمغيث دشناوى سليمان الهوارى والوزير ابراهيم دشناوى وعبدالمغيث بن محمد الرشيد ابوالمكارم حارث سيف الاسلام بكار همام وسيدنا محمد شاهين همام يوسف وحمد السيد همام يوسف تقي الدين عبدالرحمن احمد همام وسيدنا ابو علي سليمان الهوارى محمد بكار همام وسيدنا عبدالكريم همام سيبيك المتولي الحسيني واقروا واعترفوا واشهدوا على انفسهم وهم بصحتهم وسلامتهم وطواعيتهم واختيارهم انهم ارتضوا ان يكون السيد ابو علي بن الجناب المكرم الامير علي بن الامير سليمان الهوارى والي دشنا والبلينا واخميم وسوهاى ابن شيخ السادة وسر عسكر امير الصعيد محمد بن ذى القضاء والصدارة بالصعيد سيدنا بكار بن امير الصعيد محمد بن ذى القضاء والصدارة بالصعيد سيدنا بكار بن امير الصعيد ويرقة مولانا همام سيبيك ناظرا عليهم ثم بعد رضاهم وسماع مولانا الحاكم الشرعي باقرارهم ورضاهم على السيد ابو علي.

سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف [١٧٦٩م]

فيها في المحرم أُخرج على بك عثمان أغا الوكيل من مصر منفيا إلى جهة، الشام، وكذلك أحمد أغا أغات الجوالى وأغات الضربخانة إلى جهة الروم، وكان أحمد أغا هذا رجلا عظيما ذا غنية كبيرة وثروة زايدة، فصادره على بك في ماله وأمره بالخروج من مصر، فأحضر المطر بازية والدلاين والتجار، وأخرج متاعه وذخايره وباعها بسوق المزاد بينهم، فبيع موجوده من أمتعة وثياب وجواهر وتحف وأسلحة وكتب وأشياء نفيسة وهو ينظر إليها ويتحسر، ثم سافر إلى جهة الإسكندرية.

(وفيها) توفى* محمد باشا الذى كان بقصر عبد الرحمن كتخدا بشاطئ النيل، ولعله مات مسموما، ودفن بالقرافة الصغرى عند مدافن البشوات بالقرب من الإمام الشافعي.

ونزل الحج ودخل إلى مصر مع أمير الحاج خليل بك بلفيا في أمن وأمان، ووصل باشا من طريق البر وطلع الأمراء إلى العادلية لملاقاته، ونصبوا خيامهم ودخل بالموكب، وذلك في شهر صفر.

(وفيها) أخرج على بك حسن بك رضوان وأتباعه إلى منية وصنيف ثم نقل منها إلى المحلة الكبرى فأقام سنين، وفيها أرسل على بك تجريدة إلى سويلم بن حبيب والهنادى بالبحيرة وباش التجريدة إسماعيل بك، وذلك أن ابن حبيب (ص٨٠١) لما رحل من دجوة وذهب إلى البحيرة وانضم إلي عرب الهنادى وكان المتولى على كشوفية البحيرة عبد الله بك تابع على بك فحاربوه وحاربهم حتى قتل عبد الله

١١٨٣ هـ.
١٤٨٥ ق.
١٧٦٩ م.

□ غاية الفيضان ٣ قيراط ٢٢ذراع
□ بلغ الباب العالى مافعله على بك فامر والى دمشق أن يسير بخمسة وعشرين الفا لمنع جنود عكا من معاضدة على بك، فسار الوالى بالعسكر فلاقاه الشيخ ضاهر فى ستة الاف مابين جبل النيران وبحيرة طبريا ورده على اعقابه.
□ كانت ولادة نابليون الأول والماريشال انى والحاج محمد على باشا، صاحب مصر.
□ ١ توت ١٤٨٦ = ٩ سبتمبر ١٧٦٩ = السبت ٨ جماد أول سنة ١١٨٣.
□ أبطلت الضرائب الانجليزية من المستعمرات الأمريكانية.
□ أرسل على بك محمد بك أبا الذهب لمحاربة الشيخ همام وقبيلته، وهى قبيلة الهوارة، فحاربهم وتغلب عليهم.
□ ١ يناير ١٧٧٠ = ٢٥ كيهك ١٤٨٦ = الاثنين ٤ رمضان ١١٨٣.
□ عزل محمد باشا الأرفلى، بعد أن حكم مصر سنة، وتولى بعده أحمد باشا، ولم يحكم إلا عدة اشهر.
□ كانت سياحة كوك حول الدنيا.

* وفاة محمد باشا [ولعله مات مسموما] ووصول باشا جديد.

بك المذكور فى المعركة ونهبوا متاعه ووطاقه، وكان أحمد بك بشناق الجزار لما خرج من مصرهاربا بعد قتل صالح بك كما تقدم ذهب إلى الروم فصادف هناك جماعة من الهربانين ومنهم يحيى السكرى وعلى أغا المعمار وعلى بك الملط وغيرهم، وزيفوا بسبب المغرضين لعلى بك بدار السلطنة فنزلوا فى مركبين إلى درنه فوصلوها متفرقين، فالتى وصلت أولا بها يحيى السكرى وعلى المعمار والملط فركبوا عندماوصلوا إلى درنه وذهبوا إلى الصعيد ووصلت المركب الأخرى بعد أيام وبها أحمد بك بشناق فطلع إلى عند الهنادى فلما وصل إسماعيل بك ومن معه بالتجريدة فتحاربوا مع الحبايبة والهنادى ومعهم أحمد بك بشناق الجزار ثلاثة أيام وكان سويلم ابن حبيب منعزلا فى خيمة صغيرة عند امرأة بدوية بعيدا عن المعركة فذهب بعض العرب وعرف الأمراء بمكانة فكبسوه وقتلوه وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح واشتهر ذلك، فارتفع الحرب من بين الفريقين وتفرق الهنادى وعرب الجزيرة والصوالحة وغيرهم، وراحت كسرة على الجميع ولم يقم لهم قايم من ذلك اليوم، وتغيب أحمد بك بشناق فلم يظهر إلا بعد مدة ببلاد الشام.

* عودة أحمد بوشناق [الجزار] إلى مصر لمحاربة على بك.

* درنه: غرب الاسكندرية.

* قتل سويلم بنى حبيب.

(وفيها) تقلد أيوب بك على منصب جرجا وخرج مسافرا ومعه عدة كبيرة من العساكر والأجناد فوصلوا إلى قرب أسيوط فوردت الأخبار باجتماع الأمراء المنافى وتملكهم أسيوط وتحصنهم بها، وكان من أمرهم (ص٨٠٢) أنه لما ذهب محمد بك أبو الدهب إلى جهة قبلى لمنابذة شيخ العرب همام كما تقدم وجرى بينهما الصلح على أن يكون لهمام من حدود برديس وتم الأمر على ذلك ورجع محمد

بك إلى مصر أرسل على بك يقول له إني أمضيت ذلك بشرط أن تطرد المصريين الذين عندك ولاتبقى منهم أحدا بدايرتك، فجمعهم وأخبرهم بذلك وقال لهم «اذهبوا إلى أسيوط واملكوها قبل كل شيء، فإن فعلتم ذلك كان لكم بها قوة ومنعة وأنا أمدكم بعد ذلك بالمال والرجال» فاستصوبوا رأيه وبادروا وذهبوا إلى أسيوط وكان بها عبد الرحمن كاشف من طرف على بك وذو الفقار كاشف وقد كانوا حصنوا البلدة وجهاتها وبنوا كرانك والبوابة وركب عليها المدافع، فتحيل القوم ليلا وزحفوا إلى البوابة ومعهم انخاخ* وأحطاب جعلوا فيها الكبريت والزيت وأشعلوها وأحرقوا الباب وهجموا على البلدة، فلم يكن له بهم طاقة لكثرتهم، وهم جماعة صالح بك وباقي القاسمية وجماعة الخشاب وجماعة الفلاح وجماعة مناو ويحيى السكرى وسليمان الجلفى وحسن كاشف ترك وحسن بك ابو كرش ومحمد بك الماوردى وعبد الرحمان كاشف من خشداشين صالح بك وكان من الشجعان، ومحمد كتخدا الجلفي وعلى بك الملط تابع خليل بيك وجماعة كشكش وغيرهم ومعهم كبار الهوارة وأهالي الصعيد فملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها، ووردت الأخبار بذلك إلى على بك فعين للسفر* إبراهيم بك بلفيا ومحمد بك أبو شنب وعلى بك الطنطاوى ومن كل وجاق جماعة وعساكر ومغاربة وأرسل إلى خليل (ص٨٠٣) بك القاسمي المعروف بالأسيوطى فأحضره من غزة وطلع هو وإبراهيم بك تابع محمد بك بعساكر أيضا وعزل الباشا وأنزله وحبسه ببيت إيواظ بك عند الزير المعلق، ثم سافر محمد بك أبو الذهب ورضوان بك وعدة من الأمراء والصناجق، وضم إليهم

* الشيخ همام ينسق جهوده مع خصوم على بك الكبير ويعلن عليه الحرب ويستولى على اسيوط.

* الانخاخ: قطع طولية من اقمشة بالية، وهو المقصود هنا.

* تجريدة على بك الكبير على الصعيد بقيادة محمد بك أبو الذهب.

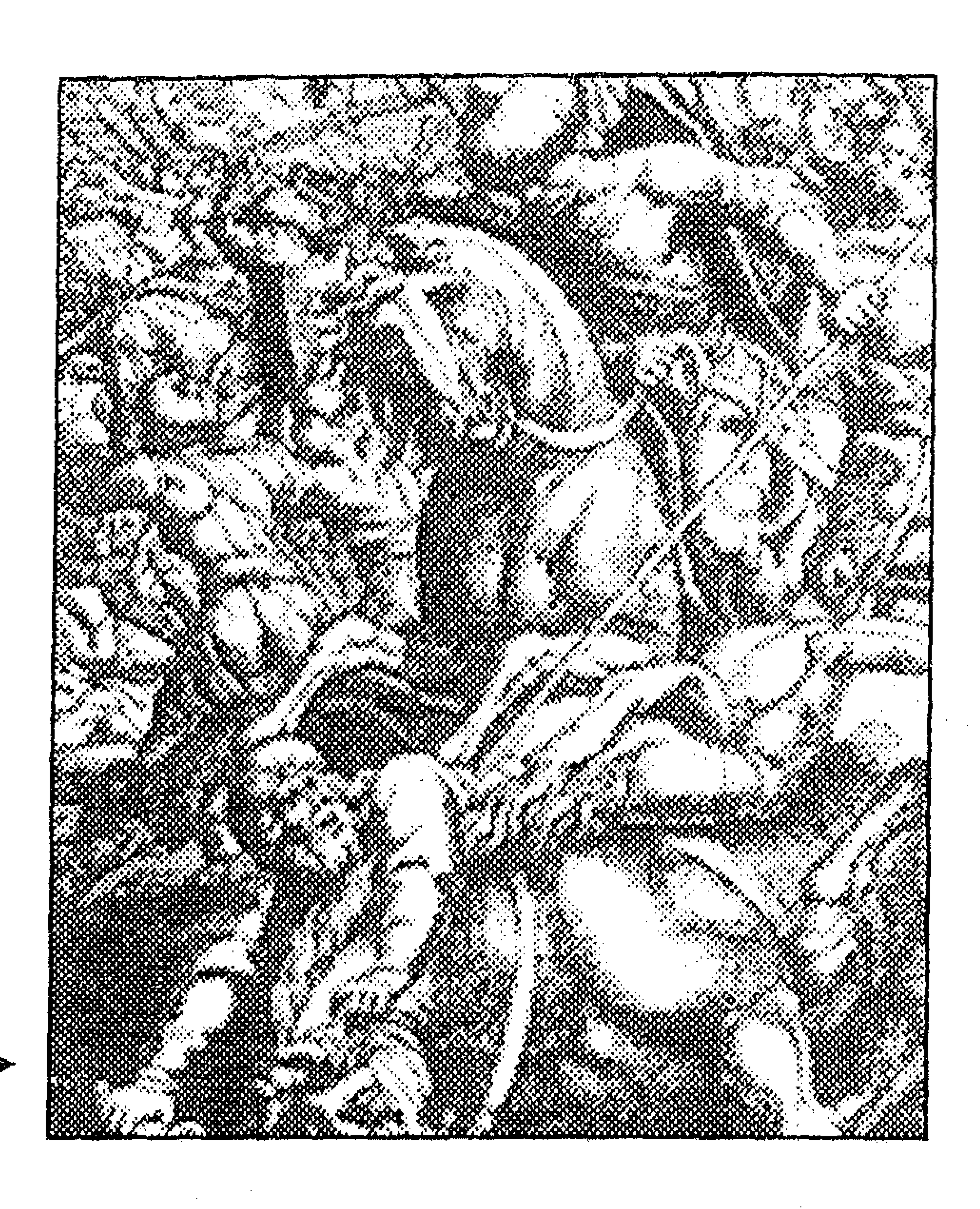
ماجمعه وجلبه من العساكر المختلفة الأجناس من دلاة* ودروز ومتاولة وشوام وسافر الجميع براً وبحراً حتى وصلوا إلى أيوب بك

وهو يرسل خلفهم فى كل يوم بالأمداد والجبخانات والذخيرة والبقسماط ، وذهب الجميع إلى أن وصلوا قرب أسيوط ونصبوا عرضيهم عند جزيرة منقباط [منقباد] وتحققوا وصول محمد بك ومن معه وفرحوا بذلك لأنهم كانوا رأوا فى زايرجات الرمل سقوطه فى المعركة ثم أجمعوا رأيهم على أن يدهموهم آخر الليل فركبوا فى ساعة معلومة وسار بهم الدليل فى طرق الجبل وقصدوا النزول من محل كذا على ناحية كذا من العرضى فتاه وضل بهم الدليل حتى تجاوزوا المكان المقصود بنحو ساعتين، وأخذوا جهة العرضى فوجدوه قبيلتهم بذلك المقدار وعلموا فوات القصد وأن القوم متى علموا حصولهم خلفهم ملكوا البلدة من غير مانع قبل رجوعهم من المكان الذى أتوا منه، فما وسعهم إلا الذهاب إليهم ومصادمتهم على أى وجه كان، فلم يصلوهم إلا بعد طلوع النهار، وتيقظ القوم واستعدوا لهم فالتطموا معهم وهم قليلون بالنسبة إليهم، ووقع الحرب واشتد الجلاد، وبذلوا جهدهم فى الحرب، ويصرخ الكثير منهم بقوله أين محمد بك؟ فبرز إليهم محمد بك أبو شنب وهو يقول: «أنا محمد بك» فقصدوه وقاتلوه، وقاتلهم حتى قتل، وسقط جواد يحيى (ص٤٠٨) السكرى، فلم يزل يقاتل ويدافع حصة طويلة حتى تكاثروا عليه وقتلوه، وعبد الرحمن كاشف القاسمى يحارب بمدفع يضربه وهو على كتفه، وانجلت الحرب عن هزيمتهم ونصرة المصريين عليهم، وذلك عند جبانة أسيوط، فتشتتوا فى الجهات وانضموا إلى

* دلاه: ذكرهم الجبرتى فى مواضع كثيرة فقال إن الدلاة ينسبون أنفسهم إلى طريقة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضعون على رؤوسهم الطراطير السود المصنوعة من جلود الغنم الصغار، يثبتون فيها عدداً من ريش الصقور. طول الطرطور نحو ذراع واشتهر الدلاة فى مصر بسؤ السيرة فكانوا إذا دخلوا قرية أفسدوها ونهبوها وسبوا البنين والبنات والنساء، وقد خرجوا مرة من مصر إلى جهة الشام يحملون المال والغنائم وكان من بينها أكثر من ٤٠٠٠ جمل. وأساسهم أنهم كانوا من الخيالة الخفيفة أقيمت فى الروملى (تركيا الأوربية) فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، لتعمل فى مقدمة الجيوش العثمانية ولم يكن هؤلاء الخيالة من الترك فقط، ولكنى كان منهم البشناق (نسبة إلى البوسنة موطن أحمد باشا الجزار) والكروات والصرب. وقد انتشروا فى الاناضول وفى المراكز الكبرى فى السلطنة العثمانية مثل القاهرة ودمشق وحلب وبغداد كان سلاحهم الرئيسى هو السيوف القصيرة. أما ملابسهم فكانت من جلود الأسود والنمور والذئاب والدببة، مع جعل وجه الجلد المغطى بالشعر إلى الخارج. وكانت لهم نعال مدببة من أمام واسعة من الخلف، ولها رقاب تبلغ نصف الساق. وفى القرن الثامن عشر تعرضت منطقتة كوتاهية وقونيه بالاناضول لعبثهم وفسادهم حتى انتهى الأمر بالغاء نظامهم.

وفى سنة ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨م) يذكر الجبرتى ان الباشا قطع مرتب الدلاة (لانه لم تكن لهم اقطاعات كباقى الفرق العسكرية) وأخرجهم وعزل كبيرهم الذى يسمى كردى جوالى» وفيه كذلك: «ضربوا مدافع كثيرة من القلعة، وكذلك فى صبحها يوم السبت، ولم يظهر لذلك سبب سوى مايقولونه من التمويهات.. من وصول الأطواخ وعساكر دلاة بحرية وبرية».

ويظهر من العبارة الأخيرة انه كان هناك نوعين من الدلاة، برية خياله، وبحريةمشاة.



معارك عسكرية.

كبار الهوارة، وملك المصريون أسيوط ودفنوا القتلى ومحمد بك أبو شنب، واغتم محمد بك أبو الدهب لموته وفرح لوقوع الزايرجة عليه ومفاداته له لأنه كان يعلم ذلك أيضًا، وأقاموا بأسيوط أيامًا، ثم ارتحلوا إلى قبلى بقصد محاربة همام والهوارة، واجتمع كبار الهوارة مع من انضم إليهم من الأمراء المهزومين، فراسل محمد بك ابو الدهب إسماعيل أبو عبد الله وهو ابن عم همام واستماله ومناه وواعده برياسة بلاد الصعيد عوضًا عن شيخ العرب همام حتى ركن إلي قوله وصدق تمويهاته وتقاعس وتثبط عن القتال وخذل طوايفنه، ولما بلغ شيخ العرب همام ماحصل ورأى فشل القوم خرج من فرشوط وبعد عنها مسافة ثلاثة أيام ومات* مكمودًا مقهورًا. ووصل محمد بك ومن معه إلى فرشوط

* موت همام قهرًا واستيلاء محمد بك ابو الذهب على فرشوط وزوال نفوذ الهمامية في الصعيد.

فلم يجدوا مانعًا فملكوها ونهبوها وأخذوا جميع ماكان بدواير همام وأقاربه وأتباعه من ذخاير وأموال وغلال، وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأنها لم تكن، ورجع الأمراء إلى مصر ومحمد بك أبو الدهب وصحبته درويش أبن شيخ العرب همام، فإنه لما مات أبوه وانكسر ظهرُ القوم بموته وعلموا أنهم لانجاح لهم بعده، أشاروا على ابنه بمقابلة محمد بك وانفصلوا عنه وتفرقوا في الجهات، فمنهم من ذهب إلى درنة ومنهم من ذهب إلى الروم ومنهم ذهب إلى الشام (ص٨٠٥) وقابل درويش بن همام محمد بك وحضر صحبته إلى مصر وأسكنه في مكان بالرحبة المقابلة لبيته، وصار يركب ويذهب لزيارة المشاهد ويتفرج على مصر ويتفرج عليه الناس ويعدون خلفه وأمامه لينظروا ذاته، وكان وجيها طويلا أبيض اللون أسود اللحية جميل الصورة، ثم إن على بك أعطاه بلاد فرشوط والوقف بشفاعة محمد بك وذهب إلى وطنه فلم يحسن السير والتدبير، وأخذ أمره في الانحلال وحاله في الاضمحلال وأرسل من طالبه بالأموال والذخاير فأخذوا ماوجدوه وحضر إلى مصر والتجأ إلى محمد بك فأكرمه وأنزله بمنزل بجواره، فلم يزل مقيما به حتى خرج محمد بك من مصر مغاضبا لأستاذه فلحق به وسافر إلى الصعيد.

* استسلام درويش ابن الشيخ همام لمحمد بك ابو الذهب.

وخلص الإقليم المصرى بحرى وقبلى إلى على بك وأتباعه فشرع فى قتل المنافى الذين أخرجهم إلى البنادر، مثل دمياط ورشيد والإسكندرية والمنصورة، فكان يرسل إليهم ويخنقهم واحدًا بعد واحد، فخنق على كتخدا الخربطلى برشيد وحمزة بك تابع خليل بك بزفتا وقتلوا معه سليمان

أغا الوالى وإسماعيل بك أبا مدفع بالمنصورة وعثمان بك تابع خليل بك هرب إلى مركب البليك* فحماه وذهب إلى إسلامبول ومات هناك، ونفى أيضًا جماعة وأخرجهم من مصر وفيهم سليمان كتخدا المشهدى وإبراهيم أفندى جمليان.

* البليك: نوع من المراكب المتوسط الحجم، اشتهر استخدامه فى عيد شم النسيم (عيد مارجرجس) يذكر الجبرتي: «وصلت الأخبار من الأسكندرية بانه ورد إليها مركب البليك وذلك على خلاف العادة، لأن مراكب البليكات لاتخرج إلا بعد (روز خضر)». أى عيد الربيع والخضرة.

ومات الباشا المنفصل بالبيت الذى نزل فيه ولحق بمن قبله.

(ومما) اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوايل شهر رمضان بجامع الداردية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك، فلما انقضت الصلاة وقام على بك (ص٨٠٦) يريد الانصراف أحضر الخطيب وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح، فقال له من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك إنى سلطان؟ فقال «نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك» فأظهر الغيظ وأمر بضربه فبطحوه وضربوه بالعصى فقام بعد ذلك متألما من الضرب وركب حماراً وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ» ثم إن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم بدراهم وكسوة استسمحه.

(وأما من مات فى هذه السنة من العلماء والأمراء)

٣١٩ على بن حجازى بن محمد الخلوتى

[مات] الإمام الولى الصالح المعتقد المجذوب العالم العامل الشيخ على بن حجازى بن محمد البيومى الشافعى الخلوتى ثم الأحمدى ولد تقريبا سنة ثمان ومائة وألف، حفظ القرآن فى صغره وطلب العلم وحضر دروس الأشياخ وسمع

الحديث والمسلسلات على عمر بن عبد السلام التطاونى وتلقن الخلوتية من السيد حسين الدمرداشى العادلى وسلك بها مدة، ثم أخذ طريق الأحمدية عن جماعة ثم حصل له جذب ومالت إليه القلوب وصار للناس فيه اعتقاد عظيم وانجذبت إليه الأرواح ومشى كثير من الخلق على طريقته وأذكاره وصار له أتباع ومريدون، وكان يسكن الحسينية ويعقد حلقة للذكر فى مسجد الظاهر خارج الحسينية، وكان يقيم به هو وجماعته لقربه من بيته، وكان ذا واردات وفيوضات وأحواله غريبة، وألف كتبًا عديدة منها شرح الجامع الصغير وشرح الحكم لابن عطاء الله السكندرى وشرح الإنسان الكامل للجيلى، وله مؤلف فى طريق القوم خصوصًا فى طريق الخلوتية الدمرداشية، ألفه سنة أربع وأربعين ومماية وألف، (ص٨٠٧) وشرح الأربعين النووية ورسالة فى الحدود وشرح على الصيغة الأحمدية وعلى الصيغة المطلسمة، وله كلام عال فى التصوف، وإذا تكلم أفصح فى البيان، وأتى بما يبهر الأعيان، وكان يلبس قميصًا أبيض وطاقية بيضاء ويعتم عليها بقطعة شملة حمراء لايزيد على ذلك شتاء وصيفا، وكان لايخرج من بيته إلا فى كل أسبوع مرة لزيارة المشهد الحسينى وهو على بغلة وأتباعه بين يديه وخلفه، يعلنون بالتوحيد والذكر، وربما جلس شهورًا لايجتمع بأحد من الناس، وكان له كرامات ظاهرة، ولما عقد الذكر بالمشهد الحسينى فى كل يوم ثلاثاء ويأتى بجماعته على الصفة المذكورة ويذكرون فى الصحن إلى الضحوة الكبرى [إلى ماقبل الظهر]، قامت عليه العلماء وأنكروا مايحصل من التلوث فى الجامع من أقدام جماعته إذ غالبهم كانوا يأتون حفاة ويرفعون أصواتهم بالشدة،

وكاد أن يتم لهم منعه بواسطة بعض الأمراء فانبرى لهم الشيخ الشبراوى وكان شديد الحب فى المجاذيب وانتصر له، وقال للباشا والأمرا «هذا الرجل من كبار العلما والأوليا فلاينبغى التعرض له» وحينئذ أمره الشيخ بأن يعقد درسًا بالجامع الأزهر فقرأ فى الطيبرسية الأربعين النووية وحضره غالب العلماء وقرر لهم مابهر عقولهم فسكتوا عنه وخمدت نار الفتنة .

ومن كلامه فى آخر رسالة الخلوتية* مانصه «فمن من الله علىّ وكرمه أنى رأيت الشيخ دمرداش فى السماء وقال لى لاتخف فى الدنيا ولا فى الآخرة، وكنت أرى النبى صلى الله عليه وسلم فى الخلوة فى المولد، فقال لى فى بعض السنين لاتخف فى الدنيا ولا فى الآخرة، ورأيته يقول لأبى بكر رضى الله عنه اسع بنا نطل على زاوية الشيخ دمرداش (ص٨٠٨) وجاءا حتى دخلا لى فى الخلوة ووقفا عندى وأنا أقول «الله الله» وحصل لى فى الخولة وهم فى رؤية النبى صلى الله عليه وسلم، فرأيت الشيخ الكبير يقول لى عند ضريحه «مد يدك إلى النبى صلى الله عليه وسلم فهو حاضر عندى».

* رسالة الخلوتية للشيخ على حجازى الخلوتى.

ورأيت فى خلوة الكردى يعنى الشيخ شرف الدين المدفون بالحسينية بين اليقظة والنوم وأنا جالس فانتبهت فرأيت النور قد ملأ المحل فخرجت منا هائمًا فحاشنى بعض من كان فى المحل فوقفت عند الشيخ ولم أقدر على العود إلى الخلوة من الهيبة إلى آخرة الليل، وتبسم فى وجهى مرة وأعطانى خاتما، وقال لى «والذى نفسى بيده فى غد يظهر ماكان منى وما كان منك» وأخذنى الشيخ الكردى وأوصلنى إلى مكة وأرانيها عيانا، ودخلت على السيد أحمد البدوى وعنده

النبى صلى الله عليه وسلم فحكم فى وأنا أستغيث بالنبى صلى الله عليه وسلم، وكان سبب ذلك التردد فى نزولى مولده فأغاثنى الله بعد ذلك ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وكان قبل ألبسنى بيده الزى الأحمر مرتين مرة فى بركة الحج ومرة فى مقامه داخل الضريح وقال اذهب إلى الكردى».

قال ورأيت نفسى مرة خارج المدينة وقلت لا أدخل حتى أعلم رضاه عنى والقبول، فأرسل لى إنسانا بمروحة يروح بها على ويقول القبول حاصل، ورأيته يقول لى أنا أحب محادثتك، وأوقفنى بين يده وقال لى: «أتعترض على حكم الربوبية، فاستيقظت وأنا أجد أثر ذلك ولم أعرف السبب».

ورأيت بهامش تلك الرسالة ماصورته: ورأيته صلى الله عليه وسلم فى آخر رمضان ليله الاثنين سنة سبعة وخمسين وماية وألف فى الطبقة التى بجانب الرواق وهو مسرع فى المشى فسعيت خلفه وقلت«لاتفتنى يارسول الله» فوقف فى فضا واسع فأدركته ووقفت بجانبه (ص٨٠٩) وقلت لمن كان حاضرا «أنظر إلى لحيته الشريفة وعد مافيها من الشعرات البيض».

(ومن كراماته) أنه كان يتوّب العصاة من قطّاع الطريق ويردهم عن حالهم فيصيرون مريدين له، وذا سمعته من الثقات، ومنهم من صار من السالكين، وكان تارة يربطهم بسلسلة عظيمة من حديد فى عمدان مسجد الظاهر، وتارة بالطوق فى رقبتهم يؤدبهم بما يقتضيه رأيه. وكان إذا ركب ساروا خلفه بالأسلحة والعصى وكانت عليه مهابة الملوك وإذا ورد المشهد الحسينى يغلبه الوجد فى الذكر حتى يصير كالوحش يرى وجهه تارة كالوحش وتارة كالعجل وتارة كالغزال.

ولما كان بمصر مصطفى باشا مال إليه واعتقده وزاره، فقال له «إنك ستطلب إلى الصدارة فى الوقت الفلانى» فكان كما قال له الشيخ، فلما ولى الصدارة بعث إلى مصر وبنى له المسجد المعروف به بالحسينية وسبيلا وكتابا وقبة وبداخلها مدفن للشيخ على يد الأمير عثمان أغا وكيل دار السعادة، ولما مات خرجوا بجنازته وصلى عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ودفن بالقبر الذى بنى له بداخل القبة بالمسجد المذكور.

٣٢٠ حسنى الشيبينى الفوى.

[مات] علامة وقته وأوانه الآخذ من كميت* البلاغة بعنانه الولى الصوفى، من صفا فصوفى، الشيخ حسن الشيبينى ثم الفوى، رحل من بلدته فوة إلى الجامع الأزهر فطلب العلم وأخذ عن الشيخ الديربى فجعله مَمليا عليه فى الدرس فقيل له فى ذلك فقال : هذا عالم ماجاء من بلده حتى قرأ الأشمونى والمختصر ونحو ذلك» وأخبر عن نفسه أنه كان ملازما لولى من (٨٠١) أوليا الله تعالى، فحين تعلقت نفسه بالمجى إلى الجامع الأزهر توجه مع هذا الولى لزيارة ثغر دمياط، فنام إلى جانبه ليلة فرآه فى النوم وقد سقاه لبنا من إبريق وقال له «هذا علم النحو وهو أصعب العلوم فى الأزهر» قال ثم انتبهت فقلت له «يامولانا الشيخ رأيت كذا وكذا» فقال لى على الفور «أسكت أضغاث أحلام» لأن الولى المذكور كان من الملامتية لايحب أن يظهر لنفسه حالا، ثم إنه جاور عقيب ذلك. فحين اشتغل بهذا العلم فتح الله عليه فى أقرب مدة ثم اشتغل بالفقه وغيره من أصول ومنطق ومعان وبيان وتفسير وحديث وغير ذلك، حتى فاق على أقرانه وصار علامة زمانه، ثم أخذ عن الشيخ

* الكميت : من الخيل للمذكر والمؤنث ماكان لونه بين الأسود والأحمر، وهو تصغير اكمت على غير القياس وجمعه كمت بضم الكاف وسكون الميم.

الحفنى الطريق وتلقن الأسماء وسار على حسب سلوكه وسيره وألبسه التاج وأجازه بأخذ العهود والتلقين والتسليك وصار خليفة محضا فأدار مجالس الأذكار، ودعا الناس إليها فى ساير الأقطار، وفتح الله عليه باب العرفان، حتى صار ينطق بأسرار القرآن ويتكلم فى الحقايق، نقل عن الشيخ الحفنى أنه ورد عليه منه مكتوب فقال: «الحمد لله الذى فى أتباعنا من هو كمحيى الدين بن العربى» وسمع منه أيضاً أنه يقول فى حقه «الشيخ حسن الشبينى هذا أكبرى، أعطاه الله قوة فى معرفة أهل العرفان، وأنه أعلم منى بهذا الفن وإذا تكلمت معه فيه فإنما هى مشاركة وإلا فأنا لاأفهم كفهمه». وناهيك بهذه الشهادة. توفى رحمه الله تعالى فى هذه السنة، وخلف ولده السيد أحمد موجود فى الأحياء بارك الله فيه، وممن أخذ عنه صاحبنا العمدة العالمة الصالح السيد على المعروف بزيارة الرشيدى وهو خليفة الخلوتية الآن (ص١١٨) بثغر رشيد نفع الله به.

٣٢١ محمد أفندى بن إسماعيل السكندرى. [ومات] الجناب المبجل الفريد الكاتب الماهر المنشئ البليغ المجيد/ محمد أفندى إبن إسماعيل السكندرى العارف بالألسنة الثلاثة العربية والفارسية والتركية، وكان لديه محاورات ولطايف أدبية وميل شديد إلى علم اللغة، وبحث عن الأدوات المتعلقة به، ورسايله فى الألسن الثلاثة غاية فى الفصاحة مع حسن خط ووفور حظ ومهابة عند الأمراء وقبول عند الخواص، ووالده كان إسرائيليًا فأسلم وحسن إسلامه، وتولى مناصب جليلة بالثغر، وله هناك شهرة فولد هذا هناك وهذبه وأدبه حتى صار إلى ماصار، واستقر بمصر ومازالت له أملاك هناك وقرابة، رأيته يأتى لزيارة الشيخ

الوالد وقد اكتهل وتناهى فى السن وأبقى الدهر فى زواياه خبايا مستحسنة، ورأيت بخط يده كتاب بهارستان*، لمولانا جامى قد أحسن فى كتابته وأتقن فى سياقه، ومجموعًا فيه النوادر من أشعار الألسن الثلاثة، وبالجملة لم يكن فى عصره من يدانيه فى الفنون التى كان تجمل بها، وقد ذكره، الأديب الشيخ عبد الله الإدكاوى فى بضاعة الأريب وأثنى على محاسنه، وكانت بينهما ألفة تامة ومصافاة ومصادقة ومحاورات أدبية، قال فيه: وكتبت لحضرة أخينا المولى الأكرم محمد أفندى ابن المرحوم إسماعيل أغا السكندرى رحم الله والده، وأدام لنا فوائده وعوائده، كتاب الفتح القدسى* تأليف العماد الكاتب وكتبت بعد إتمامه وحسن ختامه مانصه:

قد يسر الله سبحانه إتمام هذا الكاتب (ص٨١٢) بل العجب العجاب، بل الروض المستطاب، فكم فيه من فصل ينبى عن فضل، ومن نوع بديع يحمل نور ربيع إلى آخر ماأطال فى مدحه إلى أن قال «وقد كتبته برسم الماجد الكامل والهمام الفاضل ملاذ الأفاضل، ومعاذ الأماثل، ومحل الفواضل ومحط الفضايل، أوحد أهل العصر للإنشاء صياغة، وأبرعهم بالألسن الثلاثة براعة وبلاغة، حتى كأنه المعنى بقول من قال وأحسن فى المقال:

إن هز أقلامه يومًا ليعملها
أنساك كل كمى هز عامله
وإن أقر على رق أنامله
أقر بالرق كتاب الأنام له

وهو الآن بمصرنا، أوحد المنشئين بمصرنا، فلا أحد فى فنه يماثله، ولايضاهيه ولايشاكله، ولايستطيع يساجله أو

* بهارستان: ومعناها أرض الربيع تأليف جامى وهو من أدباء الفرس فى القرن الخامس عشر الميلادى، ألف كتابه هذا سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧م) وهو مكون من ثمانية فصول يسمى كل فصل منها روضة، فالكتاب كله رياض. فالروضة الأولى فيها حكايات عن الصالحين والصوفية، والثانية عن الفلاسفة والحكماء، والثالثة عن عدل الملوك والرابعة عن الكرم والخامسة عن الحب والسادسة عن الفكاهات والنوادر والسابعة عن الشعراء والثامنة عن الحيوانات البكماء، والكتاب مزيج من المنظوم والمنثور، وقد ترجم إلى اللغة الألمانية وطبع فى فينا سنة ١٨٤٦م وله طبعات أخرى فى الآستانة، كما ترجم إلى اللغة الإنجليزية.

* هذا الكتاب اسمه الفيح القسى فى الفتح القدسى، ألفه أبو عبد الله محمد بن محمد الشهير بعماد الدين الكاتب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م).

يناضله، فلو رأى مايخبره منشئ هذا الكتاب العماد، لقال والله هذا الذى عليه الاعتماد، وسلم له القياد، وأذعن لبلاغته وانقاد، ولو أدركه الشيرازيان سعدى وحافظ، لاقتفى كل منهما ماهو به لافظ، ولو سمع بديع إنشائه النامى، الملا جامى، لقال ههنا جل مرامى، وأصابة المراى، ولو رام ويس مضاهاة غرره ومحاكاة درره لقيل له ياويس ويسك* لقد أتعبت نفسك، وكددت وأوهنت حدسك*، ولوقفا زركشى* أثره لاستحسن الأفاضل نظمه ونثره، ولو عاصره نفعى، قال لقد رق بلطايفه طبعي، (ص٨١٣) ولو طلب النابى مجارته لنبا عن مباراته، وأذعن لبراعاته، وبديع عباراته، مَنْ هو أخى وصديقى، وعلى الحقيقة هو أشفق من شقيقى، فكم له على من أياد لاأقدر أ أعددها ولا أحصرها فأسردها، المولى الأمجد، الأكمل الأوحد، من هو بكل وصف جميل حرى، حضرة محمد أفندى الإسكندرى، فهو الآن أوحد الكتاب، والآتى فى صناعة الإنشاء بالعجب العجاب، والمعظم عند أرباب الدولة الكرام، والمخصوص بينهم بالتبجيل والإعظام، والمعول عليه دونساير الكتاب، والمنظور إليه لسعة دايرته فى الآداب، ثم أتبعه بنظم فقال:

فعلت أعين الظباء السواجى
بفؤادى فعل العدو المداجى
قلت كفى كفى فقالت أقالتك شراكى فسر لربك ناجى
قلت إنى لى النجاة وإنى
بك أصبحت موثق الأوداج
ياعيونًا أسرن لبى وأسهر
ن جفونى من هدبها فى دياجى

* ويسك : أى رفقًا بنفسك
* حدسك : أى ظنك وتخمينك.
* الزركشي: صاحب كتاب المعتبر فى تخريج أحاديث المنهاج والمختصر.

بفتور فيكن بالقتل والفتك غدا في القتال نامي الهياج
وفنون به الحلى لقد زا
د افتتانا وكان صلد المزاج
ولحاظ أمضى فعالا وأقضى
في الورى من صوارم الحَجّاج
(ص٨١٤) هل سبيل إلى الوصول إلى مو
لاك أو منحة إلى محتاج
قلن نرجو معًا ونمنح ما نر
جوه فاقصد بالمدح كهف الراجي
هو نامي العلا محمد المحمود فعلا بدا كضوء السراج
وهو في فرد الزمان نثرا ونظمًا
ماقريض الكميت والعجاج
وهو في الخط أوحد فإذا مد
يراعًا في صفحة الأرياج
جاءك الروض مثمرا ولديه
كل حرف مثل الهزار يناجي
والمعاني التي تعز عن الغير ابتكارا عفوا بغير علاج
ذو السنا والسناء والراحة الطلقة بالجود كالحيا الثجاج*
حفظ الله ذاته وعُلاه
ووقاه شرور كل مناجي
سيدي قد خدمت بالفتح عليا
ك وتنميقه فسرى انزعاجي
فتنزهه في روضه دمت مولى
هولي عدة إذا عز حاجي
هو نعم الكتاب كم فقرة
فيه لها رونق كدرة تاج

* الحيا الثجاج : المنهمر.

كـيـف لا والعـمـاد منشيـه قـد كـا
ن له القـصـد من جـمـيع الفـجـاج
(ص٨١٥) قد صفا خاطرى بما قد حواه
من بـديـع الإنـشـاء والإزدواج
وذكـا مـنطقى فـرحت أؤرخ
فـيح فـتح العـمـاد زاد ابتـهـاجى

* رسالة أدبية للشيخ الإدكاوى إلى محمد افندى السكندرى.

(واهدى) إليه الشيخ عبد الله الإدكاوى رحمهما الله رسالة تصحيفية، وسماها بالمقامة السكندرية، أشار فيها بقوله «وفيها خل جل شأنه ببيانه» إلى المترجم، والمقامة هذه ومن خطة نقلت: حدثنا خدننا حديثا جذبنا بحسنه تحسبه للطافته كل طايفة أنه آية قال قال: امنى أمنت حين جيت سكندرية سكن دربه غيم غنم أنسى أنست فيه فئة علت غلت آدابهم إذا بهم أخلاء أجلاء حكماء حلماء يحلو بحلو بلاغتهم تلاعبهم صفا ضفا سايغ سايغ وقتهم، وفيهم خل جل شأنه ببيانه، مهذب مهدت ظرف طرف آدابه أداته عذب غدت تذيع بديع صفاته صفاته، يجلب بحلى مزحه مرحه، فمازجنى فما رخيت عنان عيان ناظرى بأطرب منه منة وفاه وقاه خلاتى خلانى، وقال وقاك واجب واحب لاجلالك لاخلالك ريع أنى أبث لك كل بشر يسر للقايك كلفا بك تيمن بيمن جبين حبيب غرير عزيز بديع يذيع سرى بنيرى، جبينيه جننت به سبانى شبانى بجفن يخفى سحره بت بحره سهران شهران، أهيف أهتف باسمه باسمه أيامه، أن أمه (ص٨١٦) أحد أخذ بلحظ يلحظ بعين تعين بهدبها تهديها لمبتلى، لم ينكث عقدة عقده قانص، قابض يبخل بنحل شهدة شهده.

قــــاتل فـــــاتك أعـــــز أغـــــر

حــسنه جــيـشـه كــثـيـر كـبـيـر

ســــاحـــر ســـاخـــر تجنب يجنى

شــايق ســـايق منيـــر مــبـيـــر

حـــــبـــــه جنة يحلى بحلى

لينه ليـــتـــه بـــشــر يشـــيـــر

مــــاثل مــــايل يجـــور بجـــور

تـــايـــه نـــابـــه بـــزور يـــزور

نشـــره بشـــره بهـــاه نهـــاه

ســيـــره سـيــرة يجـبـر يجـيـر

رايـق راتـق قــــــلانـى فـكـانـت

منيـــتى مـــيـــتـــتى بحـــور تجـــور

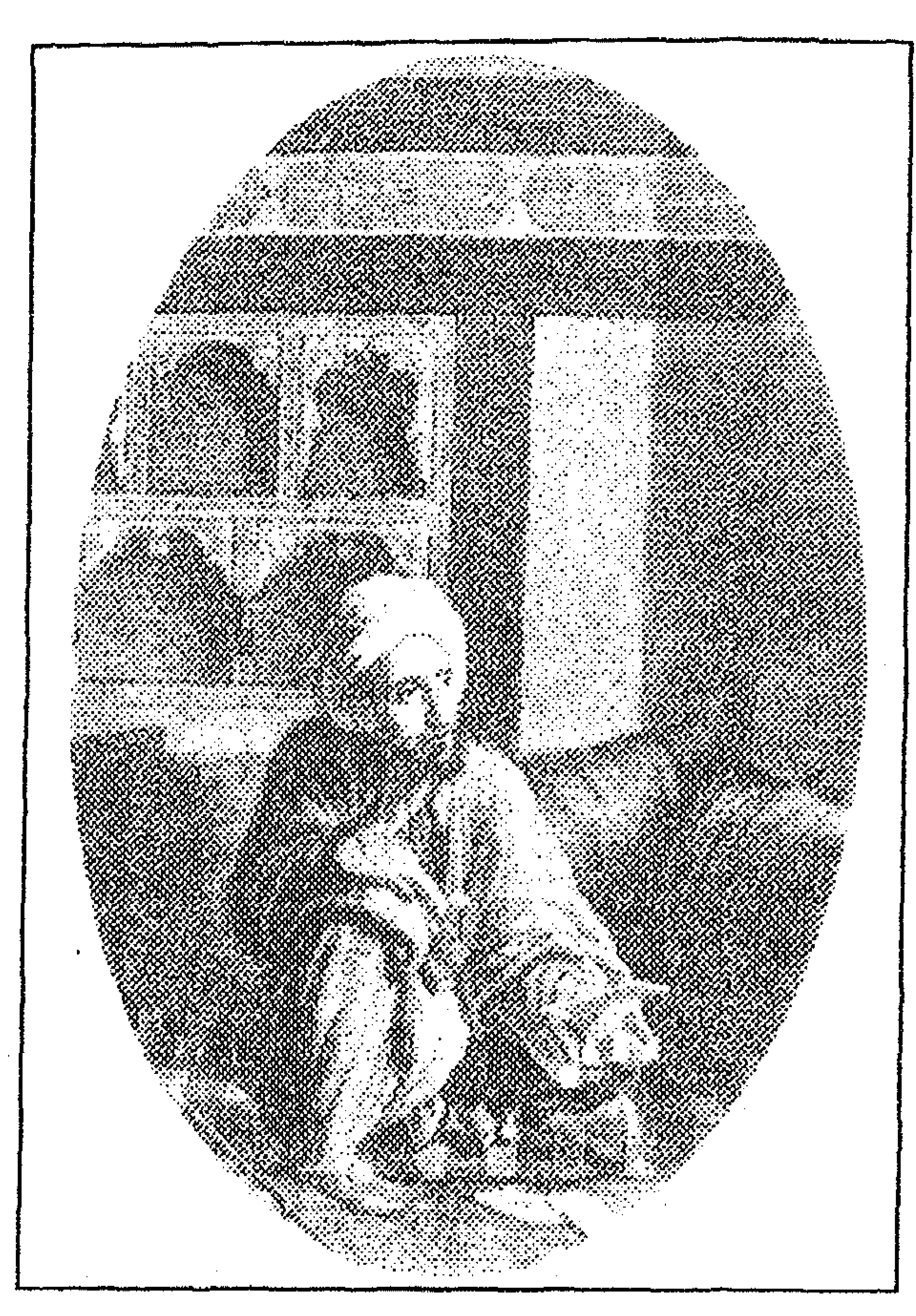
جاير جايز. حبه حبة. قلبي قليت. عدوه غدوة. شنع يتغ. معانية معايبه. مشرق مشرف. نزق ترف. تعرقه بعرفه. أوحد أوجد. بسر بشر. جناني حياتي. تلفظه بلفظة. تحيي نحبي. يجيب نجيب. نجني بجني. تفاح نفاح نسم يشم عبيره عنبرة. عربي عزني. غريب عريب. حسنه حسبه. ذاك زال. بلبي بليت. بصدوده بضد وده عاملني عامل. بت استخبره. آس تجـــبـــره. على غلب. فكرتي فكر ى ينمـــو بنمـــو (ص٨١٧) بعـده بعـده . فليت قلبي. بعـده بعـدة نورده بوردة. مـخـبـأة مـحـيـاه. لكنه لليه. مطلبي مطلني. ثم نم بوجدي توحدى. وبعدى وتعدى. حسن حبيبي. الحد الخد جسمي حين نمي. همى همت. حين خيب ظني ظبي. راتع رائع. رائغ زائغ. حسني حبشي اللون الكون. يشهد بشهد ثغره. بغرة قمرية قمرته. بلا لاء بها بلاء لأنها تحبس بحسن ضيائها صبابها. نيرة تنزه فتى فني في فيء مغانيها. تزهو

بزهو. ظبيها طيبها. فايح قانح. نحوها يحوها ترى ثرى. يطيب بطيب. رياه رباه يجلو بحلو. مرآه مرآة. قلبك فلتك. من. من. عشقه عشقة. عذرية عذرته. حين. جبن. عن غى. حمل جمل. الآثام. الأنام. وقبل أن يقدمها له كتب بظاهرها مانصه: طرفة ظرفت وهديت هديت لمحمد كم. حمد. خلقة خلفه. ماجد. ماحد منطقه منطقة. نجوم تحوم حول حوك. يراعته براعته. يبدى بيدى بنانه بيانه. لبيب كتبت برسمه برسمة حالته. جالبة لك كل خير. خير جبر. كسرى كسرت. على على. محله مجلة. مدحتى مذحبب إلى آلت إلى. اغذاذ اعداد. محاسنه مجانيته معاليه مغالبة. وقتى وقيت. عن غب. ذائه ذاته بمن يمن. الحليم الحكيم.

فلما قدمها إليه قبلها وقبّلها (ص٨١٨) وأجازها بماجملتها. ثم قرظ عليها من جنسها تقريظا بديعا، ملأه بيانا وبديعا (وهذا نصه)..

هذه عروس حسن جليت على منصة البراعة، افتضها فارس اليراعة أتحفنى بها المولى الوحيد فى فنه، والبليغ الذى تكبو جياد هذه الصناعة من حدة ذهنه، من هو لمحاسن البلاغة مالك وحاوى، مولانا الشيخ عبدالله الإدكاوى، فتلقيتها بالراحتين، وفديتها وعوذتها من العين بكل عين، وتطفلت على تقريظها بنوع من فنها فقلت وإن لم أبلغ مراقى حسنها، تحف تحف بحق لدى لذتُ بحسنها تحسبها لجودتها كخود بها جلاها حلاها، وسوغها وشوعها بحلى تجلت بغير تغير، صيغه صنعة، ترام برام يعيبها ، يعى بها صنفها صنعها فاضل فاصل أريب، أربت بلاغاته بلاغاية ، تنور بنور تأدية ناديه، بقيت تفتن معاينة معانيه.

وقد كتب عليها جملة من أفاضل العصر كما تقدم بعض



شاعر يلقى قصيدة

ذلك فى تراجمهم، وبالجملة فإن المترجم كان أوحد عصره ووحيد مصره لم يدانيه فى مجموعة الفضايل أحد ولم يزل حميد المسعى جميل السيرة بهيا وقورا مهيبا عند الأمرا والوزرا حتى وافاه الحمام فى يوم الجمعة حادى عشر المحرم من السنة.

٣٧٢ على بن العربى بن على السقاط.

[ومات] الأستاذ العارف سيدى على بن العربى بن على بن العربى الفاسى المصرى الشهير بالسقاط، ولد بفاس وقرأ على والده وعلى العلامة محمد بن أحمد بن العربى (ص٨١٩) بن الحاج الفاسى، سمع منه الأحياء جميعًا بقراءة ولد عمه النبيه الكاتب أبى عبد الله محمد بن الطيب بن محمد بن على السقاط، وعلى ولده أبى العباس أحمد بن محمد العربى ابن الحاج، وعلى سيدى محمد بن

عبد السلام البنانى، كتب العربية والمعقول والبيان، ولما ورد مصر حاجا لازمه فقرأ عليه لفظه من الصحيح إلى الزكاة والشمايل بطرفيه بالجامع الأزهر وكثيرا من المسلسلات والكتب التى تضمنتها فهرست ابن غازى، قراءة بحث وتفهيم، وأجازه حينئذ بأواسط جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين ومأية وألف، وجاور بمكة فسمع على البصرى الصحيح كاملا ومسلمًا بفوت، وجميع الموطأ رواية يحيى بن يحيى وذلك خلف المقام المالكى عند باب إبراهيم وأجازه، وعلى النخلى أوايل الكتب الستة وأجازه، وعاد إلى مصر فقرأ على الشيخ إبراهيم الفيومى أوايل البخارى، وعلى أحمد بن أحمد الغرقاوى وأجازه، وعلى عمر بن عبد السلام التطاونى جميع الصحيح وقطعة من البيضاوى بجامع الغورى سنة ست وثلاثين ومأية وألف، وجميع المنح البادية فى الأسانيد العالية، وأضافه على الأسودين وشابكه وصافحه وناوله السبحة وأجازه بساير المسلسلات، وعلى محمد القسطنطينى رسالة ابن أبى زيد برواق المغاربة، وعلى محمد بن زكرى شرحه على الحكم بجامع الغورى؛ وعلى سيدى محمد الزرقانى كتاب الموطأ من باب العتق إلى آخره وأجازه به يوم ختمه، وذلك ثامن شعبان سنة ثلاث عشرة ومائة وألف، وروى (ص٨٢٠) حديث الرحمة عن سيدى السيد مصطفى البكرى فى سنة ستين ومأية وألف، وأجازه ابن الميت فى العموم واجتمع به شيخنا السيد مرتضى فى منزل السيد على المقدسى، وكان قد أتى إليه لمقابلة المنح البادية على نسخته وشاركهما فى المقابلة وأحبه وباسطه وشافهه بالأجازة العامة وكان إنسانًا مستأنسا بالوحدة منجمعًا عن الناس للانفراد غامضًا مخفيا، ولازال كذلك

حتى توفى فى أواخر جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف، ودفن بالزواية بالقرب من الفحامين.

٣٢٣ همام بن يوسف الهوارى

[ومات] الجناب الأجل والكهف الأظل الجليل المعظم، والملاذ المفخم، الأصيلى الملكى ملجأ الفقرا والأمرا ومحط رحال الفضلا والكبرا شيخ العرب الأمير شرف الدولة همام بن يوسف بن أحمد بن محمد بن همام بن صبيح بن سيبيه الهوارى، عظيم بلاد الصعيد، ومن كان خيره وبره يعم القريب والبعيد، وقد جمع فيه من الكمال ماليس فيه لغيره مثال، تنزل بحرم سعادته قوافل الأسفار، وتلقى عنده عصى التسيار، وأخباره غنية عن البيان، مسطرة فى صحف الإمكان، منها أنه إذا نزل بساحته الوفود والضيفان تلقاهم الخدم وأنزلوهم فى أماكن معدة لأمثالهم وأحضروا لهم الاحتياجات واللوازم من السكر وشمع العسل والأوانى وغير ذلك، ثم مرتب الأطعمة فى الغذا والعشا والفطور فى الصباح والمربيات والحلوى مدة إقامتهم لمن يعرف ومن لايعرف، فإن أقاموا على ذلك شهورا (ص٨٢١) لايختل نظامهم ولاينقص راتبهم وإلا قضوا أشغالهم على أتم مرادهم وزادهم إكراما وانصرفوا شاكرين، وإن كان الوافد ممن يرتجى البر والإحسان أكرمه وأعطاه، وبلغه أضعاف مايترجاه، ومن الناس من كان يذهب إليه فى كل سنة ويرجع بكفاية عامه وهذا شأنه فى كل من كان من الناس، وأما إذا كان الوافد عليه من أهل الفضايل أو ذوى البيوت قابله بمزيد الاحترام، وحياه بجزيل الإنعام، وكان يُنعم بالجوارى والعبيد والسكر والغلال والتمر والسمن والعسل، وإذا ورد عليه إنسان ورآه مرة وغاب عنه سنين ثم نظره

وخاطبه عرفه وتذكره، ولاينساه، وحاله فيما ذكر من الضيفان. والوافدين والمسترفدين أمر مستمر على الدوام لاينقطع أبداً، وكان الفراشون والخدم يهيئون أمر الفطور من طلوع الفجر فلا يفرغون من ذلك إلا صحوة النهار، ثم يشرعون فى أمر الغدا من الضحوة الكبرى إلى قريب العصر، ثم يبتدون فى أمر العَشا فلا يفرغون من ذلك إلا بعد العشا وهكذا، وعنده من الجوارى والسرارى والمماليك والعبيد شيء كثير، ويطلب فى كل سنة دفتر الإرقاء ويسأل عن مقدار من مات منهم فإن وجده خمسماية أو أربعماية استبشر وانشرح وإن وجده ثلثماية أو أقل أو نحو ذلك اغتم وانقبض خاطره، ورأى أن ربما كانت فى أعظم من ذلك، وكان له برسم زراعة قصب السكر وشركه* فقط اثنا عشر ألف ثور وهذا بخلاف المعد للحرث ودراس الغلال السواقى والطواحين والجواميس والأبقار الحلابة وغير ذلك، وأما شون الغلال وحواصل السكر والتمر بأنواعه والعجوة شيء لايعد ولايحد (ص٨٢٢) وكان الإنسان الغريب إذ رأى شون الغلال من البعد ظنها مزارع مرتفعة لطول مكث الغلال وكثرتها فينزل عليها ماء المطر ويختلط بالتراب فتنبت وتصير خضراء كأنها مزرعة وكان عنده الأجناد والقرانصه وأكثرهم من بقايا القاسمية انضموا إليه وانتسبوا له وهم عدة وافرة وتزوجوا وتوالدوا وتخلقوا بأخلاق تلك البلاد ولغاتهم، وله دواوين وعدة كتبة من الأقباط والمستوفيين والمحاسبين لايبطل شغلهم ولاحسابهم ولاكتابتهم ليلا ونهاراً، ويجلس معهم حصة من الليل إلى الثلث الأخير بمجلسه الداخل يحاسب ويملى ويأمر بكتابة مراسيم ومكاتبات لايعزب عن فكره شيء قل ولاجل، ثم يدخل إلى

* شركه : بكسر الشين وسكون الراء أى المشاركة فى الزرع وجمعها أشراك، وشركاء.

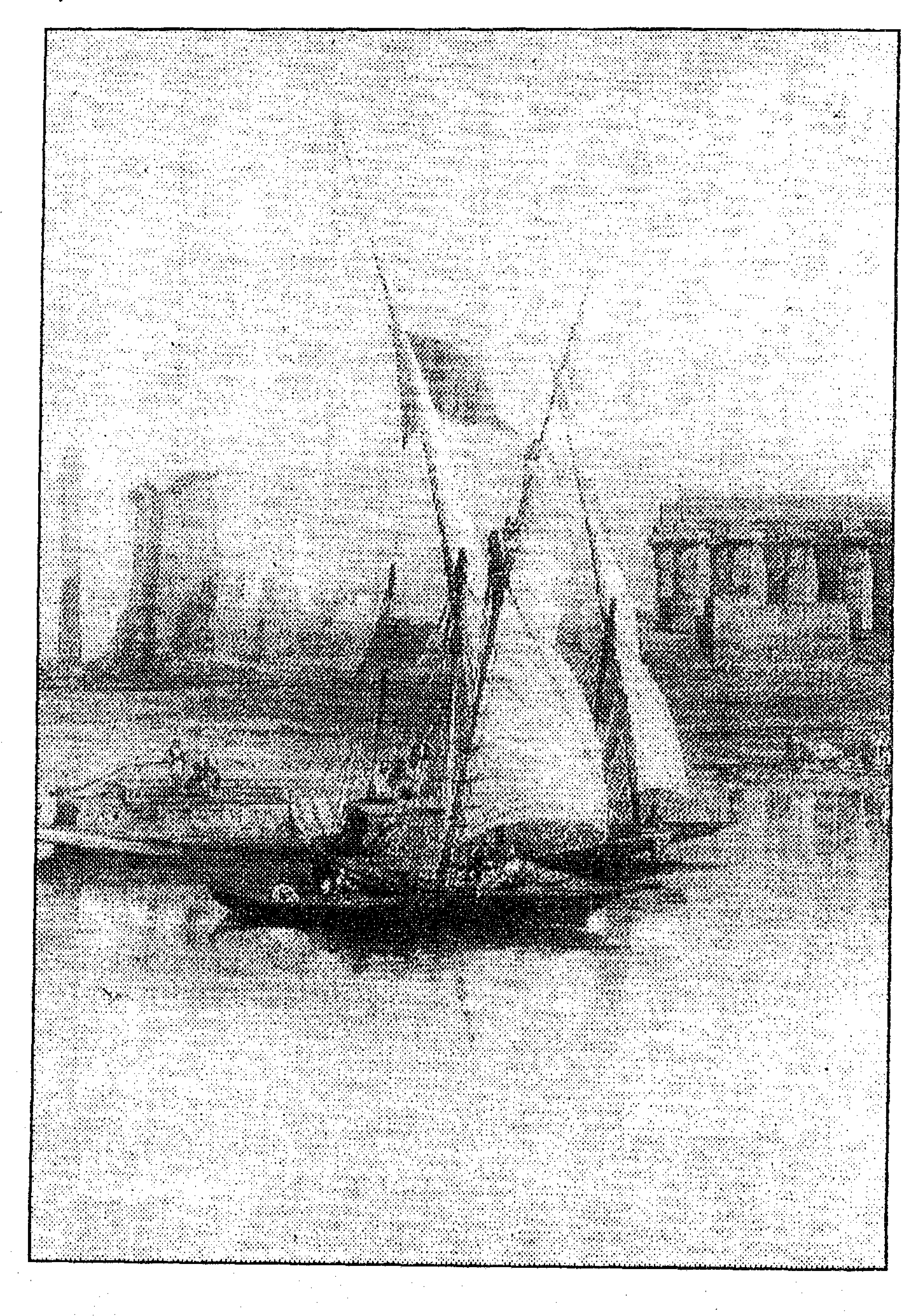
الحريم فينام حصة لطيفة ثم يقوم إلى الصلاة وإذا جلس مجلسا عاما وضع بجانبه فنجانا فيه قطنة وماء ورد فإذا قرب منه بعض الأجلاف وتحادثوا معه وانصرفوا مسح بتلك القطنة عينيه وشمها بأنفه حذرا من رائحتهم وصنانهم* ، وكان له صلات وإغداقات وغلال يرسلها للعملاء وأرباب المظاهر بمصر فى كل سنة وكان ظلا ظليلا بأرض مصر، ولما ارتحل لزيارته شيخنا السيد محمد مرتضى وعرف فضله أكرمه إكراما كثيرا وأنعم عليه بغلال وسكر وجوار وعبيد، وكذلك كان فعله مع أمثاله من أهل العلم والمزايا ، ولم يزل هذا شأنه حتى ظهر أمر على بك وحصل ماتقدم شرحه من وقايعه مع خشداشينه وذهابه إلى الصعيد وصلحه مع صالح بك وانضمامه إليه وكان المترجم صديقا لصالح بك وعشيرته فأمدهما بالمال والرجال مراعاة لسعى صالح بك حتى تم لهما الأمر (ص٨٢٣) وغدر على بك بصالح بك وخرجت رجاله وأتباعه إلى الصعيد وأعلموه بما أوقعه بهم فاغتم على فقد صالح بك غمًا شديدا وحمله ذلك على أن أشار عليهم بذهابهم إلى أسيوط وتملكهم إياها فإنها باب الصعيد، فذهبوا إليها مع جملة المنافى من مصر والمطرودين كما تقدم وأمدهم شيخ العرب المترجم حتى ملكوها وأخرجوا من كان بها واستوحش منه على بك بسبب ذلك وتابع إرسال التجاريد وقدر الله بخذلان القبالى ورجوعهم إلى قبلى على تلك الصورة، فعند ذلك علم همام أنه لم يبق مطلوبًا لهم سواه وخصوصا مع ماوقع من فشل كبار الهوارة وأقاربه ونفاقهم عليه، فلم يسعه إلا الارتحال من فرشوط وتركها بما فيها من الخيرات وذهب إلى جهة إسنا، فمات فى ثامن شعبان من السنة ودفن فى

* الصنان: بضم الصاد ذفر الإبط.

بلدة تسمى قمولة* فقضى عليه بها رحمه الله، وخلف من الأولاد الذكور ثلاثة وهم درويش وشاهين وعبد الكريم، ولما مات انكسرت نفوس الأمراء ثم إن أكابر الهوارة قدموا ابنه درويشا لكونه أكبر إخوته وأشاروا عليه بمقابلة محمد بك ففعل، وأما الأمرا فمنهم من أخذ أمانا من محمد بك وقابله وانضم إليه ومنهم من ذهب إلى ناحية درنة ونزل البحر وسافر إلى الشام والروم ومنهم من انزوى إلى الهوارة بالصعيد، وحضر درويش صحبة محمد بك إلى مصر وقابل عل بك وأعطاه بلاد فرشوط ورجع مكرما إلى بلاده فلم يحسن السير ولم يفلح، وأول مابدأ فى أحكامه أنه صار يقبض على خدم أبيه وأتباعه ويعاقبهم ويسلب (ص٨٢٤) أموالهم وقبض على رجل يسمى زعيتر وكيل البصل المرتب لمطابخ أبيه فأخذ منه أموالا عظيمة فى عدة أيام على مرار، أخذ منه فى دفعة من الدفعات من جنس الذهب البندقى أربعين ألفا وكذلك من يصنع البرد للجوارى السود والعبيد وذلك خلاف وكلا الغلال والأقصاب والسكر والسمن والعسل والتمر والشمع والزيت والبن والشركا فى المزارع ووصلت أخباره بذلك إلى على بك فعين عليه أحمد كتخدا وسافر إليه بعدة من الأجناد والمماليك وطالبه بالأموال حتى قبض منه مقادير عظيمة ورجع بها إلى مخدومه واقتدى به بعد ذلك محمد بك فى أيام إمارته وأخذ منه جملة وكذلك أتباعه من بعده حتى أخرجوا مافى دورهم من المتاع والأوانى والنحاس قناطير مقنطرة، ثم تتبعوا الحفر لأجل استخراج الخبايا حتى هدموا الدور والمجالس ونبشوها وأخربوها. وحضر درويش المذكور. بآخرة إلى مصر جاليا عن وطنه ولم يزل بها حتى مات

* قمولة أو قمولا: بفتح القاف قرية من اعمال مركز الأقصر محافظة قنا.

مدينة الاقصر. النيل والمعبد. ▼



كآحاد الناس، واستمر شاهين وعبد الكريم يزرعان بأرض الوقف أسوة المزارعين ويتعيشون حتى ماتا، فأما شاهين فقتله مراد بك فى سنة أربع عشرة ومايتين وألف أيام الفرنسيس لأمور نقمها عليه، وخلف ولدا يدعى محمدا، وأما عبد الكريم فإنه مات على فراشه قريبا من ذلك التاريخ وترك ولدا يدعى هماما دون البلوغ يوصف بالنجابة حسبما نقل إلينا من السفار*، وكاتبنى وكاتبته فى بعض المقتضيات،ورأيت ابن عمه محمداً المذكور حين أتى إلى مصر بعد ذهاب الفرنسيس وتردد (ص٨٢٥) عندى مرارا، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

* السفار : بضم السين وتشديد الفاء جمع سافر (بمعنى مسافر).

٣٢٤ سويلم بن حبيب كبير سعد.

[ومات] الجناب الكبير والمقدام الشهير من سرت بذكره الركبان، وطار صيته بكل ماكان، الفارس الضرغام النجيب، شيخ العرب سويلم بن حبيب، من أكابر عظماء مشايخ العرب بالقليوبية ومسكنهم دجوة على شاطئ البحر [النيل]، وهو كبير نصف سعد مثل أبيه حبيب بن أحمد وليس لهم أصل مذكور فى قبايل العرب وإنما اشتهروا بالفروسية والشجاعة، وحبيب هذا أصله من شطب قرية قريبة من أسيوط، ولما مات حبيب خلف ولديه سالما وسويلمًا، وكان سالم أكبر من أخيه وهو الذى تولى الرياسة بعد أبيه واشتهر بالفروسية وعظم أمره وطار صيته وكثرت جنوده وفرسانه ورجاله وخيوله وأطاعته جميع المقادم وكبار القبايل ونفذت كلمته فيهم وعظمت صولته عليهم وامتثلوا أمره ونهيه ولايفعلون شيئًا بدون إشارته ومشورته، وصار له خفارة* البرين الشرقى والغربى من ابتداء بولاق إلى رشيد ودمياط، وكان هو وفرسه مقوما على انفراده بألف خيال،

* خفارة: مثلثه الخاء ومعناها الحراسة.

وكـان ظهـور حـبيب هذا فى أوايل القـرن واتفق له ولابنه سالم هذا وقايع وأمور مع إسماعيل بك إيواظ وغيره لابأس بذكر بعضها فى ترجمته، منها أن فى سنة خمس وعشرين ومـاية وألف أرسل حـبب ولده سالمًا إلى خـيـول الأمـيـر إسماعيل بك ابن إيواظ وهجم عليها بالمربع* وجمّ* معارفها وأذنابها وتركها وذهب ولم يأخذ منها شيئاً وذلك بإغراء بعض الناس مثل (ص٨٢٦) قيطاس بك وخلافه وكانت الخيول بالغيط جهة القليوبية، وحضر أمير أخور وأخبر مخدومه فاغتاظ لذلك وعزم على الركوب عليه فلاطفه يوسف بك الجزار حتى سكن غيظه ثم أحضر حسنًا أبا دفية زعيم مصر سابقًا من القاسمية مشهور بالشجاعة وجعلوه قايممقام الأمانة، فسافر بجبخانة ومدفعين وصحبته طوايف ورجال وأمره بأن يطلب شرحبيب* وإن قدر على قتله فليفعل، وكتب مكاتبات للنواحى بأن يكونوا مطيعين للمذكور فلم يزل حتى نزل فى غيط برسيم عند ساقية خراب وعمل هناك متراسًا ووضع المدفعين وغطاهما بلباد وأقام رصد خيالة بالطرق وإذا بسالم بن حبيب ركب فى عبيده ورجاله متوجهين إلى الجزيرة، فنزل بطريقة بغيط الأوسية فحضر الخيالة الرصد إلى الأمير حسن أبى دفية وأخبروه فركب برجاله وأبقى عند المدافع عشرة من السجمانية وأوصاهم بأنهم إذا انهزموا من القوم فإنهم يرمون بالمدفعين سواء ففعلوا ذلك بعد مالاقاهم ورمى منهم رجالا، ووقع منهم أيضًا عند رمى المدافع والرصاص ثلاثة عشر خيالا وأخذوا منهم نحو ستة قلايع ورجع سالم بن حبيب بمن بقى من طايفته إلى أبيه وعرفه بما وقع له مع الأمير حسن أبى دفية فأرسل إلى عرب الجزيرة فأحضر منهم

* المربع: هو مرعى للخيول.

* جمّ: أى قصّ.

* شرحبيب: أى يطلب التحرش به.

فرسانًا كثيرة وكذلك من إقليم المنوفية، وركب الجميع قاصدين مناوشته، ووصلته أخبار ذلك فركب بمن معه وفعل كالأول، وركب مبحرًا وانعطف عليهم وحاربهم فرمى منهم فرسانًا فانهزموا أمامه فوقف (ص٨٢٧) مكانه فرجعت عليه العرب والعبيد فانهزم أمامهم فرمحوا خلفه طمعًا منهم حتى وصل المدافع فرموا بهم وأتبعوهم بطلق الرصاص فولوا هاربين، وسقط من عرب الجزيرة وغيرها عدة فرسان وأخذوا منهم خيولا وسلاحًا، وحضرت نساؤهم ورفعوا القتلى ورجع سالم إلى أبيه وعرفه بما جرى عليهم من حرقهم وقتل فرسانهم فأرسل حبيب إلى قيطاس بك يقول له: إنك أغريتنا بابن إيواظ وتولد من ذلك أنه وجه علينا قايممقامه وحرقنا بالنار وقتل منا أجاويد، فأرسل إليه مكاتبة خطابًا للقصاصين بمعاونته ومساعدته فحضر إليه منهم عدة فرسان ضاربى نار وجمع إليه عربان الجزيرة وخيالة كثيرة من المنوفية، وركب حبيب وأولاده وجموعه إلى جسر الناحية، ونزل هناك وأرسل أولاده بخيول يطلبون شر أبى دفية وإذا ركب عليهم انهزموا أمامه حتى يصلوا إلى محل رباطهم بالجسر ففعلوا ذلك إلى أن وصلوا إلى الجسر فضربت القناصة بنادقهم طلقًا واحدًا فرموا نحو ثلاثين جنديا من الكبار، والذى ماأصيب فى بدنه أصيب حصانه وردت عليهم الخيول وانهزم الأمير حسن أبو دفية بمن بقى معه إلى دار الأوسية، فأخذت العرب الخيول الشاردة وغزوا الغز ورموهم فى مقطع من الجسر وأرسل العبيد أتوا بالجراريف وجرفوا عليهم التراب من غير غسل ولا تكفين، ورجع إلى بلده وخلص ثأره وزيادة، وحضرت الأجناد إلى مصر وأخبروا الصنجق بما وقع لهم مع حبيب وأولاده،

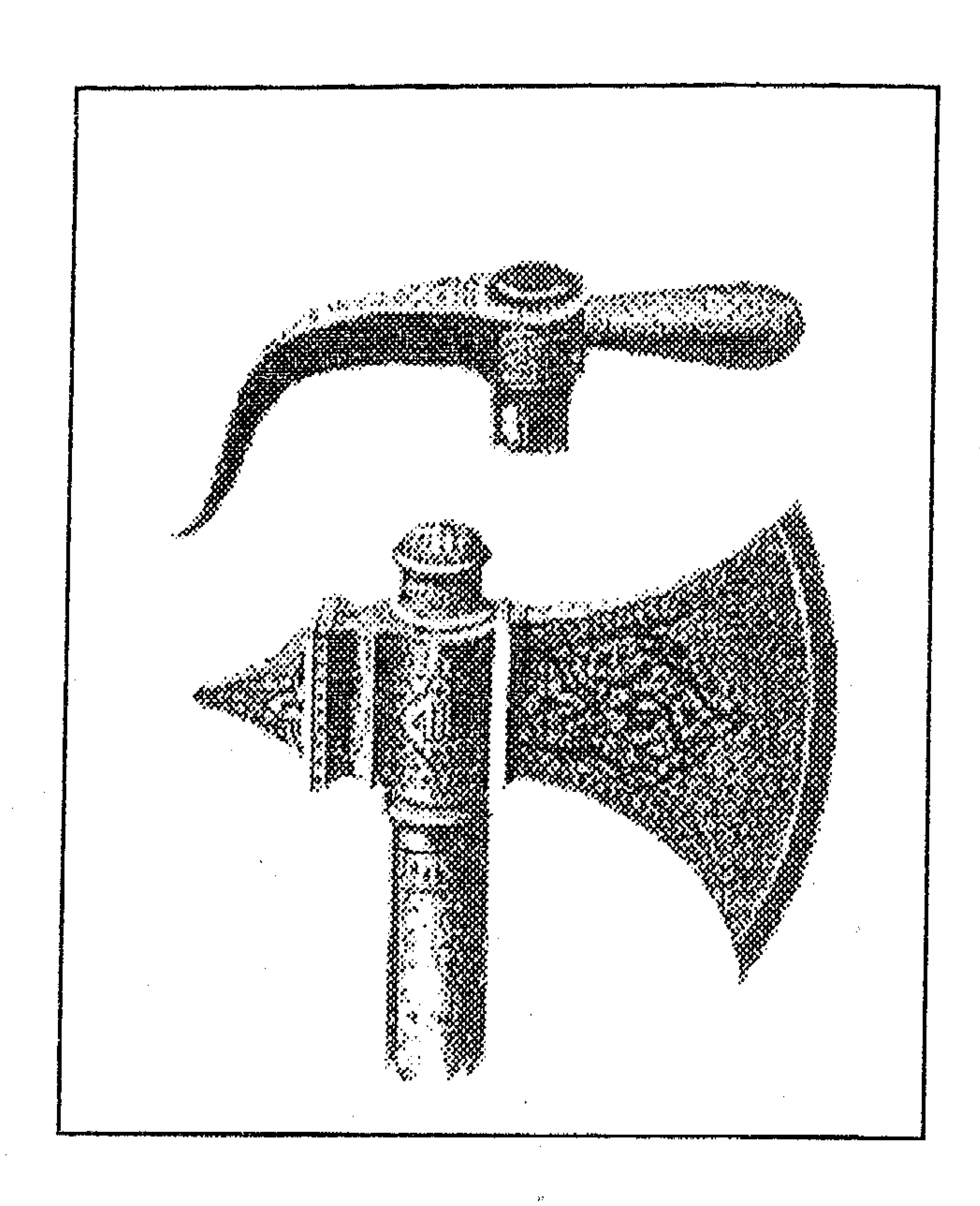


معارك حربية.

فعزل الأمير حسن أبا دفية من قايممقامية وولى خلافه، وأخذ فرمانا بضرب (ص٨٢٨) حبيب وأولاده، وركب عليهم من البر والبحر. ووصلت النذيرة إلى حبيب، فرمى مدافع أبى دفية فى البحر ووضع النحاس فى أشناف وألقاها أيضا فى البحر، وقيل إن حبيب قبل هذه الواقعة بأيام أحضر ستة قناديل وعمرها بعد ماعاير فتايلها ووزنها بالميزان عيارًا واحدًا، وكتب على كل قنديل ورقة باسمه واسم أخيه وأولاده واسم ابن إيواظ وأسرجها دفعة واحدة فانطفأ الذى باسمه واسم أخيه وأولاده واسم ابن إيواظ وأسرجها دفعة واحدة فانطفأ الذى باسمه أولا ثم انطفأ قنديل ابن إيواظ ثم قناديل أخيه وأولاده شيئًا بعد شىء، فقال: أنا أموت فى دولة ابن إيواظ. ولما وصل إليه الخبر بحركة ابن إيواظ

وركوبه عليه، فركب بأخيه وأولاده وخرجوا هاربين، ووصل ابن ايواظ إلى دجوة ورمحوا على دواويرهم ورموا الرصاص وكانت المراكب وصلت إلى البر الغربى تجاه دجوة ورسوا هناك وموعدهم سماع البنادق، فعند ذلك عدوا إلى البر الشرقى وطلعوا إليه، فأمر ابن إيواظ بهدم دواوير الحبايبة فهدموها بالقزم والفوس وأنشأ كفرا بعيدا عن البحر بساقية وحوض دواب وجامع وميضة وطاحونين وجمع أهل البلد فعمروا مساكنهم فى الكفر وسموه كفر الغلية، ورجع الأمير إسماعيل بك إلى مصر وأخذ الغز والأجناد أبقارًا وعجولا وأغنامًا وجواميس وأمتعة وفرشًا وأخشابًا شيئًا كثيرًا ووسقوه فى المراكب وحضروا به من البر أيضًا إلى مصر، وكتب مكاتبات إلى ساير القبايل من العربان بتحذيرهم من قبولهم حبيبًا وأولاده ، وأن لاينجمع عليه أحد ولا يؤويه، فلم يسعهم الا أنهم ذهبوا عند عرب غزة فأكرموهم ولم يزل بها حتى مات،وحضر سالم (ص٨٢٩) ابنه بعد ذلك إلى قليوب ببيت الشواربى شيخ الناحية سرا وأخذ له مكاتبة من إبراهيم بك أبى شنب خطابًا إلى ابن وافى المغربى بأن يوطن أولاد حبيب عنده حتى يأخذ لهم إجازة من أستاذهم، فأرسل أحضر عمه وأخاه سويلما وعدوا إلى الجبل الغربى وساروا عند ابن وافى شيخ المغاربة فرحب بهم وضرب لهم بيوت شعر وأقاموا بها إلى سنة ثلاثين وماية وألف، فمات إبراهيم بك أبو شنب وكان يواسى أولاد حبيب ويرسل لهم وصولات بغلال يأخذونها من بلاده القبلية، فلما مات فى الفصل*، ضاقت معيشتهم، فحضر سالم بن حبيب من عند ابن وافى خفية، وذلك قبل طلوع ابن إيواظ بالحج سنة إحدى وثلاثين ودخل بيت السيد محمد دمرداش وسلم

* الفصل: أى وقت انتشار الطاعون.



▶ ادوات حربية.

عليه وعرفه بنفسه فرحب به وشكا له حال غربته وبات عنده تلك الليلة وأخذه فى الصباح إلى ابن إيواظ فدخل عليه وقبل يده ووقف، فقال السيد محمد للصنجق «عرفت هذا الذى قبل يدك؟» قال لا، قال: هذا الذى جم أذناب خيولك، قال: سالم قال: لبيك قال: أتيت بيتى ولم تخف، قال له: نعم أتيت بكفنى إما أن تنتقم وإما أن تعفو فإننا ضقنا من الغربة وها أنا بين يديك فقال له: مرحبا بك أحضر أهلك وعيالك وعمر فى الكفر واتق الله تعالى وعليكم الأمان، وأمر له بكسوة وشال، وكتب له أمانا وأرسل به عبده، وركب سالم وذهب عند إبراهيم الشواربى بقليوب فأقام عنده حتى وصل العبد بالأمان إلى عمه وأخيه فى بنى سويف، فحملوا وركبوا وساروا إلى قليوب ونزلوا

بدار أوسية الكَفْر حتى بنوا لهم دواوير وأماكن (ص٨٣٠) ومساكن، وأتتهم العُربية ومشايخ البلاد ومقادمها للسلام والهدايا والتقادم، فأقام على ذلك حتى تولى محمد على بك ابن إسماعيل بك أمير الحاج فأخذ منه إجازة بعمار البلد الذى على البحر، وشرع فى تعمير الدور العظيمة والبساتين والسواقى والمعاصر والجوامع وذلك سنة أربع وثلاثين ومائة ألف، واستقام حال سالم واشتهر ذكره وعظم صيته واستولى على خفارة البرين ونفذت كلمته بالبلاد البحرية من بولاق إلى البغازين وصارت المراكب والرؤساء تحت حكمه، وضرب عليهم الضرايب والعوايد الشهرية والسنوية، وأنشأ الدواير الواسعة والبستان الكبير بشاطئ النيل، وكان عظيما جدًا وعليه عدة سواق وغرس به أصناف النخيل والأشجار المتنوعة فكانت ثماره وفاكهته وعنبه تجتنى بطول السنة، وأحضرها لها الخولة من الشام ورشيد وغير ذلك، ولما وقعت الوقايع بين ذى الفقار بك ومحمد بك جركس المتقدم ذكرها، وحضر جركس بمن معه من اللموم إلى قرب المنشية، وخرجت إليه عساكر مصر وأرسلوا إلى سالم بن حبيب فجمع العربان وحضر بفرسانه وعبيده إلى ناحية الشيمى وحارب مع الأجناد المصرية حتى قتل سليمان بك فى المعركة، وولى جركس ورجعت التجريدة وتبعه سالم بن حبيب والأسباهية وذهبوا خلفه فعدى الشرق فعدوا خلفه، وطلعت تجريدة أخرى من مصر فتلاقوا معهم وتحاربوا مع محمد بك جركس فكانت بينهم وقعة عظيمة فكانت الهزيمة على جركس وحصل ماحصل من وقوع جركس فى الروبة وموته، ودفنوه بناحية شرونه كما تقدم، ورجع سالم (ص٨٣١) بن حبيب بما غنمه فى تلك الوقايع إلى

بلده واشتهر أمره واشترى السرارى البيض، ولم يزل حتى توفى سنة إحدى وخمسين ومائة وألف، وخلف ولداً يسمى عليًا اشتهر أيضًا بالفروسية والنجابة والشجاعة، ولما مات سالم ترأس عوضه أخوه سويلم فى مشيخة نصف سعد، فسار بشهامة واشتهر ذكره، وعظم صيته، فى الإقليم المصرى زيادة عن أخيه سالم، ووسع الدواوير والمجالس، ولما سافر الأمير عثمان بك الفقارى بالحج ورجع سنة إحدى وخمسين المذكورة، فأرسل هدية إلى سويلم المذكور وأرسل له الآخر التقادم، ثم إن الأمير عثمان بك تغير خاطره على سويلم لسبب من الأسباب فركب عليه على حين غفلة ليلا وتعالى به الدليل ونزل على دجوة طلوع الشمس، وكان الجاسوس سبق إليهم وعرّفهم بركوب الصنجق عليهم. فخرجوا من الدور ووقفوا على ظهور خيولهم بالغيط بعيدا عن البلد، فلما حضر الصنجق ورمح على دورهم ورمى الطوايف بالرصاص فلم يجدوا أحدا، فلم يتعرض لهم بشى ومنع الغز والطوائف عن أخذ بشى، وبلغ خبر ركوب الصنجق عمر بك رضوان وإبراهيم بك فركبا خلفه حتى وصلا إليه وسلما عليه فعرّفهما أنه لم يجدهم بالبلد، فركب عمر بك وأخذ صحبته مملوكين فقط وسار نحو الغيط فرآهم واقفين على ظهور الخيل، فلما عاينوه وعرفوه نزلوا عن الخيل وسلموا عليه، فقال لهم. لأى شيء تهربون من أستاذكم؟ وعرفهم أنه أتى بقصد النزهة وأحضر صحبته على بن سالم فقابل به الأمير وقبل يده ورجع (ص٨٣٢) إلى دواره وأحضر أشياء كثيرة من أنواع المآكل حتى اكتفى الجميع، وعزموا عليهم تلك الليلة فبات الصنجق وباقى الأمراء وذبح لهم أغنامًا كثيرة وعجلين

جاموس وتعشى الجميع، وأخرجوا لهم فى الصباح شيئًا كثيرًا من أنواع الفطورات، ثم قدم لهم خيولا صافنات وركبوا ورجعوا إلى منازلهم.

ولما هرب إبراهيم بك قطامش فى أيام راغب محمد باشا وكان سويلم مركونًا عليه فجمع سويلم عرب بلىّ وضرب ناحية شبرا المعدية، فوصل الخبر إلى إبراهيم جاويش القازدغلى فأخذ فرمانًا بضرب ناحية دجوة والخروج من حق أولاد حبيب فعين عليهم ثلاثة صناجق؛ هم عثمان بك أبو سيف وأحمد بك كشك وآخر، ووصلتهم النذيرة بذلك فوزعوا دبشهم* وحريمهم فى البلاد وركبوا خيولهم ونزلوا فى الغيط ونزلت لهم التجريدة ومعهم الجبخانة والمحاربون وهجموا على البلد فوجدوها خالية ولما رأى الحبايبة كثرة التجريدة فوسعوا وذهبوا إلى ناحية الجبل الشرقى، وأرسل إبراهيم جاويش إلى عثمان بك أبى سيف أمير التجريدة بأنه ينادى فى البلاد عليهم ولم يدع أحدًا منهم ينزل الريف، فركب عثمان بك وطاف بالبلاد يتجسس عليهم، وظفر لهم بقومانية وذخيرة ذاهبة إليهم من الريف على الجمال فحجزها وأخذها وذلك مرتين، ورجع عثمان بك ومن معه إلى مصر وصحبتهم ماوجدوه للحبايبة فى البلاد من مواش وسكر وعسل وأخشاب، وهدموا جانبا من بيوتهم وكان على بن سالم لم يذهب مع سويلم إلى الجبل بل أخذ عياله وذهب عند أولاد فودة، فلما سمع (ص٨٣٣) بالتقريط على أصحاب الدرك فأتى إلى مصر ودخل إلى بيت إبراهيم جاويش وعرفه بنفسه وطلب منه الأمان فعفا عنه بشرط أن لايقرب دجوة ويسكن فى أى بلد شاء يزرع مثل الناس، ثم أن سويلمًا ومن معه أرسلوا إلى حسين بك الخشاب بأن

* دبشهم : بفتح الدال والباء هو أثاث منازلهم.

يأخذ لهم أمانا من إبراهيم جاويش ففعل وقبل شفاعة حسين بك بشرط إبطال حماية المراكب وأذية بلاد الناس، ويكفيهم الخفارة التى أخذوها بالقوة، واستخلص لهم المواشى التى كان جمعها عثمان بك أبو سيف، واستقر سويلم كما كان بدجوة، وبنى له دوّارًا عظيما ومقاعد مرتفعة شاهقة فى العلو يحمل سقوفها عدة أعمدة وعليها بوايك مقوصرة ترى من مسافة بعيدة فى البر والبحر، وبها عدة مجالس ومخادع ولواوين وفسحات علوية وسفلية وجميعه مفروش بالبلاط الكَدَّان*، وبنى بداخل ذلك الدوار مسجدًا ومصلى وبداخل حوش الدوار مساطب ومضايف لأجناس الناس الافاقية وغيرهم، وبنى تحت ذلك الدوار بشاطئ النيل رصيفا متينا ومساطب يجلس عليها فى بعض الأوقات، وأنشأ عدة مراكب تسمى الخرجات ولها شرافات وقلوع عظيمة وعليها رجال غلاظ اشداد فإذا مرت بهم سفينة صاعدة أو حادرة صرخ عليها أوليك الرجال قايلين البر، فإن امتثلوا وحضروا أخذوا منهم ما أحبوه من حمل السفينة وبضايع التجار، وإن تلكأوا فى الحضور قاطعوا عليهم بالخرجات فى أسرع وقت وأحضروهم صاغرين، وأخذوا منهم أضعاف ماكان يؤخذ منهم لو حضروا طايعين من أول الأمر، وكان له قواعد وأغراض وركايز وأناس من الأمرا وأعوانهم بمصر يراسلهم ويهاديهم فيذبون عنه ولايسمعون فيه (ص٨٣٤) شكوى. وله عدة من العبيد السود النجارية الفرسان ملازمين له مع كل واحد حرمدان مقلد به ملآن بالدنانير الذهب وكان لايبيت فى داره وياتى فى الغالب بعد الثلث الأخير فيدخل إلى حريمه حصة ثم يخرج بعد الفجر فيعمل ديوانا ويحضر بين يديه عدة من

* الكَدَّان: الحجارة الرخوة وهو غالبًا الحجر الجيرى.

الكتبة ويتقدم إليه أرباب الحاجات مابين مشايخ بلاد وأجناد وملتزمين وعرب وفلاحين وغير ذلك والجميع وقوف بين يديه. والكتاب يكتبون الأوراق والمراسلات إلى النواحى، وغالب بلاد القليوبية والشرقية تحت حمايته وحماية أقاربه وأولاده ولهم فيها الشركا والزروع والدواوير الواسعة المعروفة بهم والمميزة عن غيرها بالعظم والضخامة، ولايقدر ملتزم ولاقايممقام على تنفيذ أمر مع ملاحيه إلا بإشارته أو بإشارة من البلد فى حمايته من أقاربه؛ وكذلك مشايخ البلاد مع أستاذيهم وكان لهم طرايق وأوضاع فى الملابس والمطاعم فيقول الناس «سرج حبابيى وشال حبابيى ومركوب حبابيى» إلى ذلك وكان مع شدة مراسه وقوة بأسه يكرم الضيفان ويحب العلماء وأرباب الفضايل ويأنس إليهم ويتكلم معهم فى المسايل ويواسيهم ويهاديهم وخصوصًا أرباب المظاهر، واتفق أن الشيخ عبد الله الشبراوى أضافه فقدم له جملا، ولم يزل على ماذكرنا حتى جرد عليهم على بك، وهرب سويلم إلى البحيرة فى السنة الماضية ثم جرد عليه فى هذه السنة وعلى الهنادى، وقتل شيخ العرب سويلم وخمسة وأربعون شخصًا من الحبابية وأتوا برأسه وعلقت بالرميلة ثلاثة أيام، (ص٨٣٥) وبقى من أولادهم خمسة وهم: سيد وأحمد وسالم ومحمد وأحمد فنزلوا على حكم إسماعيل بك إلى محمد بك فكلم على بك فى ذلك وترضى خاطره فأمنهم بشرط أن لايسكنوا محلهم ولايكون لهم ذكر، وشتت قبيلتهم إلى أن عمّرهم مراد.بك تابع محمد بك أبى الدهب وترأس عليهم شيخ العرب أحمد بن على بن سويلم ولكن دون الحالة الأولى بكثير، ومن غير صولة ولامقارشة ولاتعد ولاخفارة، وكان إنسانا حسنا وجيها

محتشما مقتصرا على حاله وشأنه ملازما على قراءة الأوراد والمذاكرة ويحب أهل الفضل والصلاح ليتبرك بهم وبدعائهم، وترددنا عليه وتردّد إلينا بمصر كثيرا وبلونا منه خيرا وحسن عشرة، وكان معه أخوه شيخ العرب محمدعلى مثل حاله ويزيد عنه الإنجماع عن الناس لغير مايعنيه ويعانيه فى خاصة نفسه، وكان أبوهما على نزل بقليوب بدار فيحاء، وكان حسن الخلق والخلق وله حشم وأتباع كثيرة وله هيبة عندهم، وكان طيب السيرة فصيحا مفوها فى حفظه أشعار ونوادر ولديه معرفة، وكان يفهم المعنى ويحقق الألفاظ ويطالع الكتب ومقامات الحريرى ونحو ذلك.

[ومات] الأمير المبجل على كتخدا مستحفظان الخربطلى، وهو من مماليك أحمد كتخدا الخربطلى. الذى جدد جامع الفاكهانى الذى بخط العقادين وصرف عليه من ماله ماية كيس وذلك فى سنة ثمان وأربعين وماية وألف، وأصله من أبناء الفايز بالله الفاطمى، وكان إتمامه (ص٨٣٦) فى حادى عشر شوال من السنة المذكورة، وكان المباشر على عمارته عثمان جلبى شيخ طايفة العقادين الرومى، وفى تلك السنة ألبس مملوكه المترجم على أوده باشه الضلمة وجعله ناظرا ووصيا، ومات سيده فى واقعة محمد بك الدفتردار فى جملة الأحد عشر أميرا المتقدم بيانهم، وعمل جاويش فى الباب ثم عمل كتخدا، واشتهر ذكره بعد انقضاءدولة عثمان بك الفقارى واستقلال إبراهيم كتخدا ورضوان كتخدا الجلفى بإمارة مصر، وزوج ابنته لعلى بك الغزاوى وعمل لها فرحًا عظيما ببركة الرطلى عدة أيام كانت من ٣٢٥ على كتخدا مستحفظان الخربطلى

مقترحات مصر، وبعد انقضاء أيام الفرح زفت العروس فى زفة عظيمة اجتمع العالم من الرجال والنساء والصبيان للفرجة عليها، ودخل بها على بك المذكور وولد منها حسن جلبي المشهور، وأنشأ على كتخدا المترجم داره العظيمة برأس عطفة خشقدم جهة الباطلية وداره المطلة على بركة الرطلى والقصر على الخليج الناصرى والقباب المعروفة به وغير ذلك، ونفاه على بك إلى جهة قبلى كما تقدم، فلما ذهب على بك إلى قبلى صالحه وانضوى إليه وكان هو السفير بينه وبين صالح بك فى الصلح، وبذل جهده فى ذلك هو وخليل بك الأسيوطى حتى أتموه على الوجه المتقدم، وحضر صحبة على بك إلى مصر وسكن بداره وأقبلت عليه الناس وقصدوه فى الدعاوى والشكاوى، وأمن جانب على بك واعتقد صداقته وظن أنه قلده منته فلم يلبث إلا أيامًا وأخرجه منفيا إلى رشيد، ثم أرسل من خنقه هناك، (ص٨٣٧) وكان أميرا جليلا وجيهًا جميل الصورة واسع العينين أبيض اللحية ضخمًا مهاب الشكل بهى الطلعة، ودفن هناك.

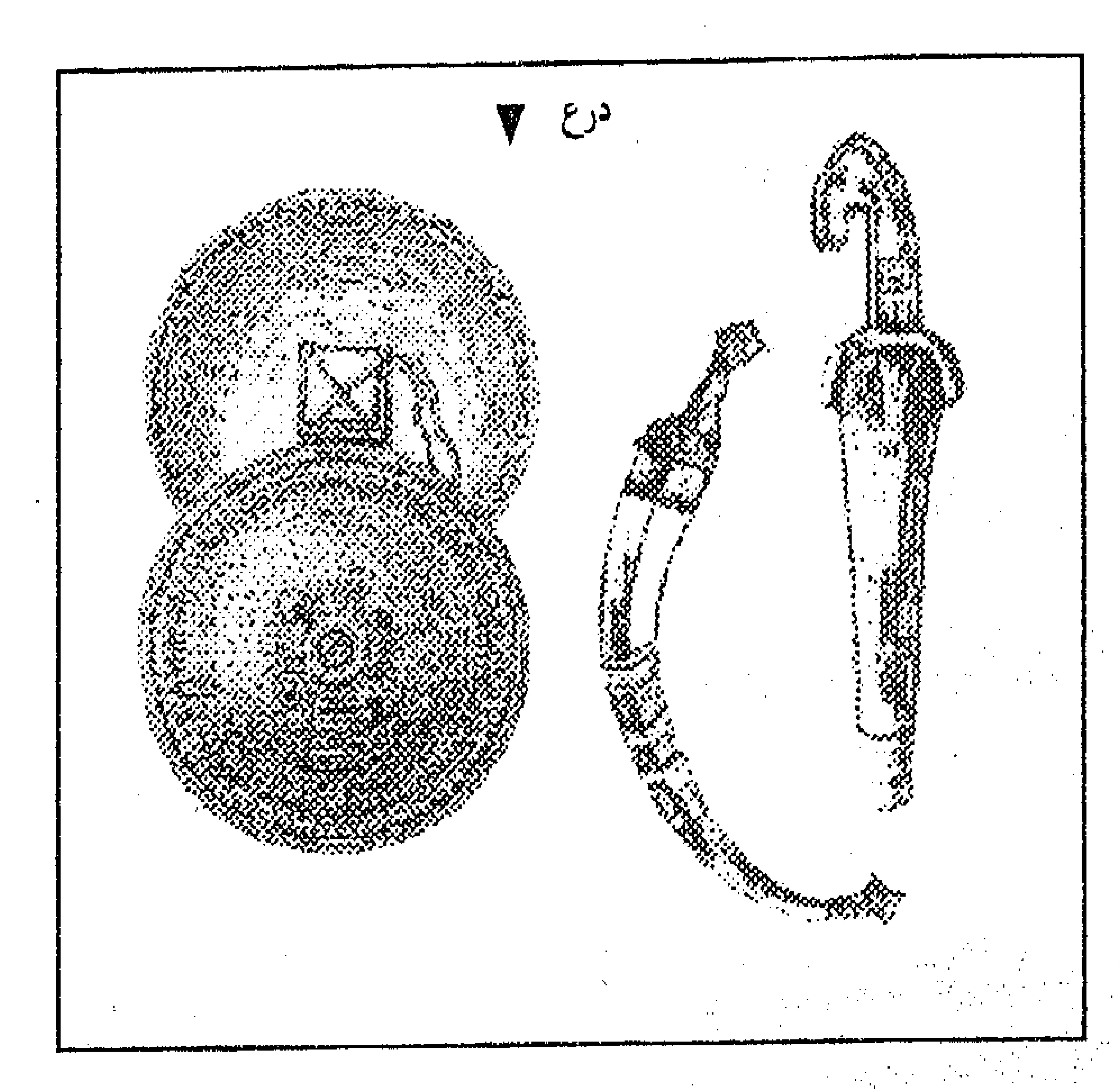
٣٢٦ محمد بك أبو شنب.

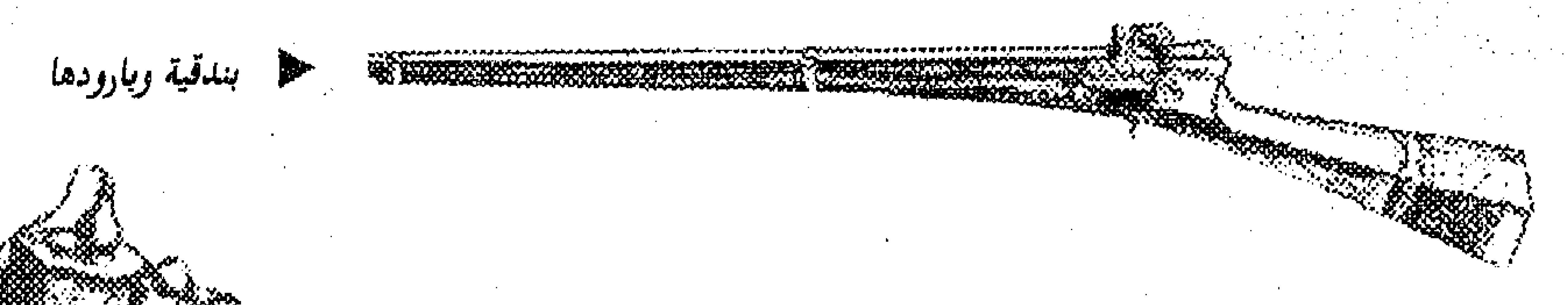
[ومات] الأمير محمد بك أبو شنب، وهو من مماليك على بك، وقتل فى معركة أسيوط كما تقدم، ودفن هناك، وكان من الشجعان المعروفين.



١١٨٤هـ.
١٤٨٦ ق.
١٧٧٠ م.
غاية الفيضان
١٦قيراط ـ ٢٣ذراع

□ فيها تولى مصر قرا خليل باشا.
□ وفيها ابتدا القحط والشدة بمصر بسبب المصاريف المتسببة عن الحروب التى أقامها على بك ومحمد بك أبو الدهب، فإن تجريدة مكة تكلفت ٢٦ مليون فرنك.
□ فيها ١ توت ١٤٨٧ = ٩ سبتمبر ١٧٧٠ = الأحد ١٨ جماد أول سنة ١١٨٤.
□ فيها انتصرت الروسيا على الأتراك
□ ١ يناير سنة ١٧٧١ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٨٧ = الاثنين ١٣ رمضان سنة ١١٨٤.
□ فيها كان اقتسام بولونيا الأول بين روسيا وبروسيا واوستوريا.


درع


بندقية وبارودها

سنة أربع وثمانين ومابة وألف [١٧٧٠م]

فيها ورد على على بك الشريف عبد الله من أشراف مكة، وكان من أمره أنه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف أحمد أخى الشريف مساعد منازعة فى إمارة مكة بعدوفاة الشريف مساعد ، فتغلب عليه الشريف أحمد واستقل بالإمارة، وخرج الشريف عبد الله هاربا وذهب إلى ملك الروم*واستنجد به، فكتب مكاتبات لعلى بك بالمعونة والوصية والقيام معه، وحضر إلى مصر بتلك المكاتبات فى السنة الماضية، وكان على بك مشتغلا بتمهيد القطر المصرى ووافق ذلك غرضه الباطنى وهو مطمعه فى الاستيلاء على

* حملة على بك على الحجاز بقيادة محمد بك أبو الدهب.

* يقصد بملك الروم السلطان العثمانى. وقد حدث هنا خلط عند الجبرتى فى أسماء الاشراف، فمن المعروف حسبما ذكر «ابن دحلان» فى كتابه «تاريخ الدول الاسلامية

باالجداول الرضية، المشهور باسم تاريخ ابن دحلان ص ٢٠٠ وما بعدها، أن الشريف مساعد توفى يوم الاربعاء لثلاث بقين من شهر المحرم سنة أربع وثمانين ومائة وألف، وكانت ولايته تسع عشر سنة إلا ثلاث اشهر ، بينما يذكر الجبرتى هنا انه توفى عام ١١٨٣هـ، وعبد الله المذكور هنا هو عبد الله بن حسين من آل بركات وليس الشريف عبد الله . انظر المقدمة.

الممالك فأنزله فى مكان وأكرمه ورتب له كفايته، وأقام بمصر حتى تمم أغراضه بالقطر وخلص له قبلى وبحرى، وقتل من قتله وأخرج من أخرجه، فالتفت عند ذلك إلى مقاصده البعيدة وأمر بتجهيز الذخاير والإقامات وعمل البقسماط الكثير حتى ملوا منه المخازن ببولاق ومصر القديمة والقصور البرانية وبيوت الأمراء المنافى الخالية، ثم عبوا ذلك وأرسل مع باقى الاحتياجات واللوازم من الدقيق والسمن والزيت والعسل والسكر والأجبان فى البر والبحر، واستكتب أصناف العساكر أتراكا ومغاربة (ص٨٣٨) وشواما ومتاولة* ودروزا وحضارمة ويمانية وسودانا وحبوشا ودلاة وغير ذلك، وأرسل منهم طوايف فى المقدمات والمشاة أنزلوهم من القلزم فى المراكب وصحبتهم الجبخانات والمدافع وآلات الحرب، وخرجت التجريدة فى شهر صفر بعد دخول الحجاج فى تجمل زايد ومهيا عظيم وسارى عسكرها محمد بك أبو الدهب وصحبته حسن بك ومصطفى بك وخلافهم.

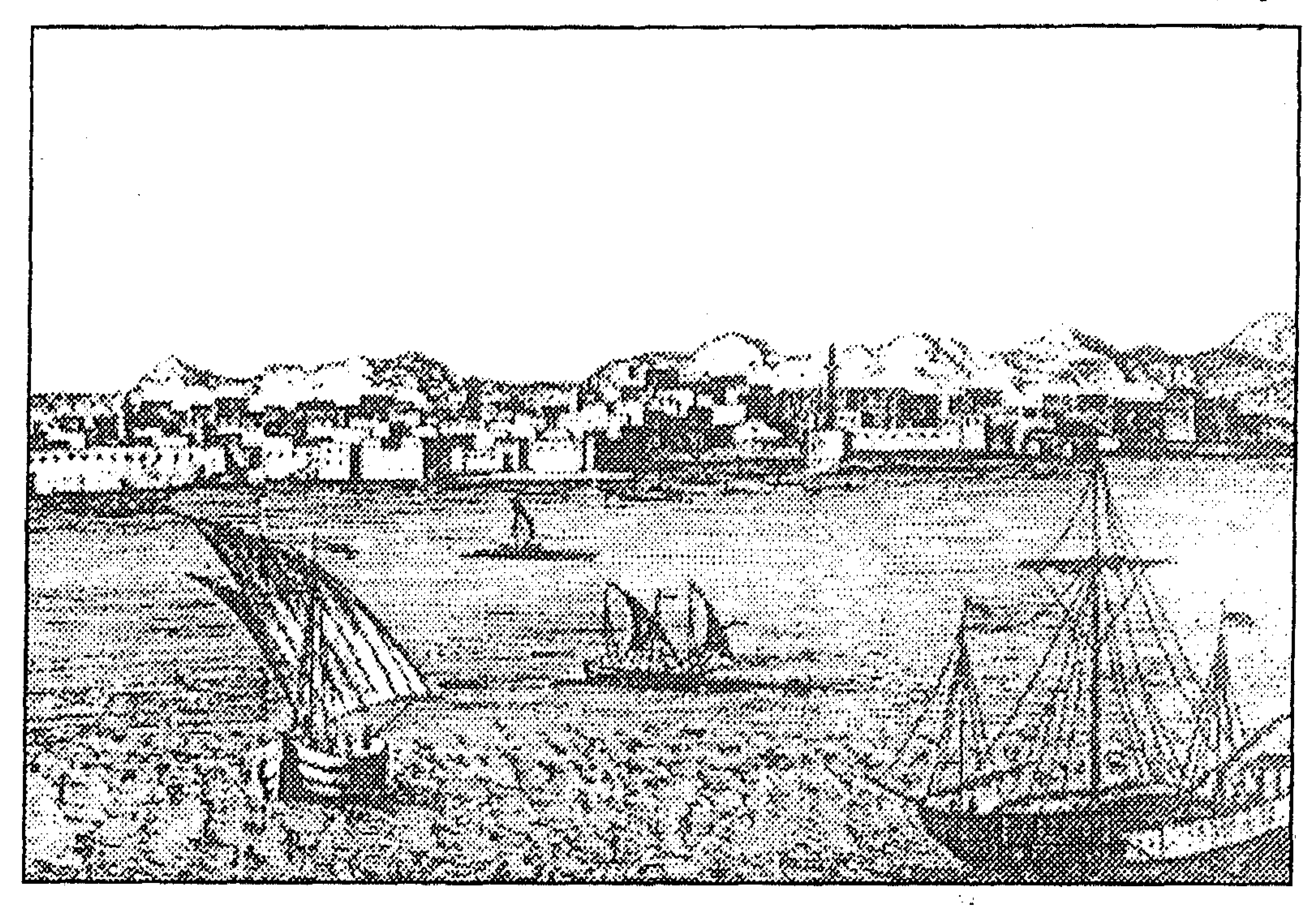
* متاولة: هم شيعة بلاد الشام وقد ذكر الجبرتي هنا انه خرج مع محمد بك ابو [illegible] بك ومصطفى بك، وصحة الاسم الاخير اسماعيل بك. انظر المقدمة.

وفى ثانى وعشرين ربيع الأول وردت الأخبار من الأقطار الحجازية بوقوع حرابة * عظيمة بين المصريين وعرب الينبع وخلافهم من قبايل العربان والأشراف ووقعت الهزيمة على المذكورين وانتصر عليهم المصريون، وقتل وزير الينبع المتولى من طرف شريف مكة وقتل معه خلايق كثيرة.

* القضاء على بدو الاشراف فى البقيع.

وفى تاسع من شهر ربيع الآخر وصل نجاب* إلى مصر من الديار الحجازية وأخبر بدخول محمد بك ومن معه إلى مكة، وانهزام الشريف أحمد وخروجه هاربا. ونهب المصريون دار الشريف ومن يلوذ به وأخذوا منها أشياء كثيرة من أمتعة وجواهر وأموال لها قدر، وجلس الشريف عبد الله فى إمارة

* نجاب : الرسول، وهو يصل غالبا عن طريق البر.



مكة، ونزل حسن بك إلى بندر جدة وتولى إمارتها عوضا عن الباشا الذى تولاها من طرف ملك الروم؛ ووصلت الأخبار والبشائر بذلك وأرسلت إليه الملاقاة بالعقبة وخلافها، فلما ورد الخبر بوصوله إلى العقبة خرجت الأمرا إلى بركة الحاج والدار الحمرا لانتظار قدومه فوصل فى أواخر شهر رجب ودخل إلى مصر (ص٨٣٩) فى ثامنه فى موكب عظيم، وأتت إليه العلما والأعيان للسلام وقصدته الشعراء بالقصايد والتهانى.

وفى منتصف رجب المذكور عزل على بك عبد الرحمن أغا مستحفظان وقلد عوضه أغا الوالى، وقلد عوض الوالى موسى* أغا من أتباعه، وأمر عبد الرحمن أغا بالسفر إلى ناحية غزة وهى أول حركاته إلى جهة الشام، وأمر بقتل سليط

* أول حملات على بك إلى الشام.

شيخ عربان غزة، فلم يزل يتحيل عليه حتى قتله هو واخوته وأولاده ، وكان سليط هذا من العصاة العتاة له سير وأخبار .

وفيه زاد اهتمام على بك بالتحرك على جهة الشام واستكثر من جميع طوايف العسكر ، وعمل البقسماط والبارود والذخاير والمون وآلات الحرب، وأمر بسفر تجريدة واميرها اسماعيل بك وصحبته على بك الطنطاوى وعلى بك الحبشى، فبرزوا إلى جهة العادلية وخرجوا بما معهم من طوايف العسكر والمماليك والأحمال والمطابخ والجبخانات والعربات والضوية * وقرب الماء الكثيرة على الجمال، والكرارات والمطابخ والطبول والزمور والنقاقير وغير ذلك، فلما تكامل خروجهم أقاموا بالعادلية * أياما حتى قضوا لوازمهم وارتحلوا وسافروا إلى جهة الشام.

وفى حادى عشرينه برزت تجريدة أخرى وعليها سليمان بك وعمر كاشف وجملة كثيرة من العساكر فنزلوا من طريق البحر على دمياط.

وفى عاشر شهر القعدة وردت أخبار من جهة الشام وأشيع وقوع حرابات بينهم وبين حكام الشام وأولاد العظم.

وفى منتصفه خرجت تجريدة أخرى وسافرت (ص٨٤٠) على طريق البر على النسق السابق.

(وفى سابع عشر) طلب على بك حسن أغا تابع الوكيل والروزنامجى وباش قلفة وإسماعيل أغا الزغيم وآخرين وصادرهم فى نحو أربعماية كيس بعد ما عوقوهم أياما.

[وفى أواخره] عمل على بك دراهم على القرى وقرر على كل بلد ماية ريال وثلاثة ريال حق طريق؛ فضجت الناس من ذلك، وطلب من النصارى والقبط ماية ألف ريال، ومن اليهود أربعين ألفا وقبضت جميعها فى أسرع وقت.

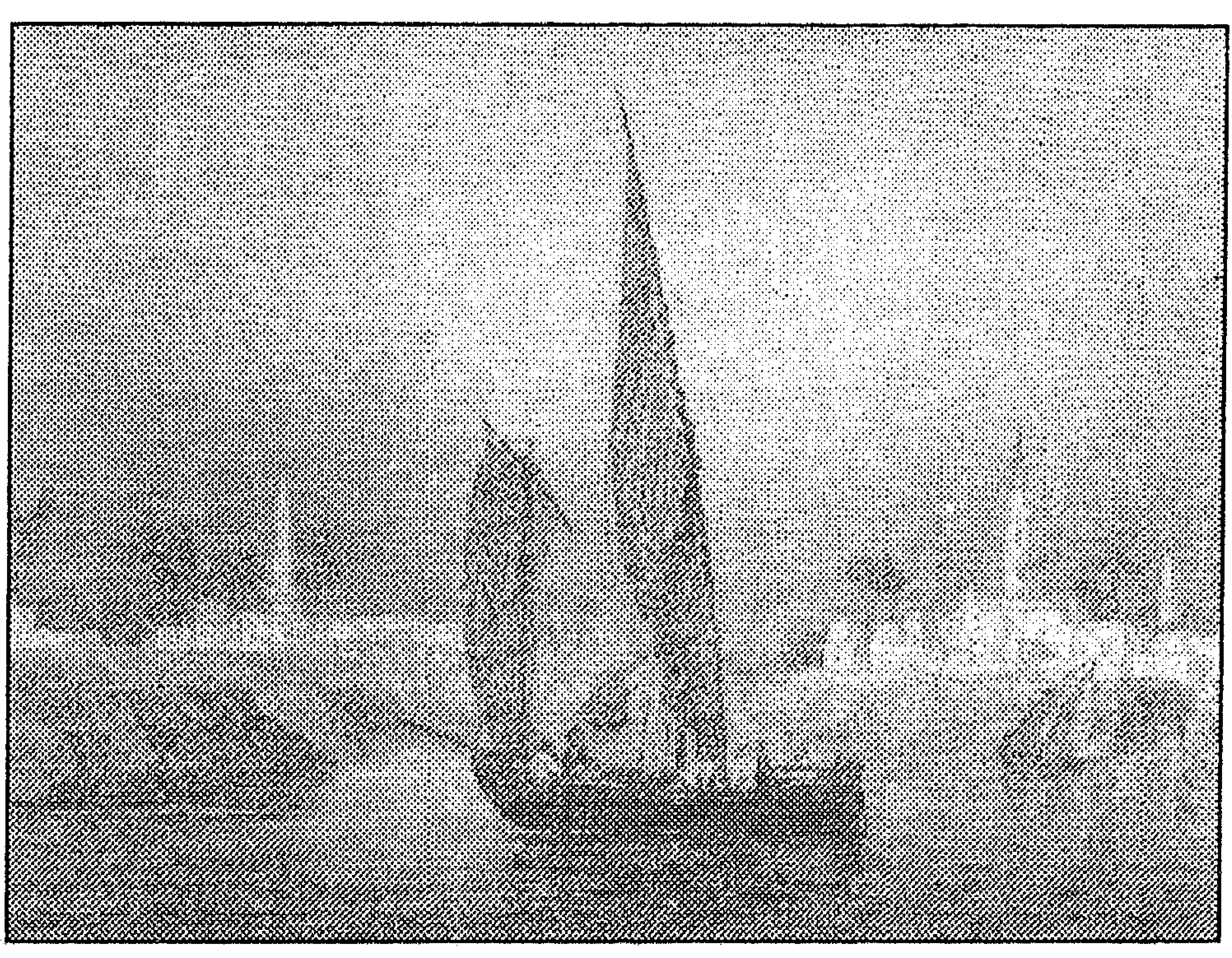
* الضوية: حملة المشاعل والمصابيح.

* العادلية: بالشرقية . كانت محطة تاريخية على طريق المتجه للشام أو القادم منها لمصر.

[مات] الشيخ العمدة الفاضل الكامل الأديب الماهر الناظم الناثر الشيخ عبد الله بن سلامة الإدكاوى المصرى الشافعى الشهير بالمؤذن، ولد بإدكو وهى قرية قرب رشيد سنة أربع ومائة وألف كما أخبر من لفظه ، بها حفظ القرآن وورد إلى مصر، فحضر دروس علماء مصر وأدرك الطبقة الأولى، واشتهر بفن الأدب وانضوى إلى فخر الأدباءفى عصره السيد على أفندى برهان زاده نقيب السادة الأشراف، فأنزله عنده فى إكرام واحتفل به وكفاه المؤنة من كل وجه، وصار يعاطيه كؤوس الآداب، ويصافيه بمطارحة أشهى من ارتشاف الرضاب، وحج بصحبته بيت الله الحرام، وزار قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، وذلك سنة سبع وأربعين ومائة وألف، وعاد إلى مصر وأقبل على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ومهر وبهر، ورحل إلى رشيد وفوة* والاسكندرية مرارا، واجتمع على أعيان كل منها وطارحهم ومدحهم، وفى سنة تسع وثمانين رأيت من نظمه بيتين بخطه فى جدار (ص١٤٨) جامع ابن نصر بفوه تاريخ كتابتها سنة خمس وأربعين، وبعد وفاة السيد النقيب تزوج وصار صاحب عيال وتنقلت به الأحوال وصار يتأسف على ما سلف من عيشة الماضى فى ظل ذلك السيد قدس سره، فلجأ إلى أستاذ عصره الشيخ الشبراوى ولازمه واعتنى به وصار لا ينفك عنه ومدحه بغرر قصايده ، فحصلت له العناية والإعانة، وواساه بما حصلت به الكفاية والصيانة، وله تصانيف كلها غرر، ونظم نظامه عقود الدرر، فمنها الدرة الفريدة والمنح الربانية فى تفسير آيات الحكم العرفانية ، والقصيدة اللازردية فى مدح خير البرية ، ألفها لعلى باشا الحكيم، ومختصر شرح بانت سعاد

* ٣٢٧ عبد الله بن سلامة الادكاوى.

* فوه : أحد مراكز محافظ كفر الشيخ.



▲ منظر لمدينة فوه من النيل.

للسيوطي ، والفوايح الجنانية في المدايح الرضوانية، جمع فيها أشعار المادحين للمذكور، ثم أورد في خاتمها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا، وهداية المنهومين في كذب المنجمين، والنزهة الزهية بتضمين الرحبية، نقلها من الفرايض إلى الغزل، وعقود الدرر في أوزان الأبحر الستة عشر، التزم في كل بيت منها الاقتباسات الشريفة، والدر الثمين في محاسن التضمين، وبضاعة الأريب في شعر الغريب، وذيلها بذيل يحكى دمية القصر، وله المقامة التصحيفية والمقامة القمرية في المجون ، وله تخميس بانت سعاد وصدرها بخطبة بديعة وجعلها تأليفا مستقلا. وديوانه المشهور (ص٨٤٢) على حروف التهجي وغير ذلك. وقد كتب بخطه الفايق كثيرا من الكتب الكبار ودواوين الأشعار، وكمل عدة أشياء من غرايب الأسفار رأيت من ذلك كثيرا،

وقاعدة خطه بين أهل مصر مشهورة لا تخفى ، ورأيت مما كتب كثيرا، فمن الدواوين: ديوان حسان رضى الله عنه رأيته بخطه وقد أبدع فى تنميقه وكتب على حواشيه شرح الألفاظ الغريبة، ونزهة الألباب، الجامع لفنون الآداب، وله مطارحات لطيفة مع شعراء عصره، والواردين على مصر، ولم يزل على حاله حتى صار أوحد زمانه، وفريد عصره وأوانه، ولما توفى الأستاذ الحفنى اضمحل حاله، ولعب بلباله، واعترته الأمراض ونضب روض عزه وغاض، وتعلل مدة أيام، حتى وافاه الحمام، فى نهار الخميس خامس جمادى الأولى من السنة، وأخرج بصباحه، وصلى عليه بالأزهر، ودفن بالمجاورين قرب تربة الشيخ الحفنى، ومما اخترته من شعره قوله متوسلا بالنبى صلى الله عليه وسلم:

يارب بالهادى الشفيع محمد
من قد بدا هذا الوجود لأجله
وبآله الأمجاد ثم بصحبة الـ
أخيار يا مغنى الورى من فضله
كن لى معينا فى معادى واكفنى
هم المعاش وما أرى من ثقله
واستر بفضلك زلتى واغفر بعد
لك سيئتى واشف الحشا من غله

(ص٨٤٣) ـ (وله):

سل اللّه ذا المَنِّ العظيم ولاتَسَلْ
سواهُ فإن اللّهَ يعطيكَ ما تبْغى
ومهما تنَلْ ما رمته ياأخا الحجا
من الأمَل المطلوب فاقنع ولا تَبغى

* وجد بهامش بعض النسخ ما نصه: وقد رثاه الشيخ على الشرقاوى بقوله:

إن الادكاوى فاقا بفنون الشعر حده
كان فى الفن إماما منجزا فى الفضل وعده
ولقد مات فارخ مات أس الشعر بعده

وله في آل البيت وفيه اقتباس:

آل طـــه يـــا أُولـــى كـــلِّ هُـــدى
نزلَ القـــرآنُ في تطهـــيـــركُمْ
نـوركـم يـجـلـو دجـــا كـل عـنـا
انظرونا نقـــتـــبس من نـوركـم

ومن غرر صنايعه النوع المخترع المسمى بوسع الاطلاع وقد قسمه إلى أربعة أقسام: الأول أن يكون أول كل كلمة أولاً لأختها (وفيه قوله):

بـــهـــى بـــدا بـــالـــوَصْـــلِ
بـــزَوْرَتِـــه بـــانَـــتْ بـــلابُـــل بـــالـــهِ

الثاني : حرف عاطل وحرف منقوط سوى القافية (وفيه قوله):

جـــمـــيل بديع جل ذاتا بهـــيـــه
به زدت حـــبّـــا فـــاتك بمجـــاله

الثالث : كلمة منقوطة وكلمة عاطلة ويسمى الأخيف (وفيه قوله):

جُنِنْتُ وُلوعًـا في هواه، شُـغِـفْتُ، كم
فُـــتِنْتُ عـــســـاه يُجـــتنَى لكمـــاله

الرابع : جميع الكلمات منقوطة (فيه قوله):

شـــفـــيق شـــقـــيقٌ شَـنِـبٌ شَـــفَـى
بغُنْجٍ، بجُـــفْنٍ شَـــفَّني بنبـــاله

له فيـمـا لا يسـتـحـيل بالانعكاس* بانعكاس قـــولنا لـم يَنْعَكِسْ:(ص٨٤٤)

* أي يقرأ طردا وعكسا

الْغ مَنْ نَمّ فمن نم غلا

وله فيه أيضا:

ارع خـل إن أســـــــــــاَ
وأسَ إنِ الخـلُ عَـــــــــرا
ارثِ لَـمـنْ مـلّ قـــــــلاً
والْــقِ لَـــمِـــنْ مَـــلّ ثـــرا
ارْمِ عـــــدُواً ذا حـــمَـــا
وامــحُ أذاً وَدع مِـــــــرا

وله فيه أيضا:

صـــديقى فى الأنام حليف حلم
عليـه الجـهلُ حـتـمـا لا يُحُـومُ
منتـــه* تـــنـــم* لهـجـو ذا
م اذ وجـهل مـئنتـه* تـــنـــم

* مئنة: صفته
* تنيم: تقتل

وله فى وسع الاطلاع، وهو أن الحـرف الذى تخـتم به الكلمة تبتدأ به الكلمة التى بعدها إلى آخر قوله:

تأمّلُ لما أبداهُ هذا المُهـــفْــهَف
فــريدُ دلالٍ لا انفـصــال لحــسنه
هَنَاىَ يؤاتى يومَ مَــوْلاى يُســعفُ
حــبــيب بهى يوم مَلْقــاَه هَنّنى
يميـنـا إذا ألـقـــاه همّى يُكْشّفُ
بـه هـام مـــثلـى يا أخـــلاء آيـة
تمنوْا إذا أمُــوا الحــمى يتــعطفُ
وكـم ملكوه هائمين نفـــوســهم

مــــرامُــــهُـمُ مِنهم هبَــاتٌ تؤلف
رشــــاَ أتمنّى يصطفـــــينى يودنى
يـواصلـنـى يـومــــــا إذا أتَـلَـهّـفُ
فـينعم متعـوب برّته همومُه(ص٨٤٥)
هُيــــامى* ينادى يا مـيلحـا أتعطف
فـــــزادَ دَلالا إذ ذكـــــرت تَعطّفَــــا
أظلما إذا أصبحت تسخو وتُسْعِفُ
(وله فى النوع المسمى بالعود):
دلالــــة بـــولاة الحـــب زاد فـلـــو
قد عاد بالقرب ياصحبى شفى سقمى
دلاله زاد صــــحـــبى بالقـــرب زاد دلاله
وصــاله طَبٌ لبى لو يعــود عـــسى
بالوصل يحــسم دائى بل يصـون دمى
وصــاله طب دائى عـــسى يعــود وصــاله
نبــاله قــد أبادت عــاشــقـيـه فكم
عــادت بهم نافـذات العـود فـبانتـقم
نبــاله نافــذات فكم أصــابت نبــاله
قــتــاله فى الرعـــايا لا يطاق فـــلا
تهـزا فـقـد عـاد جـدا ذاك فـاعـتـصم
قــتـــاله فى الرعـــايا فـــلا يطاق قـــتـــاله

وله فى بناء مسجد الشيخ مطهر بيت تأريخ:
إنما يعــــمــــر المســـاجـــد من آ
من بالله مـــــوقنا بالمفــــاز
(وله تشطير ذالية ظافر الحداد)
لو كــان بالصــبــر الجـمــيل مــلاذ

* الهيام بضم الهاء : الجنون من العشق

مـــا ضل عنه هجـــوعـــه ولذاذه

خـــلا ولولا برق ثغـــر جـــبـــينه

مـــــاسح وابل جـــــفنه ورذاذه

إلى أخرها وله من قصيدة يمدح بها بعض أمراء مصر ويهنيه بعام أربع وستين فيها تاريخ، كل مصراع منه تاريخ على حدته، ومنقوط المصراعين تاريخ ومهملهما (ص٨٤٦) تاريخ، ومنقـوط الأول مع مـهـمل الثـانى تاريخ وبالعكس، فالجملة ستة تواريخ فى البيت الواحد مطلعها:

سلوه عن جـــفنىَ مـــا أرّقـــه

وخـــاطرى المشـــغـــوفِ من شـــوّقـــه

«وبيت التاريخ»

عـــام بكم فـــرقـــد إشـــراقـــه

بســـوحكم راق فـــمـــا أشـــرقـــه

(وله):

وافى المحب إليكم يرجـــو اللقـــا

كم مـــرة فـــأبى قـــضـــاء الله

فلئن منتم بالتـــلاقى مـــرة

ألبـــســـتـــمـــوه حلة المتـــبـــاهى

وكان فى مجلس وفيه أعيان الكتاب من الخطاطين فطلب منه وصفهم فقال:

انظر لمجلس ذا الكتـــاب تلقـــهم

مـثل النجـوم التى يسـرى بهـا السـارى

قـد أحـرزوا قـصب الأرقـام واقـتطفـوا

جنى حـــروف لقـــد زينت بأســـفـــار
مـــا منهم من يرى يومـــا يراعـــتـــه
إلا وقـــيـل له مـــا أحكم البـــارى

(له مؤرخا عذار محبوب):

يارعى الله دهر أنس تقـــضـى
بك يا أيهـــا الظريف الشـــمـــايل
حـــيث ورد الخـــدود زاه نضـــيـــر
مـــشـــمـــر بالجـــمـــال ياغـــصن مـــايل
(٨٤٧ص) ولى الدهر ماسعيت مطيع
مـــســـعـــدات بكوره والأصـــايل
إن أقل آمـــرا أجـــاب وحظى
بتـــمليك فى حلى الســـعـــد رافل
مـــذ تبـــدى مـــسلســـلا آسُ خـــديـ
ـــك وأمـــســـى لماء وردك نـاهـل
ملّ عـــنـى ظنا بـأنى ســـالٍ
مع أن الحـــشـــا بحـــبك ذاهل
قـــال مـــا ملت عنك لكنّ مـــالا
تشـــتـــهـــيـــه بدا فـــمـــا أنت فـــاعـ
ـلت يامنيـــتى خـــدودك أضـــحت
جنة تجـــذب الحـــشـــا بســـلاسل
قـــال إيه شَـــبِّـــه عـــذارى وأرخ
قلت مـــسك للورد قـــد جـــاء سـايل

«وله وهو منقول من معنى فارسى»:

شكا لى أهل الكيف شـهـر الصـيـام إذ
أتى ودم الأجـــفـــان قـــد ســـفـــحـــوه

فــقلت لهم ياقــوم إن جــاء نحــوكم
يطالبكـم بالصـــوم فـــيـــه كلوه

(وله أيضا):

جلـس الرقـــــيب حـــــذاء آ
سِ الخـــد فى الوجـــه البـــديع
فـكـأنه بـرد العـــــجـــــو
زْ مـــقـــابلٌ فـــصل الربـيع

(وله مستعطفا):

ياســـيـــدى بقـــديم ود بيننا
بحـــديثنا المـــزوج بالســـراء
بســمـيك الكرار قــصــر مــد هــ
ــذا الصــد واحـفظ صحبتى وإخـائى
فــالصـــبـــر عنى قــد نأى والشـــوق
منى قـــد دنا وتشـــتت آرائى
وجــفــاك قــد هد القــوى ونواك قــد
أضنى الحـشـا وعلى يديك شـفـائى
ووحق مـــا لاقـــيـــتـــه أنا ذلك الـ
ــخل الوفى وإن أطلـت جــفـــائى
والذنب ذنبى فــاعف عن يســيــدى
فــالعــفــو شــأنُ الســادة الكرمــاء

(له):

ليـت شعرى ماذا تقولون فى حِبٍّ مغرىً بكم لا ينـام

(وله فى المواعظ):

ليت شعرى إذا دنا يارفاقى
أجلى ثم هيئوا لى ترابى
واغتدوا بى إلى محل به صحـ
ـبى جفونى وليس يرجى إيابى
هل إذا غربلوا التراب أيلقوا
ذرة من عظمى فيا لمصابى
ويح هذى الدنيا التى تحرق الأكبا(ص٨٤٩)
دَ قد مزقت بلحدى إهابى
وبذاك القفر اغتديت رهينا
ليس لى من زاد ولا من ركاب
فإذا رمت يادغستان تدرى
شقوة من سعادة فى المآب
فانظرهْ ما خطَّت يمينك فى لو
حك لما تأتى غدا للحساب

(وقال لأمر اقتضى):

وعصبة سوء تجافيتهم
ونزهت نفسى عن دانهم
لحانى قوم على تركهم
وقالوا ألست من أكفائهم
فقلت لهم عذرنا واضح
على ترك ساحة أحيائهم
فنحن نعيش بأقلامنا
وهم عائشون بأقفائهم

(وقال فى الرد على المنجمين):

اللـه يعلـم مـــا يكـون ومـــا بـه

تـسـرى الرياح ومـاله يجـرى الفلك

فــدع المنجم فى ضــلالتــه ومــا

ينبـيك عنه فـفي مـقــالتــه أفك*

واحـذر تصـدقـه فـتـهلك جـاهلا

يامـدعى الإيمان فـيـمن قـد هلك

علم الإلـه مـــحــجب إلا على

من يرتضـيــه من رســول أو ملك

هذا اعــتــقــادى والذى ألقي به

ربى لأسلك نـاجـيــا مع من سلك

ثم الـصــــلاة عـلى النبى وآلـه

والصحب مـاانشق الضيـاء من الحلك

وأنشده بعض أدباء الروم تاريخا بالتركية يخرج منه ستة تواريخ وزعم أن شعراء العرب لايحسنون مثل ذلك فعمل تلك الليلة قوله وهو أول ما عمل من هذا النوع:

عـــام جـــديد بالـهنا مـــقـــبـل

وكـل خـــيـــر ذكـــره يـؤثـر

أتـى لـنـا أهـلا وســـهـــلا به

ربى أنلنا فـــيـــه مـــا يجـــبـــر

قـــال لى الـوقـت وقـــد راق من

مـنـهـلـه المـورد والمـصـــــدر

صـــــفـــــه بمـدح رائـق لائـق

فـــهـــو بما تمـدحـــه يشـــهـــر

على لســـانى قلت أرخـــتـــه

فى بيت شـــعـــر حـــسن يذكـــر

* أفك : بفتح الهمزة والفاء بمعنى كذب.

إبان عـــامى روحـــه يثـــمـــر
روعـــد مـــثلى نوره يبـــنهـــر

فكل مصراع تاريخ، ومهمل المصراع الأول مع مهمل الثانى تاريخ، ومنقوط الأول مع منقوط الثانى تاريخ، ومهمل الأول مع منقوط الثانى تاريخ، وعكسه فليعلم.

وله تشطير على لامية ابن الوردى مشهور. (ص٨٥١) وله فى الزهديات:

اللـه ربى لا شـــــريك لـه ولا
نـد ولا ضـــــد ولا أعـــــوان
يقـضى ويفـعل مـا يشـاء كـمـاله
ســبــحــانه فى كل يوم شـــان

(وله تخميس بيتى الرقمتين):

وحـــوراء النـواظر أســـهـــرتنى
ليـــالى هجـــرها بل حـــيـــرتنى
ومـــذ حـــصل الوفـــاء وبشـــرتنى
رأت قـــمـــر الســـمـــاء فـــأذكـــرتنى
ليـــالى وصلهـــا بالرقـــمـــتين
وأبدت لى شـــمـــائلهـــا الفـــواتن
ووجـــهـــا نيـــرا للبـــدر فـــاتن
وقـــالت لى وخـــوفى صـــار آمن
كـــلانا ناظرقـــمـــرا ولكن
رأيت بعـــينهـــا ورأت بعـــينى

وقال:

لـم أقـل قـــــد نـام حـظـى إنمـا
نام أهل الحظ فى وقت انتـبــاهه
لكـن الـلـه تـعـــالى قــــادر
فى بقـــائى فى توليــه وجــاهه

وقال فى تضمين المصراع الأخير الفارسى:
وخـــود* من بنات الفــرس ألقت
مـحبـتـهـا لهـيـبـا فى حـشـائى
وقـــد ملكتـــهــا رقى وحلت
مــحلّ الســرّ منىّ والوفـــاء
تعـاملنى بما يسبى فـؤادى(ص٨٥٢)
وتمـنحنى ســروراً بـاللـقـــاء
سطا فـينا النوى فـأتيـتـهـا كى
أمـــتع ناظرى قـــبل التنائى
وقـــالت لى وقــد أذرفت دمــوعـا
على الخـــد المكلل بالبـــهـــاء
بألفــاظ تحـــاكى عـــقـــد در
جــه بودى كــرنبـــودى آشنائى*

*الخـود : بفتح الخـاء وسكون الواو الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة.

*جه بودى كربودى آشنائى : ماذا تكون إذا لم تكن صديقا.

وله قصيدة ليس فيها حرف منقوط من أسفل منها:
كلمت مـــحـــاسنه فـــتـــاها
وســمت تفـــاخـــر من عـــداها
رشـــــأ لـواحظـه غـــــدت
فــتـــاكـــة أو مـــا كـــفـــاها؟

وله أخرى ليس فيها حرف منقوط من أعلى منها:
ياملـيــحــا يهـوى دوامــا صـدودى
لم؟ ياباهى الجـمـــال الوحـيــد

أحـــرام لـو مـــيلوك لوصل
لمحب يرى الوصـال كسعيـد؟

وله نظم البحور على ترتيبها في الدوائر بأسمائها:
أطلت مديد الهجر فابسط لوافر
الوداد بقرب كامل وارث مالكي
وكن هزجا أو ارجزبوصلي وارملن
سريع انسراح ياخفيف المسالك
وضارع إذا رمت اقتضاب حسودنا
لتجتثه أصلا وقارب ودارك

وله في التضمينات نبذة صغيرة جمعها على حروف المعجم للمرحوم الشيخ محمد سعيد السمان الدمشقي حين قدم مصر واجتمع به سنة اثنتين وسبعين وماية وألف منها على حرف الألف:

قال لي من هويت ياذا المعالي
إن تكن تشتهي حصول لقائي
صف كلامي وحسن نطقي بديها
قلت حسن الكلام نصف الوفاء

(وعلى حرف الباء)

أفدى حبيبا سباني
وقد حباني قربه
عاتبته قال دعني
فالعتب نصف المسبّه

(وعلى حرف التاء)

قلت للشادن المليح وقد حل
بخديه مارماه بفَوْت
نبت الشعر فوق خديـ
ـك وهذا والله نصف الموت

(وعلى حرف الشين)

قلت للمسرف المبذر دبر
أمر دنياك تدركن خير عيشه
إن ساداتنا الأفاضل قالوا
إن حسن التدبير نصف المعيشه

وقال فى تفضيل القديم على الجديد والجديد على القديم: (ص٨٥٤)

كن للمعاصر خير ناصر
كم للأوائل فى مفاخر
لا تحقرن جديدهم
كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب للأوا
ئل يافتى أو للأواخر
من كان منهم مبدعا
فاعقد عليه من الخناصر

وقال يمدح الشمس الحفنى قدس الله سره:

فى كل شارقة طرفى أردده
فى روضة أنف من وجهك الحسن
يابهجة العصر يامنهاج كل علا
يامحيي الدين بالآثار والسنن
فأحمد الله إذ بالحب قربنى
من قلبك النير الصافى من الدرن
وأرتجى منه بعد الحب ما بقيت
روحى تردد منى داخل البدن
آمين قل سيدى كى يستجاب دعا
راج بقاءك ياعلامة الزمن

فلما سمعه الممدوح ووعاه، قال بلفظه المبين، آمين اللهم آمين.

وقال مخمسا أبيات ابن منجك* المشهورة:

طاف بالراح مشتهانا المدلل
ينثنى مثل بانة تتميل
قلت مذ زمزم الكئوس وأقبل
نتفداك ساقيا قد كساك الـ
ـحسن من فرقك المضئ لساقك

فى معانيك حار (ص٨٥٥) فكرى ووصفى
فلأى الصفات أبدى وأخفى
وعجيب من حيث تبدو لطرفى
تشرق الشمس من يديك ومن فيـ
ـك الثريا والبدر من أطواقك

وقال مضمنا وقد بلغ عمره سبعين من السنين:

قد شبت مولاى والسبعون قد كملت
فلا تنلنى فى جسمى الضعيف أذى
وإننى لك عبد فاقض لى كرما
بالعتق ياسيدى إن الملوك إذا

وله مضمنا:

قالوا تغربت ياهذا فقلت لهم
دعوا ملامى فإنى غير مستمع
إذ تغربت والدينار يصحبنى
لم أدر ما غربة الأوطان وهو معى

وله فى المجون مضمنا:

وربَ صـغـيـر من بنى الترك جاءنى
وفى خـده ورد تشـوق كـمـائمـه
فـسـاومـتـه وصـلا ولاطفت خلقـه
إلى أنن دنا نحـوى ولانت شكائمـه
فلمـا رأى توقـاه خـائفـا
كـمـا يتـوقى ريض الخـيل حـازمـه

وقال أيضا من هذا النوع:

أقـول وقـد طالت يدى من هويت
وياطالما قـد مـال عنى بالقـبض
أيا عطفـة للصب يافـاتر المهـا
فـأدرك مطلوبى ومـال إلى الأرض
ولـكنـه لما رأى الأير راعـه
وقـال وبرق الشـوق يزداد فى الومض
بحـقك لا تدخله فىّ جـمـيـعـه
حنانيك بعض الشـر أهون من بعض

وقال مضمنا:

بقـبله جـاد حـبى
وكـان منى يفـر
فـقلت ياقلب أبشـر
فـأول الغـيث قطر

وله تقريظ بديع على شرح رسالة اسم الجنس والعلم لسيدنا الشيخ السادات حفظه الله تعالى، والمتن للشيخ العيدروس رحمه الله تعالى: هذا علم علامة علم، فعلم وفهم فهامة

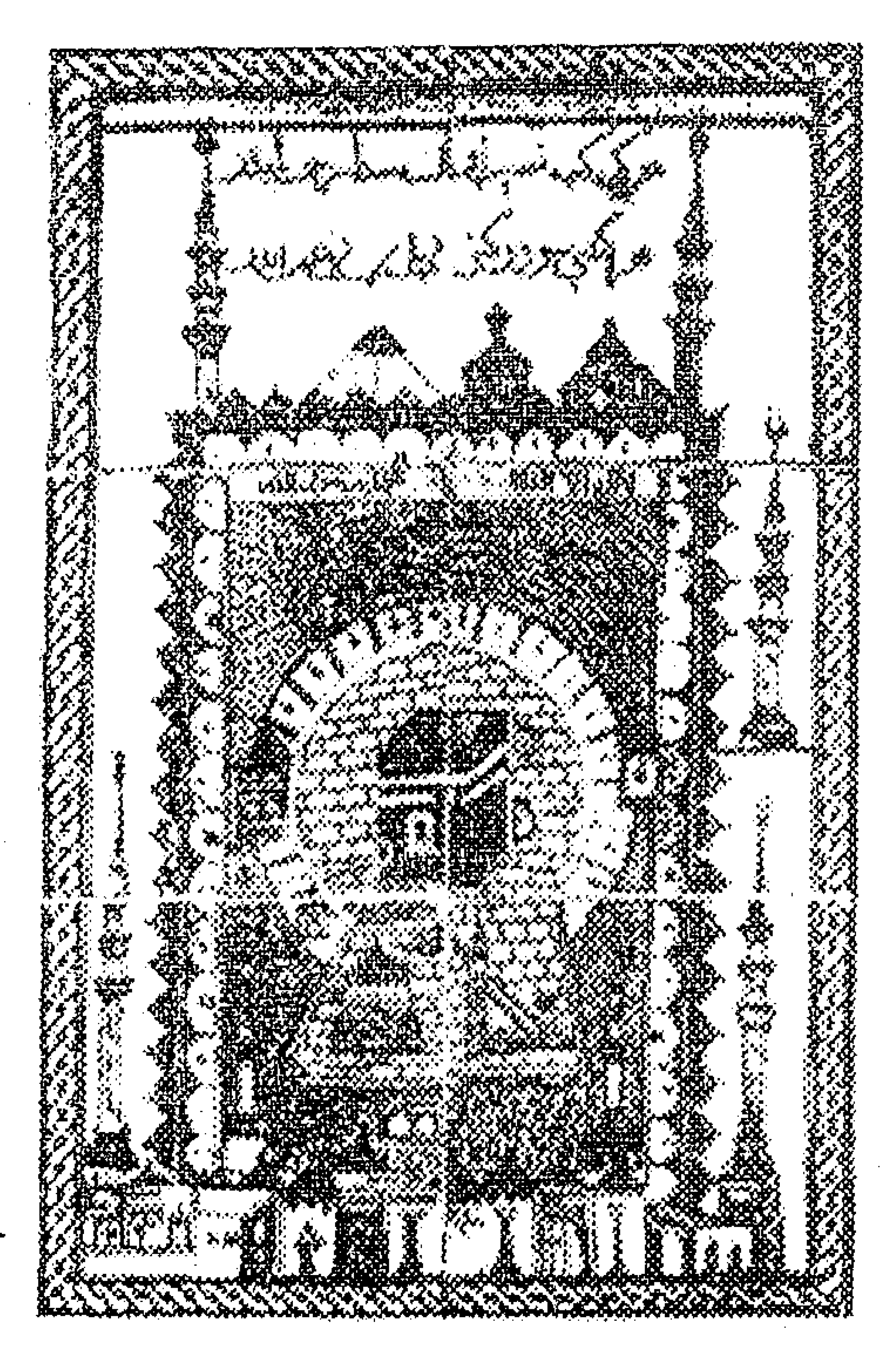
* فرس ريض : بتشديد الياء المكسورة، الذى بدئ بترويضه ويخشى منه على حازمه (مروّضه) لأنه يزال صعب المراس.

فهم ففهم ،وجنس خاص من خاص الخواص، ودرة من بحر علم لا من بحر غواص، وأديب أبرز غامض تحف أتحف بها طالبيها ، ولبيب كشف النقاب عن وجه حسناء تمنعت عن غير عارفيها، فنزهت طرفي في محاسن ما أبدع وحبست طرف نظرى متأملا بدائع ما أودع، وقلت عين الله عليه من رئيس امعن نظره، وأنعم في تنقيح ابحاثها فكرة، وأتقن ضم المتن لشرحه المجيد، حتى صار في الالتئام كعقد در دار بالجيد، كيف لا وهو من نخبة قوم عارفين، ولكل وجهة خير هممهم صارفين، (ص٨٥٧) وعن كل شر عازفين:

قوم هم زينة الدنيا وبهجتها
بهم نغاث إذا خطب لنا زحفا
لاسيما حبرنا ذا الفرع سيدنا
محمد سبط أهل الصدق آل وفا
أدامه من حباه الفضل يتحفنا
بكل أعجوبة تنحو لها اللطفا
وحاطه من عيون الحاسدين وأو
لاه المنى ووقاه ربه وكفى

وله هذه الأبيات الثلاثة أودع في أوايل كل كلمة منها حرفا من حروف الهجايه:

إلى باب تواب ثنيت جوارحى
حليم خبير درء ذنبى رضاؤه
زكا سر شانى صف ضفا طال ظله
عنايته غاثت فجل قضاؤه
كفانى لفيض ما عدانى نواله
هدايته وافت لأمر يشاؤه



الكعبة: رسم على القيشاني.

وقال مؤرخا وصول العين بالماء الكثير إلى مكة شرفها الله:

جاد بالعين الإله لنا
بعد ما كنا فقدناها
وجرت بالماء طافحة
فغدونا نحمد الله
فلذا قل إذ تؤرخه
هو فيض الله أجراها

وكان الأغا المعين عليها من الدولة يقال له فيض الله.

وله تشطير بيتى الشقايق لمولانا العارف بالله تعالى الشيخ عبد الغنى النابلسى رحمه الله (ص٨٥٨) مسئولا فى ذلك، وكان قد ورد على السائل جملة تشاطير عليهما لأدباء الشام فقال:

وشـــقــــايق قــــالـت لنا بين الربا
ببــديع لفظ بالعـــقـــول يســـام
إن كنت ترغب فى شـمـيم عـبـيـرنا
دع وجنة المحـــبــوب فـــهى ضـــرام
هل أنبــتـت قــبل العــوارض مــثلنا
ذا منظر تهــفـــو له الأجـــلام
حــزنا الفــخــار على الزهور بهــجـة
قلـت اسكتـــوا لا يســـمع النمـــام

وقال أيضا:

وشـــقــــايق قــــالـت لنا بين الربا
رد روضـنـا هـو جـنـة وســـــــلام
من أمنا واشــــتـم نفـــحــــتنا يقل
دع وجنة المحـــبــوب فـــهى ضـــرام
هل أنبتت قبل العوارض مثلنا(ص٨٥٩)
حــــسنا وإشـــراقـــا هـواه يرام
أو مـا اسـتـحت من عـرفنا الذاكى شذا
قلـت اسكتـــوا لا يســـمع النمـــام

وقال أيضا:

وشـــقــــايق قــــالـت لنا بين الربا
ببـــهـــاها شـــغف الملوك وهامـــوا
وبنا غـــدا النعـــمـــان يعـــجب قـــايلا
دع وجنة المحـــبــوب فـــهى ضـــرام
هل انبــتـت قــبل العــوارض مــثلنا
زهرا تحــــار لوصـــفـــه الافـــهــــام
أو مـــا درت أنا نفـــوق مـــحــــاسنا

قلت اسكتــوا لا يســمع النمــام

*النمام : نبت طيب الرائحة.

وقال أيضا:

وشــــقـــايق قـــالت لنا بين الربا

أنا للزهور إذا حـــضـــرت إمـــام

بى يفـخـرون ومن رأى حـسنى يقل

دع وجنة المحـــبـــوب فـــهى ضـــرام

هل أنبــتت قــبل العــوارض مـثلنا

والورد فـــيــهـــا قـــد عـــلاه قـــتـــام

وشـــقـــيـــقنا يزهو على طول المدى

قلت اسكتــوا لا يســمع النمــام

وقال أيضا وفيه توجيه علم المنطق:

وشــــقـــايق قـــالت لنا بين الربا

بمقـــدمـــات مـــا بهـــا إبهـــام

برهان ســـعـــدى الآن أنتج قـــايلا

دع وجنة المحـــبـــوب فـــهى ضـــرام

هل أنبــتت قــبل العــوارض مـثلنا

حـــتى أضـــيف لهـــا هوى وغـــرام

لكنهـــا حـــصل التـــمـــانع عندها

قلت اسكتــوا لا يســمع النمــام

وقال أيضا وفيه توجيه النحو:

وشــــقـــايق قـــالت لنا بين الربا

إن جـــئت نحـــوى ســـرك الإقـــدام

وإن ابتـغيت لعـائدى صلة الوفـا (ص٨٦٠)

دع وجنة المحـــبـــوب فـــهى ضـــرام

هل أنبتت قبل العوارض مثلنا
حتى أضيف لها هوى وغرام
لكنها قد عطلت من عامل
قلت اسكتوا لا يسمع النمام

وقال فى توجيه النجوم:

وشقايق قالت لنا بين الربا
ميزان عزى لا يزال يقام
والزهرة الغراء قالت للسها
دع وجنة المحبوب فهى ضرام
هل أنبتت قبل العوارض مثلنا
نجما أضاء بنوره بهرام
أو ما ترانا كالثريا بهجة
قلت اسكتوا لا يسمع النمام

وقال يخاطب الأستاذ الحفنى قدس سره:

ياسيدا عظمت جلالة قدره
ولجاهه انحازت جميع الناس
قد أذهب الله الكريم بفضله
وبلطفه ما حل بى من باس
وأزال شكواى التى قد أوهنت
عظمى فلا أشكو سوى الإفلاس

وقال متغزلا:

يمر على من أهوى فأهوى التفـ
ـاتا منه نحوى إذ يمر
فيعرض حين يلحظنى دلالا (ص٨٦١)

فـــيـــا عـــجـــبى يمر ولا يمـر

وكان قد مرض مرضا أعيا الأطباء ورثى له فيه الأعداء فضلا عن الأحباء، فلما عوفي قال:

قـد حـصل اللطف في القـضـاء وقـد
ازال ربى مـــا كنت أخـــشـــاه
ولـست أشكو لـغـــيـــره أبدا
فـــأحـــمـــد الله ليس إلا هـو

وقال أيضا:

رب بـالمـصـطـفـى رســـولـك طه
المـصـــفـى من ســـاير الأدنـاس
حـــفـنـى منك يا إلهى بـلـطـف
وأزل مـــا يســـؤونـى من بـاس

وقال أيضا:

لـطـف إلـهـى حـــفـنـى
مما دهـانـى فـى الـبــــدن
فــالحـــمـــد لله الذى
أذهـب عـن الحـــــــزن

وقال أيضا:

لـطـف الـلـه بـحـــالـى
بـعــــد أن أوهـن عـظـمـى
فلـه الحـــمـــد على مـــا
زال مـن هـمـى وغـــمـــى

وقال وهو معنى منقول من الفارسية:

أعـــيـــذك أن تكون لدى البـــرايا
تـــسـمى ســـارقـــا ياذا المعـــانى

ولكن إن سرقت فدر معنى

به تزدان لادر الغوانى

وقال مؤرخا وقد كتب على حنفية للوضوء:

ياناظرا فى حسن وضعى لقد(ص٨٦٢)

صرت سبيلا لطريق النجاة

لسان حال قايلا أرّخوا

سبيل ماء للوضو والصلاة

وقال فى غرض:

نحن قوم إذا رأينا مليحا

جامعا فى جماله كل بهجه

وأردنا بالاحتيال نراه

نجعل الشرب للتفرج حجه

وقال يخطاب الشمس الحفنى فى يوم عيد:

عيد بكم يزهو سرورا

ويزيد إشراقا ونورا

فأدامكم رب العلا

لمعاقل الإسلام سورا

ولما زوجنى المرحوم الوالد فى سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف كتب إليه مهنيا ومؤرخا قوله:

ياماجدا أقواله

وفعاله طابا بذكرك

ياكنز طلاب المعا

رف جلها من دُرّ بحرك

يهنيك نجلك عـابد الرحـمـ
ن زاد عـــلا بفـــخــرك
هنيَــتــه مليــتــه
مـتـعـتـه يافـرد عـصـرك
زوجــتــه بكـر المحـا
سن فـانثنى يتلو لشكرك
أبقـاهمـا الله الكـر
يم منعـمين بطول عـمـرك
هذا هناء مـحـبـك الدا
عى لكم بسـمـو قـدرك
والحـال قـد أرخـتـه
شـمس البـهـا زفت لبـدرك

وفى سنة ثلاث وسبعين ومـاية وألف) لما اختلف خدام المشهد النفيسى وكبيرهم إذ ذاك الشيخ عبداللطيف فى أمر العـنـز*، وذلك أنهم أظهروا عنزا صغيرة مدره زعموا أن جماعة من الأسرى ببلاد الافرنج توسلوا بالسيدة نفسية (ص٨٦٣) وأحضروا تلك العنز وعزموا على ذبحها فى ليلة يجتمعون فيها يذكرون ويدعون ويتوسلون فى خلاصهم ونجاتهم من الأسر، فاطلع عليهم الكافر فزجرهم وسبهم ومنعهم من ذبح العنز، وبات تلك الليلة فرأى رؤيا هالته، فلما أصبح أعتقهم وأطلقهم وأعطاهم دراهم وصرفهم مكرمين، ونزلوا فى مركب وحضروا إلى مصر وصحبتهم تلك العنز، وذهبوا إلى المشهد النفسى بتلك العنز، ، وذكروا فى تلك العنز غير ذلك من اختلاقهم وخورهم كقولهم إنهم فى يوم كذا أصبحوا فوجدوها عند

*خرافة العنز وموقف عبد الرحمن كتخدا منها.



المقام أو فوق المنارة وسمعوها تتكلم، أو أن السيدة تكلمت وأوصت عليها ، وسمع الشيخ المذكور كلامها من داخل القبر وأبرزها للناس وأجلسها بجانبه، ويقول للناس ما يقوله من الكذب والخرافات التى يستجلب بها الدنيا، وتسامع الناس بذلك فأقبل الرجال والنسا من كل فج لزيارة تلك العنز، وأتوا إليها بالنذور والهدايا، وعرّفهم أنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق وتشرب ماء الورد والسكر المكرر ونحو ذلك، فأتوه بأصناف ذلك بالقناطير، وعمل النساء للعنز القلايد الذهب والأطواق والحلى ونحو ذلك، وافتتنوا بها، وشاع خبرها في بيوت الأمرا وأكابر النسا وأرسلن على قدر مقامهن من النذور والهدايا، وذهبن لزيارتها ومشاهدتها وأزدحمن عليها، فأرسل عبد الرحمان كتخدا إلى الشيخ عبد اللطيف المذكور والتمس منه حضوره إليه بتلك العنز



ليتبرك (ص٨٦٤) بها هو وحريمه، فركب المذكور بغلته وتلك العنز فى حجره ومعه طبول وزمور وبيارق ومشايخ وحوله الجم الغفير من الناس ودخل بها بيت الأمير المذكور على تلك الصورة وصعد بها إلى مجلسه وعنده الكثير من الأمرا والأعيان، فزارها وتلمس بها، ثم أمر بإدخالها إلى الحريم ليتبركن بها، وقد كان أوصى الكلارجى قبل حضوره بذبحها وطبخها، فلما أخذوها ليذهبوا بها إلى جهة الحريم، أدخلوها إلى المطبخ وذبحوها وطبخها قيّمه وحضر الغذاء وتلك العنز فى ضمنه فوضعوها بين أيديهم وأكلوا منها والشيخ عبدا للطيف كذلك صار يأكل منها والكتخدا يقول : «كل ياشيخ عبد اللطيف من هذا الرميس الثمين» فيأكل منها ويقول : «والله إنه طيب ومستو ونفيس» وهو لا يعلم إنه عنزه وهم يتغامزون ويضحكون ، فلما فرغوا من الأكل وشربوا القهوة وطلب الشيخ العنز، فعرفه الأمير أنها هى التى كان بين يديه فى الصحن وأكلها، فبهت ، فبكته الأمير ووبخه وأمره بالانصراف، وأن يوضع جلد العنز على عمامته ويذهب به كما جاء بجمعيته وبين يديه الطبول والأشاير، ووكل به من أصله محله على تلك الصورة، فقال فى ذلك المترجم:

ببنت رسول الله طيّبة الثنا
نفيسة لُذْ تظفَرْ بما شئت من عِزّ
ورم من جَدّها كل خير فإنها
لطلابها ياصاح أنفعُ من كنز
(ص٨٦٥) ومن أعجب الأشياء تَيس أراد أنْ
يُضِلَّ الورى فى حُبِّها منه بالعنز
فعالجها من نوّرَ الله قلْبه

بذبح وأضحى التيس من أجلها مخزى

ورأيت كثيرا من قصايده في طيارات * وأوراق لم تدون ،وسمعت كذلك من إنشاداته لنفسه ولغيره لو كنت تيقظت لجمع ذلك لكان ديوانا كبيرا ولكن كان ما كان. فما علق بالبال مما أنشده لغيره وفيه تورية:

هيا البلان موسى
خلوة تحيى النفوسا
قيل ما تعمل فيها
قلت أستعمل موسى

وله:

إذا المرء لم ينفعك والدهر مقبل
عليه ولم تخطر عليه ببال
فصوره فى وسط الكنيف بفحمة
وشرشر عليه عند كل مبال

وقد خمسها ما بين المصراعين فقال:

(إذا المرء لم ينفعك والدهر مقبل)
عليه بما قد كان يرجو ويأمل
وأضحى بثوب التيه والكبر يرفل
وصار يرى منك المودة تثقل
«عليه ولم تخطر عليه ببال»
فصوره فى وسط الكنيف بفحمة
وكن حالة التصوير فى وقت ظلمة
ومُر كل مبطون وصاحب تخمةِ(ض٨٦٦)
على رأسه يَخْرَى بعزمٍ وهمةِ

* طيارات: ورق تكتب عليه الرسائل

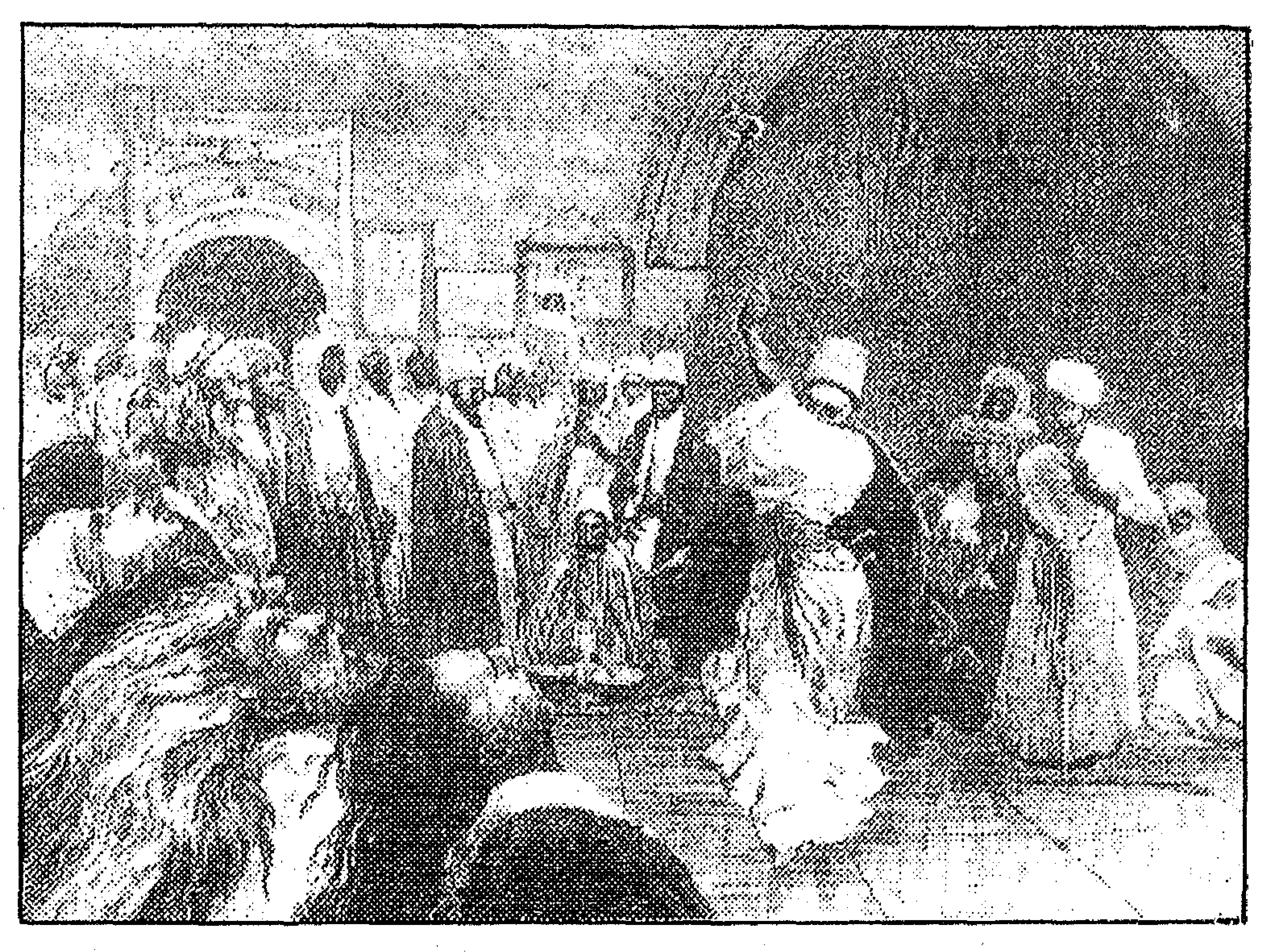
«وشرشر عليه عند كل مبال»

ومما أنشده لنفسه وفيه اقتباس:

ياصـــبـــاح الوجـــه يابيض الثنا
راقـــبـوا الرحـــمن فى مـــأســـوركم
وإذا أظـلـم دهـرٌ جـــــــائـرٌ
انظـرونا نقـــتـــبس من نوركم

ولم يزل المترجم حتى تعلل بالأمراض والأسقام، واضمحل منه الجسم واكتوا بالآلام، حتى وافاه الحمام، فى يوم الخميس خامس جمادى الأولى من السنة رحمه الله، وابنه العلامة السيد أحمد المعروف بكتيكت مفتى الشافعية بثغر سكندرية، والسيد هلال الكتبى توفيا بعده بسنتين، والشيخ صالح الصحّاف موجود مع الأحياء أعانه الله على وقته.

[ومات] الإمام الشيخ الفصيح البارع الفقيه الشيخ/ جعفر بن حسن بن عبد الكريم بن رسول الحسينى البرزنجى المدنى مفتى الشافعية بها، ولد بالمدينة وأخذه عن والده، والشيخ محمد حيوة السندى وأجازه السيد مصطفى البكرى، وكان يقرأ دروس الفقه داخل باب السلام وكان عجيبا فى حسن الإلقاء والتقرير ومعرفة فروع المذهب، تولى الإفتاء والخطابة مدة تزيد على عشرين سنة وكان قوالا بالحق أمارا بالمعروف، واجتمع به الشيخ سليمان بن يحيى شيخ المشايخ وذكره فى رحلته وأثنى عليه، وله مؤلفات منها: البر العاجل (ص٨٦٧) بإجابة الشيخ محمد غافل ، والفيض اللطيف بإجابة نائب الشرع الشريف، وفتح الرحمن على أجوبة السيد رمضان وتوفى فى ٣٢٨ جعفر بن حسن البرزنجى.



شهور هذه السنة قيل مسموما والله أعلم.

(ومات) الوالى العارف أحد المجاذيب الصادقين الأستاذ الشيخ/ أحمد بن حسن النشرتى الشهير بالعريان، كان من أرباب الأحوال والكرامات، ولد فى أول القرن وكان أول أمره الصحو ثم غلب عليه السُكْر فأدركه المحو، وكانت له فى بدايته أمور غريبة وكان كل من دخل عليه زايرا يضربه بالجريد، وكان ملازما للحج فى كل سنة ، ويذهب إلى موالد سيدى أحمد البدوى المعتادة وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وإذا قرأ قارئ بين يديه وغَلطَ يقول له قف فإنك غلطت. وكان رجلا جلاليا يلبس الخشنة وهى جبة صوفٍ وعمامة صوف حمراء يعتم بها على لبْدةٍ من صوف ، ويركب بغلةً سريعةَ العَدْو، وملبسه دايما على هذه الصفة شتاء وصيفا، وكان شهير الذكر يعتقده الخاصة والعامة،

٣٢٩ أحمد بن حسن النشرتى.

وتأتى الأمراء والأعيان لزيارته والتبرك منه، ويأخذ منهم دراهم كثير ينفقها على الفقرا المجتمعين عليه، وأنشأ مسجده تجاه الزاهد جوار داره وبنى بجواره صهريجا وعمل لنفسه مدفنا وكذلك لأهله وأقاربه وأتباعه، واتحد به شيخنا السيد أحمد العروسى واختص به اختصاصا زايدا فكان لا يفارقه سفرا ولا حضرا ، وزوجة إحدى بناته وهى أم أولاده وبشره بمشيخة الجامع الأزهر والرياسة، فعادت عليه بركته، وتحققت بشارته (ص٨٦٨) ، وكان مشهورا بالاستشراف على الخواطر. توفى رحمه الله فى منتصف ربيع الأول وصلى عليه بالأزهر ودفن بقبره الذى أعده لنفسه فى مسجده نفعنا الله به وبعباده الصالحين.

٣٣٠ على بن احمد البشبيشى. (ومات) الفقيه الصالح الشيخ / على بن أحمد بن عبد اللطيف البشبيشى الشافعى روى عن أبيه عن البابلى. توفى فى غاية ربيع الثانى من السنة.

٣٣١ أحمد المولوى. (ومات) الشيخ المبجل الصالح المفضل الدرويش / أحمد المولوى شيخ المولوية بتكية المظفر، وكان إنسانا حسنا لابأس به مقبلا على شانه منجمعا عن خلطة كثير من الناس إلا بحسب الدواعى، توفى فى سابع عشرين ربيع الآخر من السنة ولم يخلف بعده مثله.

٣٣٢ شمس الدين حمودة. (ومات) المقدام الخير الكريم صاحب الهمة العالية والمروة التامة/ شمس الدين حمودة شيخ ناحية برمه بالمنوفية أخذ عن الشيخ الحفنى وكان كثير الاعتقاد فيه والإكرام له ولاتباعه وله حب فى أهل الخير واعتقاد فى أهل الصلاح،



▲ مشهد جنازة

ويكرم الوافدين والضيفان، وكان جميل الصورة طويلا مهيبا حسن الملبس والمركب، توفي يوم الخميس حادى عشر رجب من السنة، وخلف أولادا منهم محمد الحفني الذى سماه على اسم الشيخ لمحبته فيه وأحمد شمس الدين.

٣٣٣ أحمد الشعرانى.

(ومات) بقية السلف ونتيجة الخلف الشيخ/ أحمد سبط الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الشعرانى، وشيخ السجادة(*) كان إنسانا حسنا وقورا سالكا منهج الاحتشام والكمال منجمعا عن خلطة (ص٨٦٩) الناس إلا بقدر الحاجة، توفى يوم السبت ثامن صفر من السنة وخلف ولده سيدى عبد الرحمن مراهقا تولى بعده على السجادة مع مشاركة قريبه الشيخ أحمد الذى تزوج بوالدته.

* شيخ السجادة : أى شيخ طريقة عبد الوهاب الشعرانى.

٣٣٤ محمد الشوبرى الحنفى

[ومات] الإمام العلامة الفقيه الصالح الناسك صايم الدهر الشيخ / محمد الشوبرى الحنفى، تفقه على الشيخ الإسقاطى والشيخ سعودى وبعد وفاة المذكورين لازم الشيخ الوالد وتلقى عنه كثيرا، وكان إنسانا حسنا وجيها لا يتداخل فيما لا يعنيه مقبلا على شأنه، صايم الدهر، ملازما لداره بعد حضور درسه، وكان بيته بقنطرة الأمير حسين مطلا على الخليج.

